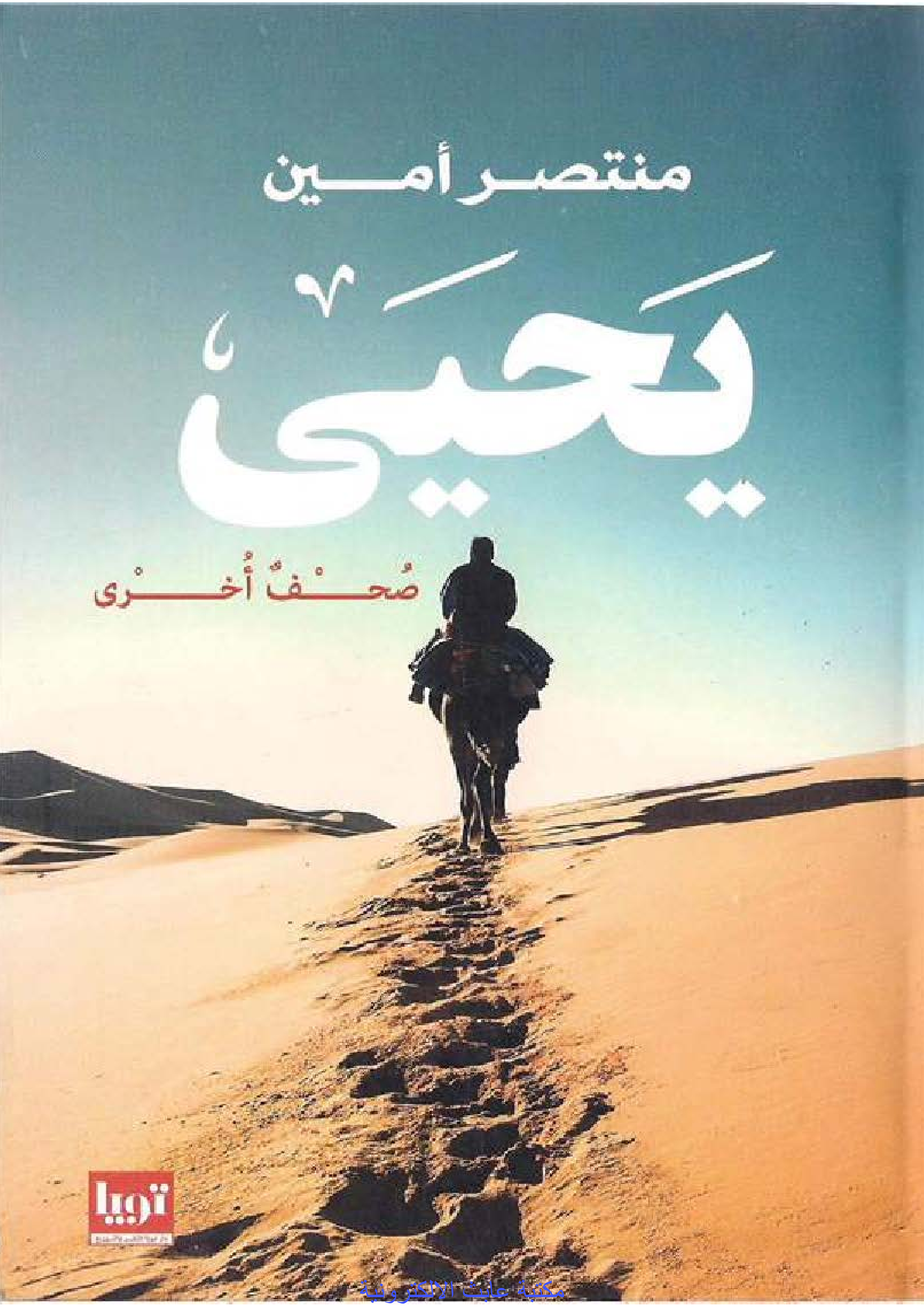

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

الإهداء

للنفس البشرية أغوار سحيقة... قد تبقى مجهولة مستترة

لكنها تمر في تلك الحياة بأطوار عديدة

يقودها في غالب الأمر حق الاختيار

فما بين اختيار واختيار... يكون سر الاختيار

إلى كل نفس خاضت بلاد اختيارها

وتحملت في شجاعة نتائج اختيارها

أهدي هذه الرواية...

منتصر أمين

مكتبة عابث الالكترونية

فِي زَمَانٍ آتٍ لا محالة..

يرونه بعيدًا..

ونراه قريبًا..

مكتبة عابث الالكترونية

(١)

.. زينب وإسماعيل ..

كان ضوء المشاعل عابسًا كالحًا، يهتز في قوة شديدة بسبب تلك الرياح العاتية التي هبّت في اليومين الأخيرين.. كان الجو عبوسا كضوء المشاعل تمامًا، تكاثرت الغيوم السّوداء في السّماء الملُبّدة، كأنّها تبرز لهم وجهها المُعتم.. كانت الظّلمة حالكة، ليل دامس أسود خيم على الأجواء فباتت الأنفس يائسة من انبلاج ضوء الشّمس من جديد..

سبعة أيام كاملةً مضت وهم يسيرون في ذلك الظّلام اللانهائي، يهتدون بتلك العلامات المُوشومة علي جانب الطّريق الرملي تحدد لهم جهة الشمال.. كان الجُند المحتشدون في جمع غفير مهيب قد تسلّحوا بكامل العُدّة والعَتاد، يدقون الأرض في قوة وحماس، يسيرون في انتظام لافت فتهتز تحت أقدامهم، يلبون نداء كبيرهم وقائدهم..

مكتبة عابث الالكترونية

كان المشهد مهيبًا بحق، أعداد غَفيرة من الجُند لا يقلّون بأي حال من الأحوال عن مائة ألف جندي مُترجلًا، يستلّون سيوفهم ويشرعون رماحهم، مقسّمون ما بين ميمنة وميسرة، وفي مؤخرتهم يتواجد الرُماة بنبالهم وسِهامهم.. يتقدمهم عشرون ألف فارس مِغوار يشكّلون قلبَ ذلك التشكيل وقوته الضاربة.. يسير أمامهم قائدهم معتليًا صَهوة فرسه في عزة وشموخ، شابٌ ثلاثيني قوي البُنيان، قَمحي البَشرة، له ملامح مألوفة، عيناه تبثان نظرات قوية نافذة تنزل الرعب في قلوب أعدائه وتمنح حلفاءه شعورًا بالثقة والأمان، يُحيط بخصر سرواله البني إزار عريض أسود اللون مُطرّز بحواف مُذهبة، يعلق على كتفيه غمد من الجلد القوي استكان فيه سيف صَلْد..

اقترب أحد الجنود بفرسه سريعًا من الشّاب الثلاثيني مثيرًا من خلفه زوبعة من الرّمال، سَحب بيده اللّجام في قوة وإحكام فصَهل الفرس بشدة، رفع قائمتيه الأماميتين عاليًا ثم أنزلهما، وقف حيث أراد راكبه يخور بصوت مرتفع، يخرج من منخاريه بخارًا كثيفًا، أومأ الجُندي برأسه إلى الشّاب في احترام بالغ ثم قال يخاطبه بلهجة رسمية:

- معذرة سيدي الحكيم، سيدتنا «زينب» تطلب حضورك لأمر هام.

مكتبة عابث الالكترونية

التفت الشّاب الثلاثيني صوبَ مُحدثه وقال بنبرة جادّة:

- هل أخبرتك ما الأمر؟!..

هزّ الجندي رأسه نفياً، قرن الشاب حاجبيه مفكراً لوهلة ثم ما لبث أن أشار للجندي بالانصراف، اقترب الشّاب بفرسه من بعض قواده ومعاونيه، ألقى عليهم بعض التعليمات بمواصلة المسير والجد فيه كي يصلوا لوجهتم في الوقت المعلوم.. أنهى حديثه ثم وكز فرسه في جانبه بقدمه وجذب لجامه جهة اليمين، صاح صيحةً قوية فانطلق الفرس على إثرها يركض بسرعة بالغة صوبَ مؤخرة الجيش حيث كان موقع النّساء والخدم..

نظر الشّاب أثناء سيره إلى قواته بفخر واعتزاز، لم يكن يتخيل على الإطلاق أن تم الوحدة والتصالح ما بين جميع الطّوائف والعشائر.. فمُنذُ فترة وجيزة كان التناحر والاقتتال هما السّمتان السّائدتان بين الجميع، كانت نيران الكراهية والحقد تسيطر على تعاملاتهم حتّى كادت أن تستأصل شأفتهم، ثم وحدتهم المِحنة، ألّفت بينَ قلوبهم وتحولّت بفضل اتحادهم إلى منحة.. لا يمكن أن ينسى فضل أمه الغالية، التي ربته ووقفت بجواره حتّى اشتد عوده، حافظت له على مُلك العَشِيرة حتّى كبر واستطاع تولي أمورها.. حدّث نفسه:

مكتبة عابث الالكترونية

- آآآه يا أمّاه، لعلّك اليوم تفخرين بما صنعتْ يداك، كل ما يجري الآن ما كان ليحدث لولاكِ أنت..

شدّ لجام فرسه قليلاً مُبطئًا من سرعته حين اقترب من هودج فاخر يحمله أربعة من الرّجال الأشدّاء، كان الهودج تنسدِل الأستار من حوله، تغطيه تمامًا فلا يبين للناظر من بداخلِه.. دنا منه أكثر، مدّ يسراه يزيح تلك الأستار المُسدلة على أحد جوانبه، لاحت على وجهه ابتسامة عابرة حين رأى امرأة في أوائل العقد السابع من العمر، تمددِ على فراشٍ وثير بداخله، أغمضت عيناها في دعة وهدوء، مُستسلمة تمامًا لسلطان النوم، بدا وجهها شاحباً للغاية، كان صدرها يعلو ويهبط فِي إنتظام، لكن حركته كانت بطيئة جداً، كان صوت أنفاسها واهناً لا يكاد يبين..

أشار بيده للرجال الأشداء فأناخوا حملهم على الأرض، نزل عن فرسه ودخل إلى الهودج، جلس بجوارها على الفراش بعدَ أن سلم لجام الفرس لواحد من الرّجال، ربت على وجهها في حنان ثم لثم يدها فِي توقير وحب.. فتحت المرأة جفنيها في وهن بالغ، كان واضحًا عليها أنها تبذل جهدًا [illegible] كي تفتحهما، رمت نظراتها الباهتة صوبه وقالت [illegible]

[illegible] كم بقي على وجهتنا؟!..

مكتبة عابث الالكترونية

تصنّع «إسماعيل» السّعادة وقال بلهجة حاول أن تبدو مرحة:

- ما زلتِ تقلقين على كل شيء يا أم «إسماعيل»، هوني عليك يا أمّاه، سنصل مع تباشير ضوء شمس أولْ أيام الضّياء العشر..

سعلت العجوز بشدة حتّى كادت تلفظ أنفاسها، أغمض «إسماعيل» عينيه في ألم، لم يكن يستطيع تحمّل رؤيتها في تلك الحال من المرض، كان أكثر ما يؤلمه هو ذلك الشّعور المقيت بالعجز، عجزه عن مساعدة أقرب وأحب البَشر إلى قلبه، رمته بنظرات حانية وقالت:

- لا تحزن يا بُني، لا أريد أن أرى تلك النظرة في عينيك الرائقتين، أخبرني أحدهم في زمن بعيد وَلّى ومضت أيامه، مُنذُ أكثر من ثلاثين عامًا أنّ أكثرَ ما يؤلم أمثالي هي نظرات الشّفقة والحُزن التي يراها في أعين المُحيطين به، حينها لم أفهم مقصده، لكني بت الآن موقنة بصدق مقالته..

انتاب «إسماعيل» القلق من حالة أمّه المُتردية، حديثها الخافت ووجهها الذابل، قال بنبرة قلِقة:

- ما الأمر يا أمّاه؟!، لقد أقلقتِني عليك حقًا.

مكتبة عابث الالكترونية

رفعت يدها في وَهنٍ ثم رَبتت بكفها المعروق على خده في حنان وقالت:

- أين نحنُ الآن؟!

ابتسم «إسماعيل» بعدَ أن أيقن أنه لا فائدة تُرجى من محاولته إراحتها وعدم شغل بالها، تأكد أنها ستبقى قلقة حِيال كل شيء كعادتها دائمًا، قال مُستسلمًا:

- حسنًا يا أمّي الحبيبة، نحن الآن على طريق التّجارة إلى ديار الشّمال، وكما أخبرتك مُنذُ قليل بقيتْ أمامنا ثلاثة أيام كي نصل إلى.....

قاطعته أمّه بصوت واهنٍ اقترن بِسُعالها:

- أشعر ببرودة شديدة في أطرافي.

أمسك بقدميها يدلكهما ويفركهما بلين، قال بحنان:

- هل أُرسل لك أغطية أُخرى؟!، لقد اشتدت الرياح في اليومين الأخيرين وازدادت حِدة البرودة.

تجاهلت أمّه ما قاله وسألته لاهثةً:

هل مررنا بالجبلين الكبيرين؟!

هزّ حاجبيه في دهشة وقال:

أتقصدين هذين الجبلين عندَ مدخل درب الأولياء؟!

مكتبة عابث الالكترونية

أومأت برأسها في ضعف وقد عاودها السّعال من جديد، اعتصرت معاناتها قلب «إسماعيل» بشدة فرغب لو دفن رأسه في صدرها كما تعود طيلة حياته، ودّ لو بكى بين أحضانها، لكنّه كان يشعر أنها هي من تحتاج إليه الآن، تجاهل رغبته وقال بصوت حان:

- هل أحضر لك قليلاً من الماء، أو بعضًا من اللبن؟!، أخبروني أنّ لك فترة لم تتذوقي فيها طعامًا أو شرابًا..

ردّت عليه أمّه في حدة:

- لِمَ لا تُجب على سؤالي؟!، هل مررنا بالجبلين الكبيرين؟!

تعجب «إسماعيل» لحدّتها لكنّه تجاهل الأمر، لم يرغب في أن يزيد من غضبها، خاصة أنه ما يزال يذكر أن غضبها كان شديدًا، أجاب بنبرة مهذبة:

- نعم يا أمّاه، لقد عبرناهما مُنْذُ فترة وجيزة.

أغمضت المرأة عينيها قليلاً، سحبت نفسًا عميقًا من فمها، ثم فتحت جفناها فسالت منهما دموعها غزيرة على خديها المتغضّنين، بعدَ أن حفر فيهما الزمن بقسوة سنوات طويلة من الألم والعذاب، إنهار «إسماعيل» فور رؤيته لدموع أمّه وشرع يقبّل يديها وهو يقول معتذرا:

مكتبة عابث الالكترونية

- لا تحزني يا أمّاه، لم أكن أقصد أبدًا أن أُسبب لك الحزن، تعلمين مقدار ....

أشاحت المرأة بوجهها بعيدًا عنه وهي تقول بنبراتها الوَهِنة:

- فلتأمر الجيش إذن أن يعودَ إليهما، ويسلك درب الأولياء.

اعترته الدَهْشَة وقال:

- ولكن يا أُمي هذا طريق وَعِر شديد الخطورة، ونحن جمعُ غفير، ستكون حركتنا فيه .....

لم تُمهله فقاطعته قائلةً في صَرامة:

- سيمكث هناك ليلتين..

صمتت قليلاً ثم قالت في صوتٍ خافت كأنّها تخاطب نفسها:

- وإنّي لأرجو أن تكونا كافيتين.

أنهت عبارتها ثم أشارت له بيدها أن ينصرف، علا صوته صائحًا في الجُند بالالتفاف والعودة نحو طريق الجبلين الكبيرين، حيث ما أسماه البَشر بدرب الأولياء، كان قد سمع

مكتبة عابث الالكترونية

أقاويل كثيرة حوله، وروايات مُتضاربة بشأن تلك التّسمية العجيبة..

مِن النّاس مَن يقول أن أحد الصالحين من الأقدمين الأوائل قد مرّ بذلك الدرب المُقفِر المُوحِش، لصلاحه خافت منه الوحوش والحيّات فغادرت الدرب بغير رجعة، ومن يومها سُمي الدرب بتلك التّسمية..

ومنهم مَن يقول أن أغلب الصالحين وأصحاب الكرامات والخوارق حين يموتون يرغبون في أن يُدفنوا في هذه البُقعة المُباركة لما لها من خصائص وطبيعة مُتفرّدة، حتّى أنّهم يقولون إنّ جثث الموتى لا يُصيبها التحلّل والعَفن إنْ دُفنت في تلك الأرض الطّيبة..

وقال آخرون إنّ تلك البُقعة كانت في أحد الأيام شاهدة على مَقتلة عظيمة بين البَشر، انتصر فيها المفسدون على المصلحين، فبقيت أرواح الصالحين هائمةً فيها تحرس وتحمي من يلوذ بهم ويلجأ إليهم من الضّعفاء والمظلومين..

علا صوت بعض الفرسان كانوا يتقدمون المسير صائحين:

- ها هما الجبلين الكبيرين، استعدوا لدخول درب الأولياء.

مكتبة عابث الالكترونية

سمعت «زينب» تلك الصيحة العالية فتنهدت بصوت مُرتفع، كانت تفكر فيما مضى من سنوات عمرها، تتذكر أحِبتها الذين فارقتهم وبقيت لهم في عقلها أطيافًا باهتة، خيالات شاحِبة تزورها بين فَينة وأخرى، قالت تُحدّث نفسها:

- أرى أن عزمي قد وَهن، أصبحتُ زاهدةً في مواصلة تلك الرحلةِ الشاقة البائِسة التي يُسميها البَشر زيفًا رحلة الحياة، بتّ متلهفةً للقاء الأحبة، مُشتاقة للنهاية، لقد عشتُ بما فيه الكفاية، جفّت أوراق عمري وقاربت على السقوط من شجرة الحياة، لا أمل عندي في أنْ أنال المغفرة والمحبة، لن أحظى سوى باللعنة الأبدية، لعنة تتبعها لعنة تمامًا كما كانت حياتي..

أغمضت جفنيها في أسى بعدَ أن وَمضت في عقلها ذكريات غَابرة كانت قد تناستها بصعوبة بالغة، ترقرق الدّمع في مُقلتيها وهي تتنهد في حزن، استطردت تستكمل حديثها مع نفسها:

آآآه يا زينب، لو كُتب لك أن تعيدي اختياراتك من جديد، أتراك كنتِ ستعيدين ما فعلت؟!..

أفاقها من حديثها مع نفسِها صوت «إسماعيل» حينَ رفع أ ار المو... وخاطبها قائلاً:

مكتبة عابث الالكترونية

- لقد ولجنا يا أمّي درب الأولياء، عمّ تبحثين؟!

لمعت عيناها الوَهِنتين ببريق خافت وهي تقول:

- أبحثُ عن حجرة صغيرة مُتهدّمة، على يمين الطّريق، في باطن صخور الجبل الأيمن..

نظر «إسماعيل» نحوَها في دَهْشَة وهو يقول:

- وماذا في تلك الحُجّرة المُتهدّمة؟!

هزت رأسها في وهن حينَ قالت له:

- لا تَشقق عليَّ الأمر يا بني، افعل ما تُؤمر به.

أومأ «إسماعيل» برأسه موافقًا ثم انصرف من حيث أتى، تركها تسبح من جديد في بحار ذكرياتها الماضية. حدّثت نفسها مجددا:

- لا أعلم لِمَ تتراءى لي أفعالي سيئة إلى هذا القدر؟!، ألأنها تُخالف الأعراف والضمير؟!، وما الأعراف والضمير؟!، إنها أشياء مُجردة نُخدع بها نفوسنا الحقيرة حينَ نرغب في الظفر بشيء، وحينَ لا نرغب، نتنصّل بكل بساطة منها، لا نعترف بوجودها، كأنّها سَراب أو خيال وَاهم، لم يكن أمامي طريق آخر، لا أحد يعلم شعور المرء حينَ يفقد الأمل، حينَ لا

مكتبة عابث الالكترونية

يعرفَ أينَ يذهب أو كيف يتصرف، حينئذ لا تحكمنا أعراف أو ضمائِر، إنّما تملكنا وتستحوذ علينا الغرائِز، وبالأخص غريزة البقاء، وفي سبيلها فعلت ما توجب عليّ أن أفعله».

انتابها السّعال من جديد لكن بضراوة أكبر، أخذت تسعلٍ بشدة حتّى كاد صدرها أن يتحطم، هدأت تلك النوبة قليلاً فاستراحت أنفاسها وهدأت، هزت رأسها في وَهن وهي تُخاطب نفسها قائلةً:

- أنا راضيةٌ عنِ خياراتي وسأتحمّل بشجاعة كلٍ تبعاتِها، حتّى إنْ كنتَ أنتَ الثمن الذي يتوجب عليّ دفعه يا «إسماعيل»».

جاءها صوت «إسماعيل» يصيح آمرًا قواته أن تتوقف عن استكمال المَسير، بعدَ فترة وجيزة رأته يرفع أستار الهودج وهو ينظر نحوها قائلاً:

- وجدناها يا أمّي، ماذا تريدين أن نفعل؟!

رفعت جذعها عن الفِراش بصعوبة، كادت أن تسقط من جديد بعدَ أنْ عصف برأسها دوار شديد، قفز «إسماعيل» نحوها يسند ظهرها، نظر نحوها في حب بالغ وقال:

مكتبة عابث الالكترونية

- هوني عليك يا أمي، أخبريني ما تريدين وأنا ألبي لك أوامرك.

هزت رأسها في وهن وضعف، قالت بعدَ أنْ ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة:

- لن يجدي ذلك هذه المرّة، يجب أن أفعل الأمر بنفسي، ساعدني على النهوض يا بُني.

أمسك بذراعها في قوة يُعينها على الوقوف، ناولها أحد الرّجال المخوّلين بحمل الهودج عصا خشبية طويلة تكاد أن يجاوز ارتفاعها رأسها.. كانت «زينب» في الأصل متوسطة الطّول لكن لانحناءة شديدة أصابت ظهرها مُنذُ فترة باتت أقصر طولاً.. همّ «إسماعيل» أن يُمسك بذراعها مجدداً لكنّها انتزعته منه في قوة تعجّب لها، لكنّه تجاهل الأمر حينَ نظرت نحوه تستطلع منه مكان الغُرفة المنشودة.. أشار لها بيده نحوَ شبح تل قريب بدا لها بصعوبة بالغة في تلك العتمة الحالكة.. توجهت من فورها حيث أشار، تبعها سريعًا بعدَ أن خَاف عليها من وحوش هذا المكان المُقفر وحَيَّاته السّامة، تبعهما نفر من الجند يحملون المشاعل التي كان ضوئها الباهت يكافح مُعب الظّلام المُحيطة بهم من كل اتجاه..

مكتبة عابث الالكترونية

بعدَ فترة قليلة من ارتقائهم للتل بَدت لهم بقايا وأطلال حُجرة صغيرة مُتهدّمة تقع أسفل كتلة صخرية هائلة في الجبل الأيمن، غرفة تقف وحيدةً في وسط هذا المكان المُوحش، التفتت «زينب» صوبَ ابنها وقالتْ في صَرامة:

- أنا وأنت فقط.

عقد «إسماعيل» حاجبيه في دَهْشَة من تصرفات أمّه الغريبة في هذا اليوم الغائِم لكنّه لم يحاول الاعتراض على أفعالها لعلمه بتعبها ومرضها الشّديدين، وليقينه أنّها لن تريد له إلا الخير.. أشارَ لجنوده بالتوقف فأطاعوه على مَضض، انطلق من خلفها يحمل في يمينه مشعَلاً توهّج ضوء شعلته في الظَّلام، قبض بيُسراه على مقبض السّيف المُعلّق في كتفه تحسباً لأي طارئ..

دنا كلاهما من أنقاض الحُجْرة حينَ أبصرت أعينهما كومة من الحجارة مُتراصة في نظام، وجدوا عند أحد أطرافها صخرة مسطحة محفورٌ عليها كلمات لم تكن واضحة بفعل الظّلام والتّراب المتراكم فوق الصخرة، دنا «إسماعيل» بمشعله منها وأزاح بقدمه ذلك التّراب فبانت لهما الكلمات المحفورة:

مكتبة عابث الالكترونية

«هنا يرقد الجسد الفاني لمُعلمي ومولاي سَمْعَان، أشهد أمام الجميع أنّه قد أدى أمانته وخاض اختباره بشرف وإخلاص»..

قرئا ما حُفِر على تلك الصخرة فعلِما أنها وُضعت كشاهدٍ على قبر هذا الذي كتّته الحروف المحفورة باسم «سمعان»، هز «إسماعيل» كتفيه في لا مبالاة، في حينَ أخذت «زينب» تتلفت حولها في اضطراب وتوتر باديَين كأنّما أصابها مسٌ أو جنّ عقلها.. اقترب منها «إسماعيل» محاولاً تهدئتها إلا أنّها دفعت يده في قسوة حينَ رأت على مقربة منهما كوّمة أخرى من الحجارة تُماثل الأولى، رمت عصاها من يدها واندفعت تهرول في خطوات مُرتبكة نحوها.. تبعها وقد استبد به القلق بشأن ما يجري لأمه من أحوال وأمور غريبة لم يعتدها منها..

حينَ اقتربت «زينب» من تلك الكوّمة الثانية تسمّرت في مكانها قليلاً، تستجمع شتات روحها المُتزعزعة ثم تحركت صوبها في خطوات بطيئة مُضطربة، تناولت في يدها المشعل الذي كان يحمله «إسماعيل»، رأت صخرةً تُقارب في حجمها تلك التي وضعت كشاهد على قبر ذلك المدعو «سمعان».. دنت من تلك الصّخرة بوجهها، أخذت تمسح بكفها عليها في سرعة ولهفة، تُزيح أكوامَ الرّمال المُتراكمة فوقها، ظهرت أمام عينيها كلمات حفِرت بدقة وعناية:

مكتبة عابث الالكترونية

..إذا ما انقضت عني من الدَّهر مُدتي فإنّ عزاء الباكيات قليل..

..سيعرض عن ذكري وتنس مودتي ويحدث بعدي للخليل خليل..

ألقت «زينب» بالمشعل من يدها فسقط أرضًا وتطاير من شعلته شرر مُستطير، انكفأت علي وجهها تحتضن تلك الحجارة المتكومة وهي تنتحب بصوت مرتفع، كانت تضرب بكفيها كوّمة الأحجار حينًا ثم تعود لتحتضنها حيناً آخر.. انتابت «إسماعيل» حالة شديدة من الذهول والوجوم جرّاء فعل أمّه، بات حائرًا لا يعرف سبيلاً إلى التعامل معها، هداه عقله لتناول المشعل الذي كان مازال مُلقى على الأرض وقد بدأت شعلته في الخبوت قليلاً، تناوله بيمينه ثم قرّبه من تلك الصّخرة المحفور عليها ما أوصل أمّه لذلك الانهيار الذي تعاني منه، اقترب بعينيه منها فقرأ محفورًا عليها:

«هنا سيواري الثّرى جسدي الفانِي، هنا سيرقد جُثمان يَحْيَى الحكِيم»..

تعجّب كثيرًا من صنيع أمّه، سألها مستفهمًا:

- مَن صاحب هذا القبر يا أمّاه؟!، ولِمَ يُكني نفسه بكُنية الحكِيم؟!، أليست تلك كُنية قادة عشيرتنا؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

لم تجبه العجوز الثكلى واستمرت على حالها من البكاء والنحيب، أخذ يهز رأسه يمنةً ويسرةً غير مُصدّق لِما يحدث لها، استعرت التساؤلات في رأسه المُتعبة بالمهمة الثقيلة التي يوشك على القيام بها مع جيشه، لِمَ كل هذا الحزن على صاحب هذا القبر؟!، ثم مَن هو مِن الأساس؟!..

اقترب منها بعدَ أنْ أصابه الضّيق من تصرفاتها المُبهمة، أمسك كتفها يربت عليها وهو يقول بهدوء:

- لِمَ لا تردين عليَّ؟!، إنّ عقلي تعتريه الهواجس والظّنُون بما يكفي، لا تزيدي من تعبي أرجوك.

التفتت نحوه ورفعت رأسها صَوب وجهه في هدوء غريب، كانت عيناها غائمتان بالدّمع، متحجرتان تماما كأنّهما خاليتان من أي أثر للحياة، صمتت لِوهلة وهي تتأمل ملامح وجهه المُضطّربة ثم قالت في وهَن:

- هذا قبر حَمْزة.

امتقع وجه «إسماعيل» وشحب تمامًا، دارت الدُّنيا من حوله حتى كاد أنْ يسقط على الأرض، تمالك نفسه سريعًا ثم قال بنبرة خافتة:

- أبي؟!، لكن كيف؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

تجاهلته «زينب» كأنه لم يقل شيئًا وانخرطت من جديد في بكائها الحارّ، جنّ جنون «إسماعيل» واستشاط غضبه حينَ أمسك كتفيها يهزهما في قوة، صاح قائلاً:

– ما الأمر؟!، لماذا دُفن أبي هنا وحيدًا غريبًا؟!، ومَن هذا السّمعان الذي يدعوه بالمعلم؟!، لابدّ أن أفهم كل شيء..

رمته «زينب» بنظراتها الجامدة المتحجرة، قامت من جلستها بوهن تتكئ بكفيها على ركبتيها، لم تزد على أن قالت:

– اتبعني.

تناولت من يده المشعل ثم تحركت نحوَ الحُجرة المُتهدّمة، تجاوز على ضوئه الباهت قطعًا من الصّخور والأحجار تعترض طريقها، حينَ وصلت إلى الحُجرة شاهدت بابها الخشبي وقد انخلع من مكانه وتكسّرت أجزاء كثيرة منه، ولِجت إلى داخلها ومن خلفها يتبعها في إصرار «إسماعيل»..

كانت الحُجرة غارقةً في ظلام أشد عتمة من تلك الظلمة التي تسود الأجواء خارجها، لكن ضوء المشعل الشّاحب كان له أثر كبير في تخفيف وطأة تلك العتمة.. كان الهواء ثقيلاً مع تلك الرطوبة والرائحة العطنة التي انتشرت في أرجاء الحُجرة.. تلمسا طريقهما بصعوبة حتّى وجدا دَرجًا حَجريًا يقود

مكتبة عابث الالكترونية

إلى الأسفل، تحركت «زينب» على الفور نحو الدَّرَجِ الحجري ومن خلفها «إسماعيل»، ما إن نفذت درجاته حتى ألفيا نفسيهما في حُجرة أخرى فسيحة صخرية، بدَا للوهلة الأُولى أنَّها محفورة في باطن صخور الجبل، خالية من أي شيء ما عدا فِراش مهترِئ موضوع في جانبها الأيمن مصنوع من الخيش الخَشِن، قنديل قديم معلّق على جانبها الأيسر.. تناول «إسماعيلِ» من يدها المشعل وتحرّك نحوَ القنديل يوقده، ما إن فعل حتى باتت الرؤية شبه واضحة أمام ناظريهما.. أخذت «زينب» تجوب ببصرها في أرجاء الحُجرة الفسيحة حتَّى رأت في طَرف قَصِي منها صُحُفًا كثيرة من جُلود بالية، تحركت نحوها سريعًا، في تلك الأثناء كان «إسماعيل» يتجوّل في أنحاء الحُجرة مُستكشفاً فرأى في نهايتها ما ظنّه فتحةَ بئر..

انتبه على صوت «زينب» تقول في أسى:

- كنت أعلم أنه سيفعلها.

التفت ببصره نحوَها، وجدَها تفترش الأرض جالسة، تمسك في يديها بتلك الصُحف البالية، تقرأ ما فيها بأعين دامعة.. اقترب منها ثم رَبَت على كتفها وقال:

- أما آن لك أن تُخبريني بما يجري؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

رفعت عينيها عن الصُحُف، قالت وهي تكفكف دمعها دون أنْ تنظر إليه:

- اجلس يا بُني.

صمتت قليلاً تستجمع شتات نفسها على حين جلس هو إلى جوارها، بعدَ فترة وجيزة خُيل إليه أنها استمرت أبدَ الدهر شردَت ببصرها إلى الحائط الصّخري المُقابل لها، خرج صوتها واهنًا لكنّه كان عميقًا كأنّه يخرج من أغوار سحيقة:

- أنصت إليَّ جيدًا يا بُني، فما سأقُصه عليك قد يكون بعيدًا عن التّصديق، لم يتطرق إليه خيالك من قبل، لكن لتعلم أنه حق، ولتضع في حُسبانك أنّ الوقت أمامنا قليل، فلا تضيعه في سفاسِف السّؤال، استمع لقولِي، وإنْ لم تجد إجابة عندي فستكون معك هذه الصُحف، تُكمل لك ما خَفي عني من الحكاية..

****

مكتبة عابث الالكترونية

(٢)

.. يحيى ..

لم يكن يسمع شيئًا على الإطلاق. كأنّ أُذناه أُصيبتا بالصّمم التام، توقفتا كُليةً عن أداء وظيفتهما. فَقَطْ سُكُونٌ تام هو ما كان يتسيّد حيزَ الفضاء من حوله. حاول أنْ ينطق لكن صوته لم يستجب كأنّ أحباله الصّوتيّة قد قُطعت أو كأنّ لسانه لا وجود له. مدّ يداه يتحسّس بهما فمه وأُذنيه علّهما يستجيبان، لكن بلا جدوى. انتبه أنّه لا يرى شيئًا كذلك، اعتراه فزع وهلع رهيبين. كان الظّلام من حوله حالكًا شديد السّواد إلى درجة لم يعهدها من قبل. وضع كفاه أمام عينيه، أخذ يحركهما في عصبية لكنّه لم يبصرهما. شعر أنها النّهاية، أيقن أنه في عِداد الأموات.

فجأة قطع حاجز هذا السّكون المُطبق صوت أنفاسه المُضطّربة، كان الصّوت خافتًا في البداية لكنّه مع الوقت بدأ

مكتبة عابث الالكترونية

في الارتفاع حتّى شعر أنه لا يسمع شيئًا سواه. كان صوت أنفاسه المُتلاحقة يضرب تجويف أذنيه بعنف، لكنّه اطمأنَّ حينَ سمعه لكونه مازال على قيد الحياة. كان الصّوت يتكرر باستمرار، يتتابع في نظام رتيب كأنّه سُنّةٌ مِنْ سُنَنِ الكَون. صوت شهيق عميق، يتبعه صوت زفير حادّ. شهيق عميق، يعقبه زفير طويل حادّ.

الغريبِ في الأمرِ أن الزفير كان أكثر حدة وطولاً من الشهيق حتّى أن دَهْشَة غريبة قد انتابته على الرغم من سيطرة مشاعر الخوف الشّديد واستحواذها الكامل على كل ذرّة في كيانه. شعور كئيب بانقباضة مؤلمة تملأ صدره، تحوّل هذا الشّعور إلى هاجس يخبره ويلح على عقله بأمرٍ واحد لا مفرّ منه. أنّ القادم أسوأ. قاوم إحساسه باليأس والعجز، تلفّت حوله ملتاعًا يبحث عن مهرب من ذاك الشعور المقيت الذي استحوذ عليه بسبب الظّلام الدامِس. في بطء شديد بدأت الرؤية تجلي أمام ناظريه شيئًا فشيئًا، انقشعت حُجب الظّلام قليلاً فأفسحت له مجالاً بسيطًا للرؤية.

كانت السّماء مُكفهرة ترسل جامّ غضبها على الأرض وقد تلوّنت بلون أُرجواني عجيب، كان اللون قانيًا إلى درجة لا تستطيع معها تحديده بدقة، كان أشبه ما يكون بلون الدّماء بعدَ تخثرها. دوى هزيم الرعد مُخيفًا يهز أرجاء المكان في

مكتبة عابث الالكترونية

أعقاب إشارات صواعق البرق الحارقة التي أضاءت السّماء بوميض خاطف يبعث الرهبة في القلوب. انقبض قلبه وعَلت دقاته بعدَ أن ارتج بعنف من هول صوت الرّعد، وضع كفه أمام عينيه يحميهما من ضوءِ البرق السّاطع. تلفّت حوله باحثاً من قطرات المطر التي عادةً ما تصحب تلك الظواهر الطبيعيّة، لكن السّماء كانت شحيحة فلم تُرسل ماءها.

ازداد انقباض قلبه بعدَ سماعه لصوت صَرخات عالية تتردد في الأرجاء، انتبه لكونه يقف بالقُرب من حافة تلّة مرتفعة عن الأرض، لم يكن ارتفاع التل شاهقًا لكنّه كان كافيًا لدق عنقه وتهشيم عظامه. تحرّك بحذر للأمام خوفاً من السّقوط في الهاوية المُهلكة، تلمّس طريقه على هدى من وَميض ضوء البرق المُتتابع. من بعيد أبصر أسفلَ التل أرضًا مُنبسطة شديدة الاتساع، ضاقت حدَقتاه قليلاً وهو يحاول التركيز وصولاً لرؤية أوضح. كانت تلك الأرض تعجّ عن آخرها بالبَشر من كل جنس ولون كأنّهم قد أتوا من كل حَدب وصَوب. تحلّقت كل جماعة حول واحد منهم، بدا أنه كبيرهم أو قائدهم، كان يحدثهم حديثًا حماسيًا مُلتهبًا. كانوا يصوبون نحوه نظرات مُلئت بالتوقير والإجلال، كانوا ينصتون لحديثه كأنّه حديث مُنزّل مُنزّه لا يشوبه العَوار ولا يعتريه النقصان. بعدَ بُرهة تبادل هؤلاء الكُبَراء النّظَرات فيما

مكتبة عابث الالكترونية

بينهم ثم التفتوا صَوب أتباعهم، صرخوا فيهم بحدّة وقسوة وهم يشيرون بأكُفهم صَوب الجماعات الأُخرى. كانت تلك الإشارة بمثابة الفتيل الذي أشعل شرارة القِتال، انطلقت على إثرها تلك الجماعات تتصارع فيما بينها بلا هَوادة، كانوا يتقاتلون دونَ سبب ظاهر، فقط كانوا يطيعون أوامر قادتهم. سالت الدّماء بغزارة على الأرض بعدَ أن تفشى القتل بينهم بلا رحمة.

أشاح بنظره بعيدًا عن تلك المذبحة البَشرية بعدَ أن اشمأزت نفسه وعافت ما رأت، التقط أنفاسه بعدَ فترة قصيرة فهدأت نفسه وانتابها الفُضول لمعرفة المزيد. أرسل عيناه جهةَ الأرض المُنبسطة فأبصر مجموعة مِن الرّجال تحلّقوا حولَ طفل صغير يصرخ بشدة ويبكي في حرقة، كانت علامات الخوف والفزع بادية على ملامح وجهه البريء. شرع الرّجال يقتربون منه بخطى وئيدة، الصغير لا يكف عن النحيب و البكاء. فجأة أمسك الرّجال جسده بأيديهم، وبدأوا يتجاذبونه ويتخاطفونه فيما بينهم بعنف حتّى تقطّعت أوصاله ومزق جسده الضّئيل قطعًا صَغيرة. تصارع الرّجال فيما بينهم من أجل الظفر بنصيب من جسد المسكين الصّغير، بعد أن سكتت صرخاته وسكنت حركاته إلى الأبد.

مكتبة عابث الالكترونية

أعرض بوجهه عن ذلك الهول، وضع كفيه على عينيه ليحجب عنهما رؤية ما فاق تصوره، ازداد شعوره بالاشمئزاز من هذا المشهد التعس. ما نال منه أكثر هو إحساسه بالعجز عن مد يدِ العون لذلك الصَّغيرِ البائِس. غلَت معدته وفارت كالتنّور وقت فيضان نوح حتّى وصلت إلى حلقه فانكفأ على وجهه مُفرغًا ما في جوفه وهو ينتفض من الألم..

افترش أرضية التلِ يسعل بشدة محاولاً التقاط أنفاسه وجمع شتات نفسه المُزعزعة، لكن استرعى انتباهه صوت صرخات حادّة وعَويل مُرتفع يأتي من جهة الأرض المنبسطة، رمى بصره مرّة أخرى صوب أسفلِ التل. رأى نسوة وقد تجرّدن من ملابسهن، وقفنَ يستعرضنَ أجسادهنّ بعد أن أصبحنَ عاريات كيوم ولدتهنّ أمهاتهنّ. كان كثير من الرّجال قد تجمّعوا حولهنّ، ينظرونَ إليهنّ بأعينٍ تستعر بلهيب الرّغبة، لكنّهم كانوا يبتعدون عنهنّ في خوف بَدا ظاهراً على حركاتهم المتوترة وملامحهم المُضطّربة. غلبت أحدهم نوازعه فاقترب من واحدة من تلك النّسوة وهو يطرح سرواله أرضًا، اقترب منها في جرأة حسده عليها أغلب الرّجال الواقفينَ من حوله، أمسك بذراعها في عنف ثم طرحها أرضًا وانكفأ فوقها محاولاً النيل منها والظفر بما لديها. فجأة التفت باقي

مكتبة عابث الالكترونية

النّسوة حوله، أنشبنَ أظافرهنّ في عنقه، مزقنَ جسده قطعًا صغيرة بأيديهنّ العارية.

لم يحتمل رؤية أكثر من ذلك فارتمى على ظهره وهو ينظر للسماء باكيًا، يلعن هذا اليوم المَشئوم والسبب الغامض الذي رمى به في هذا المكان المُخيف.

فجأة ترامى إلى سمعه صوت حركة خافتة، كان الصّوت صَادرًا من خلفه. انخفض جسده وارتعشت أطرافه، وقف شعر جسده تمامًا كما القُنفذ عندَ شعوره بالخطر. لبث بُرهة متسمّرًا في نومته ثم اعتدل جالسًا ببطء بعدَ أن توقف الصّوت كأنه لم يكن موجودًا، التفت بحذر شديد محاولاً معرفة مصدره أو طبيعته لكنّه لم يُبصر شيئًا.

استراحت نفسه المُضطّربة قليلاً فعاود النّظر أسفل التل من جديد بعدَ أن سمع صوتًا يشبه صَليل السّيوف وتلاحمها مَصحوبًا بصرخات مفجعة. كان المشهد أمامه مُرعبًا بحق.

رأى أُناسًا قد تجمّعوا حول ما يشبه ضفة النهر، تبدو على ملامحهم وألسنتهم المُتدلّية خارج أفواههم أمَارات الظّمأ الشّديد، يحاولون أن يغترفوا ولو شَربة ضئيلة من ذلك النهر، الذي كان ماؤه أبيض اللون ناصعه. على ضفته يقف حُراس ضِخام البِنية شديدي البأس، كلّما اقترب أحد العَطشى من

مكتبة عابث الالكترونية

النهر طعنه أحدهم في مقتل أو فصل عنقه عن جسده. ظلّ الأمر على هذا المنوال لا يتغير فيه شيء حتى اصطبغ النهر الأبيض باللون الأحمر.

أبعدَ عيناه عن ذلك المشهد البغيض بعدَ أنْ أشاحَ بصره بعيدًا، وهو يحمد السّماء أنه فوق تلك التلّة العالية محمي من المشاركة في هذه الأحداث الدّامية. لكن ذلك الصوت الخافت البغيض لم يُمهله، عاود الظهور مرّة أخرى.

كان صوتًا قريبَ الشبه بالحَفيف لكنّه أخف، على الرغم من ذلك كان وقعه على النّفس أشد وأقسى. أتاه الصّوت هذا من الجهة المُقابلة له تمامًا، حاول معرفة مصدره لكن دون جدوى، بدا أنّ الصَّوت يحدّثه لكن نبراته لم تكن واضحة، أرهف السّمع جيدًا حتّى تبينَ الصّوت يقول بنبرة مبحوحة خافتة:

«مرحبًا بك، مرحبًا بك على الأرض».

سرَت القشعريرة في بدنه عقِب سماعه لتلك العبارة، ظل متسمّرًا في مكانه لم يتحرك قيد أُنملة. بدا الصّوت يعلو قليلاً ويقترب من مكانه شيئًا فشيئًا، لاحَ له من بعيد طيف أخذ يتشكل في هدوء مُخيف، كان طيفًا لجسد إنسان. دقّق النّظر مليًا في ذلك الطّيف الغامض حتّى ظهر له جليًا، كانت

مكتبة عابث الالكترونية

مكانه تراجع هو إلى الخلف مقتربًا من حافة التلّ حتّى إذا ما بلغها وأصبحت أطراف أصابعه تُطل على الهاوية هتف به الصّوت المألوف صارخًا في صرامة:

«عليك بالنجاة الآن.. اقفز، اقفز، اقفز».

شهيق عميق، يتبعه زفير حادّ..

شهيق عميق، يعقبه زفير طويل حادّ..

رفع جفناه مذعورًا وقد غمر العرق الغزير جسده بأكمله، أخذ يلهث بشدة محاولاً التقاط أنفاسه المُتقطّعة وهو يتلفّت حوله يمنةً ويسارًا في ذُعر. بدأ يتحسّس جسده بعد أن غشيته آلام مُبرحة عصفت بكل عظمة من عظامه، اطمأن لسلامته فتنهّد في ارتياح. كان مُعتادًا على مثل تلك الأحلام السّيئة، كانت تلك الكوابيس هي ونيسه ونديمه في هذا المكان القاسِي.

شعر بألم حادّ في عينيه فقد كانت الشّمس ترسل أشعتها الحامية عبر النافذة الحجرية، تضرب وجهه بقوة، تلك الأشعة الحارقة التي تستمر لعشرة أيام متواصلة بخلاف ما قد ألفه في حياته الماضية أو كما سمع من النّاس عن أحوال الشّمس فيما مضى. رفع كفه محاولاً حماية عينيه من أذى الضوء الشّديد

مكتبة عابث الالكترونية

بينما أخذت كفه الأخرى تمسح حبّات العرق التي تكاثفت على جبهته وتقاطرت على وجهه.

كان لا يزال مُمددًا مفترشًا أرضية إحدى الغُرف المتواضعة الموجودة على جانب بعيد من سطح هذا المكان الضّخم الذي أَلِفَ النّاس يُطلقون عليه القَلعَة. كانت الغُرفة صغيرة الحجم إلى حدّ كبير لا يوجد لها باب يحجبها أو يمنع عنها فضول الأعين المُتلصصة، لها نافذة مفتوحة على الدوام لا تمنع قيظ الحر ولا تقي من زَمهرير البرد. تكاد تكون فارغةً تماما من أي محتوى اللهم إلا ذلك الخيش الخَشِن الذي يستخدمه كفراش، يسبب له تلك الآلام المُبرحة في جانبه حينَ يضجع عليه كل ليلة، وكوب مصنوع مِن الخشب الردي،. بالطبع بخلاف ذلك السطل الخشبي الصغير الموضوع بجانب رأسه ليقضي فيه حاجته، يحمله في نهاية اليوم ليفرغ محتواه في تلك الصّهاريج الكريهة الرائحة، المُعدّة للتخلص من فضلات أهل القَلعَة. كانت تلك الأشياء هي كل ما يعرفه في ذلك المكان البغيض الذي لا يعلم سواه، بل كانت تلك الأشياء كل ما يعرفه عن الحياة بأسرها.

تألّف في ألم وهو يتحسّس جانبه بعدَ أن عملِ فيه الخيش مفعوله، تذكّر حاله قبل ذلك فابتسم في سُخرية بعدَ أن أيقن أنه قد تبدّل إلى الأفضل كثيرًا. اتسعت ابتسامته لاعتقاده أنه

مكتبة عابث الالكترونية

تذكر، فالحقيقة أنه لا يذكر شيئًا على الإطلاق من ماضيه. فقط يذكر اسمه، «يَحْيَى» أو هكذا وجد النّاس في القَلَعَة ينادونه. هذه القَلَعَة اللعينة هي كل حياته، لا يعلم شيئًا بخلافها. عند أسوارها العملاقة وبواباتها المَهيبة الحصينة تبدأ وتنتهي حياته. لا يدري ما الذي حدث.. أو.. لا يذكر شيئًا مّما حدث، يذكر فقط ما أخبره به أهل القَلَعَة.

أخبروه أيضًا عن تلك الكارثة الرهيبة التي ضربت الأرض، الحرب الهائلة التي أبادت الخلق، أهلكت الزرع والضّرع. حين صبّت السّماء جامّ غضبها على البَشر أجمعين، هلكت بلدان كاملةً ما بين غرق وحرق، اختفت قارات بأكملها من فوق سطح الأرض، وظهرت قارات جديدة.. لم يبق صالحًا للحياة على وجه الأرض سوى تلك البقعة، وأفضل موقع يصلح للحياة عليها هو القَلَعَة، التي اكتشفها أجداد الأمير وثلته.. أخبروه أن القَلَعَة هي ما تبقت من أنقاض البَشر صالحًا لسكنى البَشر، فيها وجد الناجون الأوائل المَلاذ الآمن من تقلّبات الطّقس وغدر المخلوقات التي نجت من الدّمار.

سمع ذات مرّة أنه توجد حياة أُخرى خارج أسوار القَلَعَة، لكنّها حياة مُغايرة مُختلفة، همجية متوحشة يأكل فيها المرء أبناءه، ولا يأمن فيها الفرد على سلامة أهله.. لكن الحال هنا مُختلف، فالأمير وثلته قد وضعوا القواعد والأعراف

مكتبة عابث الالكترونية

التي تضمن سلامتهم وتحافظ على سلالتهم، أمَّن لهم الزّاد والزواد، أمّن لهم الحماية خلف تلك الأسوار الحصينة، كما أمن لهم احتياجهم من النّساء، كان كل شيء يسير وفقًا لنظام صارم وقواعد حازمة لا يمكن مخالفتها، الويل كل الويل لمن يجرؤ على مخالفة نظام الأمير.

كانت القَلعَة تضم أجناسًا شتى، خليط غريب من البشر.. الأبيض، الأشقر والأسمر.. قالوا له أنهم آخر من بقي على سطح الأرض من البَشر المُتحضرين، أخبروه أنه بعد الكارثة الملعونة نشبت حروبًا ضارية بين الناجين الأوائل، كانوا يتصارعون فيها على الماء والغذاء حتّى تمكنت جماعة من الاستيلاء على القَلعَة وبدأوا يعملون على تحصين أسوارها وحمايتها، كانت تلك الجماعة هم أجداد الأمير. أمّا من يعيش خارجها فهم مجرد جماعات من الهَمج يحيون على السّرقة والنهب وسفك الدماء، يعيشون في فرق وطوائف متناحرة، لكل فرقة منهم أمير. لكنّه أبدًا ليس كأمير القَلعَة.

دوى صَوت نَفير مرتفع ثلاث مرّات مُتالية هبَّ معه واقفًا من فراشه الخَشِن، مد يده إلى الكوب الخشبي الموضوع على الأرض بجوار الفِراش ليشرب، كان بالكوب بعض الماء... بقايا حصة الأمس من الماء فكل شيء في القَلعَة يسير

مكتبة عابث الالكترونية

بقدر، حتّى الماء كان يُشْرَبْ بمقدار. كان دوي هذا النّفير إيذانًا بحلول موعد العبادة الصّباحيّة.

خرج من غرفته بخُطى بطيئة فقد كانت عزيمته فاترة كالمُعتاد، لم يعد شيئًا يثير اهتمامه بعدَ أن أصبحت كلِ الأيام مُتشابهة. حينَ يحلِّ النّهار يبقى زمنًا طويلاً، وحينَ يهبط الظَّلام يربض جاثمًا على أنفاسه أمدًا بعيدًا، وبينهما ضباب تحجب أستاره كل شيء. ابتسم في سُخرية مريرة بعدَ أنْ شعر بلسعة أشعة الشّمس تكوي جبهته، حينَ تذكّر أن أيام الضّياء العشر برغم طولها إلا أنها أفضل بكثير من فترات الظّلام التي لا يجدي معها شعلة متوهّجة أو قنديلاً مضيئاً.

اقترب من سور السّطح في الجهة التي تطل على السّاحة الكبرى للقلعة، كانت تلك الجهة هي الجهة الوحيدة التي يسمح لنفسه بالنّظر منها، لم يكن يجرؤ على النظر ناحية الجهة الأخرى التي تطل على خارج أسوار القَلعَة، كان ما خارج تلك الأسوار بالنّسبة إليه مجهولاً غامضًا، وهو يمقت ما هو غير معلوم ويبغض كل غامض، يفضل البقاء حبيس تلك الأسوار على أن يخاطر بالخوض في المجهول.

كان يتوسط تلك السّاحة الكبرى بالضبط تمثالاً حجريًا هائلَ الحجم، لرجل ضخم الرأس تبدو على ملامحه سمات الفتوة والوقار. مكشوفَ الصدر، ينظر إلى السّماء عاقدًا ساعديه

مكتبة عابث الالكترونية

أمام عضلات صدره المفتولة. لا يعلم أحد على وجه الدقّة حقيقة شخصيته، لكن الأقاويل كثيرة في هذا الشأن، فمن النّاس مَن قال أنه تمثال لرجل صالح سأل السّماء طويلاً أن توقف إرسال لعناتها على البَشر فاستجابت له، ومنهم مَن قال أنه أول من اتّخذ القَلعَة مكانًا آمنًا يصلح للمأوى، ومنهم مَن قال إنه تمثال لأحد أجداد الأمير وأن الناجون الأوائل قد أقاموه تكريمًا لأميرهم.

حقيقة الأمر أنه لا يوجد أحد من أهل القَلعَة يعلم ملامح الأمير، فهو لا يسير بينهم سافِر الوجه مطلقًا، دائمًا ما يخرج إليهم محمولاً في هودج خشبي يحمله أربعة عبيد من الزنوج الأشدّاء وقد أسدلت عليه الحُجر، لا يظهر إليهم إلا مرّة واحدة كل فترة قدروها أنها يوم ولايته عليهم أو حينَ يعود من إحدى أسفاره وغزواته خارج القَلعَة، تلك السفرات التي يعود منها محمّلاً بالخيرات، التي يغمرهم بها وتكفيهم فترة من الزمن حتّى تنفد فيخرج الأمير في سفرةٍ جديدة.

فقط هو من رآه صدفةً لحسن حظه والفضل يرجع في ذلك إلى طبيعة عمله. لم ير وجهه، رآه من الخلف عاريًا لا تستر جسده أيّة ثياب. تعجّب يومها كثيرًا حينَ رآه بشرًا مثلهم، بل إنّ حجمه أقل كثيرًا ممّا ظن. كانت خيالاته

مكتبة عابث الالكترونية

وأوهامه قد صوّرت له أن أميرهم يختلف عنهم، عملاق ضخم أو مارد جبار، بالطبع لابدّ أن يكون مختلفًا فهو الأمير.

كان في ذلك اليوم مسئولاً عن تنظيف مَخدع الأمير احتفالاً باستئثاره بامرأة جديدة، قالوا عنها أنها فائقة الحُسن والجمال، حينَ شاهده خِلسة وهو يغتسل استعدادًا للقاء المُرتقب. كان الأمير مشهورًا عنه ولعه الشّديد بالنّساء وعشقه لهنّ، قُدرته الفائقة على مضاجعتهن. قيل إنّ السّماء قد خصّته بتلك القُدرة الهائلة دون باقي أهل القَلعَة، حتّى أنه قد سمع ذات مرّة أنه قد دخل بعشرة نساء في ليلة واحدة.. بل في آن واحد.. يقولون أنه يحتفظ في كل غُرفة من الغُرف العديدة المُخصّصة له بخمسة من النّساء يأتي أيهنّ أنّى شاء حتّى بلغ عدد نسائه ما يجاوز الألف. على أيّة حال لم يكن ذلك يعنيه على الإطلاق، ما يهم هو اقتناعه ويقينه أنّ هذا التمثال المَهيب الذي يتوسط السّاحة الكبرى لرجل صالح، يجب التبرك به والتوسل من خلاله إلى السّماء لكي تحلّ بركاتها على الأرض وترفع لعناتها عن البَشر.

تحركَ في سيره صوبَ الدّرَج المُفضي إلى السّاحة الكبرى، مرّ في طريقه بعدّة غُرف حصينة مبنية من الحجارة الضّخمة أعلى سور القَلعَة، كانت تلك الغُرف مخصصة للرماة من حراس القَلعَة، يتبادلون فيها نوبات الحرّاسة على مدار

مكتبة عابث الالكترونية

اليوم بأكمله، فحراسة الأسوار مُهمة مُقدسة يحصل مَن يؤديها على مخصصات تزيد بكثير عمّا يحصل عليه باقي أهل القَلعَة، كان الحرّاس دومًا منتبهين متيقظين لأي عدوان خارجي أو خطر قد يَحيق بالقَلعَة وأميرها، صارمين أشدّاء ضد المخالف لقواعد الأمير وأعرافه التي تطبّق على الجميع بدون تمييز.. ليس الجميع بالطبع لكنّها تطبق فقط على مَن يراه الأمير مخالفًا.

على الرغم من فتور علاقته بتلك الطَائفة، لكونه مجرد عامل بسيط من طَائفة العوام جل همه وشغله الشاغل تنظيف الغرف والأماكن أو القيام بما يُسند إليه من أعمال حَقيرة في القَلعَة، إلا أنّه لم يفهم أبدًا سرّ تلك النَظَرات العجيبة التي يرمقه بها الحرّاس على الدوام، نظرات تجمع ما بين الكراهية والاحتقار، نظرات التّشفي والتّعالي على الرغم من أنه لم يكن يُضمر الشر لأيهم أبدًا، كان فقط يسعى لأن يحيا بهدوء وسلام متجنبًا المشاكل قدر المُستطاع، حتّى لا يعود مرّة أخرى لمحبسه اللعين في ذلك القَبْو البغيض الذي فيه كاد أن يذهبَ عقله وبه بدأت ذاكرته التي يعرفها.

كثيرًا ما خاطب نفسه متسائلاً عن سرّ تلك النَّظَرات العدائيّة لكنّه كان دومًا ما يعزوها لكونه يعمل عَملاً حقيرًا ..أو.. لأنّه من طَائفة أقل درجة من طائفتهم، فالنّاس في القَلعَة طوائف ودرجات، لكل منهم نصيب يتحدد وفقًا

مكتبة عابث الالكترونية

للطَّائفة التي ينتمي إليها. توَّصل إلى أن التّجاهل والتّعايش السّلمي معهم هو الحل الأمثل للبقاء، لكن أبدًا لم تنصاع نفسه من داخلها لذلك الحل.

بدأ أهل القَلعَة في الخروج من غُرفهم للّحاق بطقوس العبادة الصّباحيّة، كان الدرج يضيق بأجسادهم، شديد الازدحام بعدَ أن تراصّوا في طابور مُنتظم طويل. زكمت أنفه بتلك الرائحة الغريبة، التي لا يعلم على وجه الدّقة إنْ كانت زكية أو نفاذة، مسحها بطرف ثوبه في لامبالاة بعدَ أن سال مخاطه بسبب تلك الرائحة الغريبة، كان قد اعتاد على ذلك مع كل طقس من طقوس العبادة حتّى باتت العبادة لا تصح إلا إذا زكمت أنفه تلك الرائحة.

مرّ عليه وقت بدَا له طويلاً حتّى لاحت أمامه السّاحة الكبرى. لم يكن طول الوقت يشغل بال أي من أهل القَلعَة لكن ما كان يهمهم هو إطاعة القواعد واتباع النّظام. أبصر بالقرب من التمثال الحجري الضّخم جمع من النّساء يطفن حوله في خشوع وصمت. يطلق عليهن أهل القَلعَة لقب العابدات، كُنّ يُمسكن في أيديهنّ بأفرع ذلك النّبات الغريب الذي تفوح من أوراقه تلك الرائحة النفاذة. كانت تلك العَابِدات قد وضعن غطاءًا من القماش الأبيض الخفيف على رؤوسهن

مكتبة عابث الالكترونية

ا. حين كانت أجسادهن عارية تمامًا إلا من قماشة ضئيلة من ... نوع غطاء الرأس تواري سوءاتهن.

انتهين من طوافهن حول التمثال ثم ركعن على الأرض ا. خشوع ويقين، بعد أن شكلن طابورين متوازيين، أفسحن المجال لمرور سيدة تغطي رأسها بغطاء من القماش الأبيض ... من أسفله خصلات شعرها الذهبية، تبدو على ملامحها ...ات جمال باهر بالرغم من تقدمها الظاهر في العمر، تتبختر ... ثوب قماشي شفاف ملفوف من قطعة واحدة على قدها الماس يستر منه بقدر ما يكشف، تتحرك في ثقة ودلال اتجاه التمثال المهيب. كانت تلك السيدة الفاتنة المهيبة هي كبيرتهن، سيدة العابدات كما يطلق عليها سائر أهل القلعة، ...و على وجهها علامات السطوة والنفوذ، أخذت ترمي ..كان القلعة بنظراتها القوية النافذة، من تصيبه تلك النظرات ...يظهر عليه أمارات التأثر الشديد ويبدأ في مسح وجهه ورأسه بيده ثم يقوم بتقبيل باطن كفه الأيمن، يخر بعدها ساجدًا على الأرض حتى تأذن له سيدة العابدات بالنهوض على قدميه مجددًا.

ظل الحال على ذلك المنوال حتى دوى النفير مجددًا، لكن دويه كان مختلفًا في هذه المرة. كان النفير قد دوى مرة واحدة فقط، لكنها كانت طويلة قوية، كان ذلك يعني

مكتبة عابث الالكترونية

أنّ الأمير قد أنعم عليهم بالظّهور في هذا الطّقس الصّباحي المبارك.

سمع من خلفه أحدهم يقول مُستبشرًا:

- يا لهذا الصّباح المُبارك الذي ينعم علينا فيه الأمير بالظهور.

أجابه آخر في جزل:

- مؤكد أن السّماء قد استجابت لدعوات سَيّدة العَابِدات.

التفت خلفه ليرى مَن المتحدِّث ويتابع حديثه، إلا أن وكزة مُفاجئة من أحد الحراس جعلته ينظر أمامه مُجددًا دون أنْ يعاود التّفكير في الالتفات للخلف مُجددًا. حينَ عاد لوقفته الأولى فوجئ بسَيّدة العَابِدات تقف أمامه مباشرة، كانت في مواجهته بالضبط، بجمالها الفتّان وقدّها الممشوق وروحها التي تخلب الألباب، تنظر مُباشرة في عينيه بعينيها الأخاذتين، خيل إليه أنه قد ارتسمت على شفتيها المكتنزتين شبه ابتسامة. توقّف عقله عن العمل لوَهلة مأخوذًا بجمالها وفتنتها، لكنّه سرعان ما استفاق من تلك الحالة التي لن تجلب عليه سوى الوبال والخَراب، خرّ ساجدًا يمرّغ وجهه في تراب السّاحة الكبرى حتّى سمعها تأذن له بالنّهوض فأطاع وهو ينظر بعينيه

مكتبة عابث الالكترونية

إلى الأسفل، كان يرى قدميها، انتظر أن تتحرك مُبتعدةً عنه إلا أنّ وقفتها طالت ممّا دفعه لرفع رأسه نحوها، لوَهلة خُيل إليه من جَديد أنّ عيناها تبتسمان له، اعترته الدَهْشَة لكنّه لم يزد عن ذلك فاخفض نظره سريعًا إلى الأرض مُجددًا، حتى رحلت. لم يكن أيٍ من أهل القَلعَة يفكر ولو للحظة في النّظر بشهوة لأجساد العابِدات أو سيدتهنّ، على الرغم من جمالهن الصّارخ وما لاكته الألسنة من أقاويل عن حكاياتهن ومغامراتهنّ، خوفًا من بطش الأمير وحُراسه. عن نفسه، كان يتبع ما يفعله أهل القَلعَة دونَ أدنى تفكير، فما اجتمع عليه النّاس هو الحق وإن بدا مخالفًا للواقع أو الصّواب، خاصة وأنه لا يذكر شيئًا عن حياته الماضية.

انتبه من شروده حينَ لمح سَيّدةُ العَابِدات ترفع ذراعها في دلال إلى الأعلى كاشفةً عن بياض إبطها النّاصع، تُشير بكفها صوبَ إحدى شُرف القَلعَة بالطّابق الثالث منها. دوّى هتاف أهل القَلعَة مُزلزلاً لجنباتها وجدرانها حينَ صاحوا بحماسة بالغة:

- عاش أميرنا، عاش أمير القَلعَة..

في تلك اللحظة المُباركة ظَهر طيف الأمير من تلك الشّرفة وهو يلوّح بيده مُحييًا جموع المُحتشدين في السّاحة الكبرى،

مكتبة عابث الالكترونية

سرى الحماس فيهم عقب قيام الأمير بالتلويح لهم من شُرفته العلوية، وأخذوا يرددون الهتافات والدّعوات له.

رفعت سَيِّدةُ العَابِدات يدها مُجددًا في إشارة منها بالتزام الصّمت. هدأت الحشود وسكنت، وهم ينظرون نحوها. رفعت يداها في اتجاه السّماء واتّسعت عيناها عن آخرهما وهي تنظر صوبَ رأس التمثال المَهيب، اقتربت منه على مهلٍ بخطوات واثقة حتّى وصلت أسفل قدميه، خرّت ساجدةً تُقبّلهما في يقين وخشوع وهي تتمّم بصلواتها وابتهالاتها ثم قامت تلتفت لهم وصاحت بصوتها الرّخيم:

- بُورك لكم في يومكم هذا يا أهل القَلعَة الكرام..

علت صيحات الاستحسان وهلّل الحشد في سعادة وحُبور فقد حصلوا على بركة سَيّدةُ العَابِدات بما يعني أنّ يومهم سيكون موفقًا ولن تحلّ عليهم أي لعنة تؤرّق حياتهم.

دوّى النّفير من جديد ثلاث مرّات مُتالية مُعلنًا انتهاء طقوس العبادة الصّباحيّة وانتشر الحُرس بين أهل القَلعَة يوزعون كلِ طَائفة منهم في اتجاه مُختلف. تحرك «يَحْيَى» في بَلادة وسَأم في اتجاه القَبو، حيث كان يجتمع مع أبناء طائفته من العَوام لتسلّم مهام وأعمال اليوم، وأيضًا تسلّم حصة اليوم من الطّعام والشّراب.

مكتبة عابث الالكترونية

نظر إلى يمينه حيث كان بعض الكُبرَاء يتوجهون إلى حوانيت تراصّت واجهات أبوابها في نظام بديع وأناقة بالغة تزين جَنبات السّاحة الكبرى، كانت تلك الحوانيت مُخصصة فقط لقضاء حوائج الكُبرَاء، وهم الطَائفة التي تلي الأمير وثُلته، كما تلي الحرّاس في ترتيب الطّوائف، كان هؤلاء الكُبرَاء هم الذين يمتلكون المال والثروة، يشتغلون في التّجارة.. أي تجارة.. طعام أو شراب، نساء أو أطفال، عبيد.. لا يهم.. ما يهم هو أنهم يحصلون على حصة تزيد على ما يتحصّل عليه باقي أهل القّلعة.

وقف مع أقرانه من العوام عندَ مدخل القَبْو ينتظرون البدء في توزيع الحصص، انتبه لصوت صرخات صادرة من باطن الأرض، أسفل قدميه بالضّبط. أرهف السّمع جيدًا حين تبيّن أنه صوت صرخات مُرتفعة تدل على ألم فظيع، اعترته الدَهْشَة فلم يكن يعلم أنّه يوجد طابق آخر أسفل القَبو، كان جُلّ ما يعرفه أنّ هذا القَبْو هو أسفل وأحط مكان في القَلعَة، يكفيه ما يملكه عنه من ذكريات أليمة وقت أنْ كان حبيسًا في أحد زنازينه الضّيقة المُعتمة. تنهّد في ضيق بعدَ أنْ اجتاحت نفسه وآلمتها ذكريات تلك الفترة البائسة من حياته، بل بمعنى أكثر دقة تلك الفترة التي تبدأ عندها ذكرياته..

مكتبة عابث الالكترونية

انتبه على صَرير باب القَبْو المعدني الضَّخم حين فُتح محدثًا جَلَبَة وضوضاء مرتفعة، غير محمودة في الأصل، لكنها كانت بالنسبة لمثله أفضل من صوت طائر مالِك الحزين، فهي تعني أن بإمكانهم البقاء على قيد الحياة ليوم جديد، حتى يحين موعد تسلّمهم لحصص الغد من الطّعام والشّراب..

أشار لهم أحد الحرّاس بالتوجه إلى غرفة على يمين الرّدهة الطويلة التي تتوزع على جنباتها غرف القَبْو وقاعاته، في منتصف تلك الردهة بالضبط توجد أسياخ معدنية غليظة تمتد قائمة من أرضية القَبْو حتّى سقفه تشكل بوابة أُخرى، تقسم الرُّدهة لنصفين وتفصل هذا الجزء عمّا خلفها، يحرسها ثلاثة من الحرّاس الأشدّاء، يقفون خلفها في حدّة وصرامة بالغة، كانت تلك البوابة الثانية هي الفاصل ما بين غُرف القَبْو العامة وغُرفه الخاصة، أو زنازينه الملعونة إنْ شئنا الدّقة..

تحرّك صوب غرفة الطّعام التي تخص أبناء طائفته وهو يُمني نفسه أن تكون حصة اليوم بها ما يخالف ما اعتادته أمعائه من طعام لا يُسمن ولا يغني من جوع، أخذ يختلس نظرات مُرتعشة صوب بوابة القسم الخاص بالزّنازين وهو يتذكّر مقدار ما تجرعه من عذاب وآلام في تلك الفترة..

- هيا أسرعوا، أسرعوا أيها الحَمقى..

مكتبة عابث الالكترونية

جاءه صوت المسئول عن توزيع حصص الطّعام خشناً جافاً كعادته كل يوم، لا يتوقف أبداً عن تقريعهم والمنِّ بما يجود به عليهم من طعام رديئ، كثيراً ما سمعه يصرخ فيهم قائلاً:

- لا أجد لكم فائدة تُذكر في هذه الحياة، أنتم تعيشون عالة على أهل القَلعَة، فالتنظيف مُهمّة النّساء، لكنّهنّ أفضل منكم لأنّ لهنّ مهام أُخرى، فلتحمدوا السّماء على نعمة إبقاء الأمير عليكم أحياء حتّى الآن.

تأفّف في ضيق وهو يقول مخاطباً نفسه:

- فلتحلّ اللعنات على هذا الحقير، لولانا نحن لغرقت القَلعَة وأهلها في الوسخ.
- هيا تحرك أيها الأبلَه.

انتبه من شروده على صوت أحد الحرّاس يحدثه بعدَ أن وكزه في كتفه، التفت إليه وهو مُتسمّر في مكانه لا يتحرك خطوة واحدة، استشاط غضب الحَارِس فصرخ فيه بحدّة:

لماذا تقف هكذا دونَ حِراك؟، هل أنت أصم أيضاً؟، أما يكفيك ما بك من بلّه وعَته؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

تدّخل أحد زملائه من طَائِفة العوام في الحوارِ محاولاً تلطيف الأجواء، ومنع العقاب عن زميله فقال بنبرة معتذرة:

- نعتذر سيدي الحْارِس، أرجوك أن تعفو عنه، لعلّه لم يسمعك لكونه يعمل ذهنه فيما يجب عليه إنجازه من أعمال اليوم.

حَدَجهم الحْارِس بنظرة مُتعالية ولم يجب، فقط اكتفى بأنْ أشار لهم بطرف يده في ضيق واحتقار بما يعني استمرارهم في التّحرك، أمسك الرّجل بذراع «يَحْيَى» يحثّه على البدء في التحرك ثم اقترب من أذنه يقول همساً:

ما بالك يا صديقي؟، لا تبدو على ما يرام اليوم، أهناك خطبٌ ما؟.

لم يجبه «يَحْيَى»، اكتفى بأن هزّ رأسه نافيًا وسار إلى جواره حتّى غادرا القَبْو يسيران بمُحاذاة جُدران السّاحة الكبرى، كان ممنوعًا عليهم أن يسيروا في منتصف السّاحة في الأوقات التي يسير فيها الكُبَرَاء منعًا لاختلاط الطّوائف، وما يسببه ذلك من ضيق وتأفف للكبراء.. ندت عن «يَحْيَى» صيحة تأفّف وهو يختلس النّظر إلى الكُبَرَاء وهم يسيرون بحرية في السّاحة الكُبرى، يحملون طعامًا يختلف تمامًا عن

مكتبة عابث الالكترونية

تلك القاذورات التي يطعمونها لهم، ربّت زميله على كتفه وهو يقول:

- ألنْ تُخبرني ما الأمر؟، ما الذي يؤرقك اليوم يا صديقي؟.

التفت إليه «يَحْيَى» مصوّبًا له نظرات فارغة من أي معنىً ثم قال ببرود:

- لست صديقك يا «خليل»، أنا لا أذكر أنّي أعرفك من الأساس..

احمرّت وجنتا «خليل» من الخجل لإحراج «يَحْيَى» له بتلك الصورة الفجّة، أغلق فمه ولم ينبّس ببنت شفة، أحس «يَحْيَى» بما سببه من حرج لزميله فقال:

- حسنًا إنْ كان لابدّ وأنْ تعرف فاعلم أنني لا أفهم شيئًا ممّا يجري هنا، لماذا نقوم نحن بتلك الأعمال الحقيرة في حينَ يكون هؤلاء من الكُبراء؟!، لماذا نأخذ القليل الحقير من الطّعام والشّراب في حينَ يحصلون هم على أجود الأنواع وأنخرها؟!، لماذا تلك الطّبقات والطّوائف اللعينة من الأساس؟!.

تجاوز «خليل» ما حدث من صديقه مُنْذُ قليل، وابتسم وهو يجيبه:

مكتبة عابث الالكترونية

- هل تظن أنّي لو كنت أمتلك الإجابة أو حتّى حق الاختيار أنني كنت سأختار طائِفتي هذه؟!، يا صديقي تلك هي رغبة الأمير وإرادته التي لا رادّ لها، هو من يوفر لنا الطّعام والشّراب، الحماية والأمن، العبادة والمُتعة، إنْ استطعنا توفير تلك الاحتياجات من دونه أظن أنه سيكون لنا الحق في الاختيار وطرح تلك التساؤلات السّخيفة.

رمقه «يَحْيَي» بضيق ولم يعقب على قوله، في حين هزّ «خليل» رأسه متفهمًا موقف صديقه ثم قال في عَجل:

- الآن يجب علينا الاستعداد ليوم طويل من العمل الشّاق.

نظر له «يَحْيَي» مُتسائلاً وهو يقول:

- هل وزّعت علينا الأعمال المطلوبة؟.

أومأ «خليل» برأسه وهو يقول:

- نعم، سأقوم بتنظيف الجزء الخلفي من تلك الصّهاريج الكريهة.

مطّ «يَحْيَي» شفتيه في ضيق وهو يقول مُتأففًا:

مكتبة عابث الالكترونية

- ياله من يوم آخر كريه الرّائحة، لكنّه على أيّة حال أفضل من تكسير الحجارة أو جمع الأخشاب ورصّها طوال اليوم تحتَ تلك الشّمس المُحرقة.

نظر «خليل» إليه متعجباً وهو يبتسم، ما لبث أنْ تحوّلتْ ابتسامته تلك إلى قهقهة بصوت حاول أنّْ يُبقيه خافتاً قدر المُستطاع ثم قال ساخراً:

- كلاّ يا صديقي، يبدو أنّك قد أساءت الفهم، تنظيف الصّهاريج مهمتِي أنا، أمّا أنت فهمتك ستكون تنظيف بعض تلك الزّنازِين اللعينة.

****

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

(٣)

.. حمزة ..

كانت الشّمس قد شارف ضياؤها على الزوال بعدَ أنْ ملّت أشعتها ساطعة لعشرةِ أيامٍ ممّا تُعدّ وتُحصي في هذا الزمان، عشر أيام متتالية اصطلى فيها البَشر بقيظ حرّها قبل أن تقرر الانسحابَ من موقعها انسحابًا مؤقتًا، إيذانًا باقتراب موعد حلول الضّباب الذي سيهبط على الأرض لعشر أيام متوالية قبل أن يجثم الظّلام الدّامِس على الصّدور لعشر مثلهن..

ارتفع صوت القوم بالصياح والتّلاسُن فيما بينهم دونَ ضابط أو رقيب ينظم احتدام النّقاش وحِدّةَ الحديث.. كان القوم قد اجتمعوا في مكان مُحايد يتوسط المسافة ما بينَ طوائفِهم وعشائِرهم المُختلفة، بعدَ أنْ حدثت أمور عاجلة أدّت لخرق العهود والمواثيق الغليظة التي أُخذت فيما بينهم..

مكتبة عابث الالكترونية

بدأ الأمر حين اعترض بعض مقاتلوا عشيرة المغاربة قافلة تجارية تخص عشيرة المشارقة، قطعوا عليهم الطريق ونهبوا ما معهم من تجارة وسبوا النساء المرافقات لهم في هذه القافلة.. استشاط غضب المشارقة وجهزوا الرجال وسلحوهم بالعدة والعتاد، شرعوا في التحرك صوب ديار المغاربة طلبًا للثأر..

لكن، كان من حسن الطالع أن وصل نبأهم إلى «إبراهيم الحكيم» كبير عشيرة الوسطيين، والذي كان يحظى باحترام كبير لدى كافة العشائر لدوره الكبير والمؤثر في وقف ذلك الاقتتال القديم، الذي كان دائرًا فيما بين العشائر المتناحرة دون توقف لفترة زمنية طالت حتى كادت أن تفني كافة العشائر.. الأمر الذي يصب في نهاية الأمر لصالح أهل قلعة الشمال وأميرهم الطاغية، الذي كان يسعى لبسط نفوذه وهيمنته على كافة العشائر، يستبيح أملاكهم بالسلب تارة وبالنهب تارة أخرى، يسترق رجالهم وشبابهم، يسبي نسائهم..

دعا «إبراهيم الحكيم»» في محاولة مخلصة وسعي دؤوب لرأب هذا الصدع الذي يهدد بفناء كافة العشائر والطوائف، قادة وكبراء العشائر المتعاهدة لعقد جلسة عرفية للتوصل لاتفاق جديد يضمن بقاء واستمرار حالة الصلح والمهادنة فيما بينهم..

مكتبة عابث الالكترونية

في هذا الوقت كان «حَمْزة» جالسًا بينَ بعض أقرانه المنتمين إلى عشيرة الوَسَطيين، شاب ثلاثيني العمر لبشرته لون قمحي محبب، له قوام معتدل رشيق، يتميز جسده بقوة فطرية.. كان يفترش الأرض الرّملية لساحة الاجتماع في ضجر شديد، يقبض بكفه الأيمن في عصبية بالغة على مقبض سيفه بينما تداعِب أنامل كفه الأيسر في توتر الحصى الصّغير المُنتَشر في كل شبر من أرضية المكان.. كان الضّجيج شديدًا، بعدَ أن بلغ صخب القوم أوجّه، ممّا زاد من شعوره بالضيق والحَنق خاصّة مع اعتراضه على إبرام هذا الاجتماع من الأساس..

كان يعتقد أنْ إبرام هذه المواثيق إنّما يرجع لقلّة حيلة العشَائِر المُتناحرة ودليل دامغ على ضعفهم الشّديد، كان يظن أنّها لن تعود بالنفع مطلقًا على أيّ منهم خصوصًا مع حالهم المعروفة من التّشرذم والفُرقة، كان يرى أن تلك العهود تزيد من حالة الخمول والاستكانة لدى أهل الطّوائف والعشَائِر ممّا يقوي من سيطرة ونفوذ قلعة الشّمال وأميرهم، خاصّة وأن بعض العشَائِر ومنهم المشارقة والمغاربة يتعاملون سرًا مع قلعة الشّمال، يقدمون لأميرها فروض الولاء والطّاعة، يمنحونه العطايا والهبات في مقابل كفّ أذاه عنهم وعدم تعرضه لهم بالقِتال أو السّلب والنّهب، إلا أنّ الأمر لم يسلم من قيامه

مكتبة عابث الالكترونية

ببعض الغزوات الخفيفة يستعرض فيها قوته عليهم ويقوم بسرقتهم وقتل بعض رجالهم وسبي الكثير من نسائهم..

أمّا بالنسبة للوسطيين، أو عشيرة «حَمْزة»، فقد كان الأمر مختلفًا.. أصرّ «إبْرَاهِيم الحكِيم» على مقاطعة قلعة الشّمال حتّى يعودوا عن طريق الأذى، رفض قسم الولاء والطّاعة لأميرها الباغي، اختار ومن خلفه عشيرته طريق المقاومة والصّمود، دخل الشّماليون معهم في معارك ضاريّة حتّى يئسوا من دحرهم وكسر عزيمتهم، قرّر أميرهم عدم استكمال طريق المواجهة المباشرة، اكتفى ببعض المناوشات الخفيفة بين كلِ حين قاصدًا منها استنزاف مواردهم المحدودة ووضعهم تحت الاختبار دومًا..

كانت الأوضاع بالنسبة لعشيرة الجنوبيين مشابهة لأوضاع الوَسَطيين، من حيث المُقاطعة ورفض الانصياع لسلطان وجبروت أمير الشّمال.. فعلى الرغم من طبيعة الجنوبيين المُسالمة من الأساس، حيث كانوا يشتغلون في الأصل بالزراعة والرعي بعد أن حبتهم الطبيعة بأرض خصبة وأنهار غزيرة مما جعلهم سلّة الغذاء التي تكفي باقي العشائر والطّوائف، إلا أنه وبحكم موقعهم المُلاصق لعشيرة الوَسَطيين فقد كانوا يعتبرون أنفسهم جزءًا لا يتجزأ منهم.. وكان الوسطيون يعدّونهم عمقًا

مكتبة عابث الالكترونية

طبيعيًا لعشيرتهم وأرضهم، ممّا جعلهم يوفرون الحماية لهم في مقابل إمدادهم بالغذاء وخيرات عشيرتهم اللا محدودة..

كانت كل تلك الأفكار المُتضاربة تتصارع بشدة داخل عقل «حَمْزة» ممّا جعله يتذمّر من هذا الاجتماع الذي فُرِضَ عليه حضوره، لكنّه كان يتذمّر سرًا، فقد كان ولاؤه وطاعته لكبير عشيرته «إبْرَاهِيم الحَكِيم» أكبر من رغبته في إرضاء ذاته.. كان «إبْرَاهِيم الحَكِيم» هو مَن تولى تنشئته وكفالته بعدَ وفاة والديه، علّمه كيف يخوض غِمار هذه الحياة القاسيّة، غرس بداخله تلك المبادئ النبيلة التي لا يقف عقبة في طريق التزامه بها سوى طموحه الجامح، كان هو مَن جعل «حَمْزة» قَائد قوات عشيرة الوَسَطيين.. أفاق من أفكاره وانتبه للحضور بعدَ أنْ عَلا صوت بعضهم صائحًا:

- لتكن الحرب أو كما شئتم، نحن لا نَهاب الموت.

صاح أحدهم في محاولة لاحتواء الموقف:

- قليل من العقل يا سادة، ليس في الحرب مصلحة لأي منا.

أجابه صوت آخر في حدّة:

تبًا لكم، إذن فهي الحرب.

مكتبة عابث الالكترونية

كاد تلاسنهم أن يتطور لاشتباك عنيف بعدَ أن استلَّ بعضهم السّيوف حتّى انبرى رجل طاعن في السّن واقفًا، تقدم إلى منتصف السّاحة بخطوات واثقة بطيئة متكئًا على عصا خشبية طويلة تكاد تصل إلى منكبيه العريضين.. كان الرّجل طويلاً بحق، له هيبة ووقار ظاهرين للعيان، على الرغم من اقترابه من السّبعين خريفًا إلا أنّ عيناه كانتا ثاقبتان تخطفان الأنظار وتخلبان الألباب، له لحية بيضاء طويلة تكاد تلامس صدره، تبدو على ملامحه وبنيانه آثار قوة وفتوة قديمة عفَى عليها الزمن ورمتها الأقدار في غياهب النّسيان بعدَ أن انحنَى ظهره إلى الأمام قدرًا يسيرًا..

صمت الجميع احترامًا وتقديرًا للرجل المَهيب، الذي أخذ يجيل بصره فيهم بنظرات صارمة تكاد أنْ يخلع لها قلب مَن تقع عليه.. تمهّل الرّجل قليلاً حتّى تأكد من صمت كافة الحضور، نظر بطرف خفي إلى حيث يجلس «حَمْزة» الذي ما أنْ رآه حتّى اعتدل في جلسته وعدل من وضع السّيف في جانبه..

تنحنح «إبْرَاهِيم الحَكِيم» ثم سعل بشدّة وهو يقول بصوت واهنٍ، وإنْ كانت نبراته لها عمق وصدى ينزلان الرّجفة والرّهبة في أفئدة سامعيه:

مكتبة عابث الالكترونية

- لعلكم جميعًا تعلمون مَقصَدي من وراء الدّعوة لهذا الجمع.

صمت قليلاً وهو يجيل بصره مُتفرسًا فيمن حوله ليرى أثر كلامه في وجوه الحاضرين، ثم قال بعدَ أنْ فرد هامته حتّى ظن الحضور أنه قد استعاد عافيته وفتوته من جديد:

- كنت أظن أنّنا استوعبنا دروس وعبر الماضي ممّا جرى لأقوام سبقونا في هذه الحياة، جرت عليهم سنّة الكون من الرّحيل والفناء بعدَ أنْ كانت أسمائهم تملأ الأرض وما عليها، لكن بقيت لنا قصصهم وآثارهم لكي نتعلم ونعتبر منها.

سادَ صمت مُطبقٌ بين جموع الحاضرين بعدَ أنْ قال «إبْرَاهِيم الحَكِيم» عبارته الأخيرة، أطرق كثير من الرّجال الذين كانوا يتصايحون ويتلاسنون رؤوسهم إلى الأرض خجلاً وتراجعوا للوراء مُفسحين له المجال تمامًا للحديث.. رماهم «إبْرَاهِيم الحَكِيم» بنظرة غُلفت بمشاعر الشّفقة والحزن حين أكمل حديثه مستطردًا:

إنّ النّاظر المُتمعن في أحوالنا وواقعنا المؤلم الأسيف سيكتشف بكل سهولة ويسر أنّ ما نحن فيه من خوف وجزع سببه الرئيسي يعود إلينا نحن، الفُرقة

مكتبة عابث الالكترونية

والتّشرذم هُما ما يمنحان الفرصة السهلة لأهل قلعة الشّمال للتحكم في مقدراتنا ومصائرنا.

صمت قليلاً ليستجمع أنفاسه المُتقطعة، ابتلع ريقه بصعوبة ثم سعُل من جديد قبل أن يُكمل:

- وماذا فعلنا نحن للحيلولة دونَ ذلك؟ لا شيء، بل الأدهى والأمر أننا نزيد من حالة الفُرقة المتأصّلة بيننا بخلق صراعات جديدة ليس لها أصل من الأساس.

رفع رأسه إلى السّماء، سرح بصره في ملكوتها الفسيح وهو يقول بحروف واضحة كستها نبرة مليئة بالحُزن والمرار:

- لعلنا ما زلنا نذكر تلك الأحداث المُؤسفة التي حلّت بنا، ذهبت بما كنا نعهده ونألفه من حياة كنا نحسبها مُتحضرة، ربما لا يذكر أغلبكم تلك الحقُبة البعيدة البالغة الصّعوبة، لكن دعوني أذكّر نفسي وإياكم بها بما سمعته من آبائنا، ما خبرته عن النّاجين الأوائل.

تململ «حَمْزة» في جلسته وبانت على ملامحه أَمَارات التأفف، بعدَ توقعه أن يكون هذا الحوار هو بداية لأحد تلك الأحاديث المطوّلة التي يحدثهم فيها «إبْرَاهِيم الحكيم» عن العهود الغابرة وشكل الحياة على الأرض فيما مضى، كيف أنّ الزمن الماضي كان أفضل من زمنهم الحاضر. حدثه

مكتبة عابث الالكترونية

نفسه متسائلةً عن ذلك السّبب الخفي العجيب وراء إصرار الطّاعنين في السن دومًا على اعتبار الماضي أفضل من الحاضر فقالت:

ألا يستتبع ذلك بالضرورة أن يكون الحاضر أفضل ممّا هو آت؟!، فاذا كان ذلك صحيحًا فما ضرورة الأمل في الغد الأفضل؟!، ما لزوم العمل والبناء إذا كان لا يوجد في الإمكان أفضل ممّا كان؟!.

أخبرته نفسه أنّ حديث هؤلاء القوم يهدم كل أمل يمكن أنْ يكون في غد أفضل، يخمد جَذوة كل طموح، تمتم بصوت خفيض:

اللعنة على طاعني السّن، لماذا يريدون أن يملكوا ويستحوذوا على كل الأزمان؟، ألم يكفهم ما عاشوه من عمر طال بهم حتّى أوصلونا لما نحن فيه؟، كفى، الآن وقتنا نحن، هذا زماننا نحن.

أفاق من شروده وحديثه مع نفسه على صوت «إبْرَاهِيم الحكِيم» وهو يُكمل حديثه بعدَ أن رماه بنظرة معاتبة:

إنّ الطّموح الذي لا تغلفه رقائق الحكمة والتدّبر لا يكون طموحًا، بل يكون طيشًا وحماقة، قد تُفضي بصاحبها وتورده موارد الهلاك، تمامًا كالفرس الجامح،

مكتبة عابث الالكترونية

لا يمكن الاستفادة منه دون لجام يقيد عنقه، قد يبدو في ظاهر الأمر أنه قيد خانق يعيق تقدمه، لكنه في حقيقة الأمر هو مجرد منظم لخطواته، يضمن له استمرار التقدم دائمًا إلى الأمام.

نظر «حمزة» إلى الأرض بعد أن اعتراه الحرج لشعوره أن هذا الحديث موجه له بذاته، في حين استمر «إبراهيم الحكيم» في حديثه:

- كان الأقدمون فيما مضى يحيون حياة مغايرة، تختلف عما نراه الآن، كانوا شعوبًا وأعراقًا كثيرة، يتفاوتون فيما بينهم في الدرجة والمقام، كان المعيار المادي طاغيًا متسيدًا على كل مناحي الحياة، كان ذلك المعيار هو الذي يمكن أن يعول عليه لقياس مدى تقدم هذا الشعب عن غيره، لكن كان هناك معيار روحي آخر لا يمكن إغفاله أبدًا، يتحكم ويقيد جنوح النفس الإنسانية وميلها بطبيعتها للطيش والهوى، تطورت الحياة وفقًا لقوانينها ونواميسها الكونية حتى بلغت درجة من التقدم، خيل لهم غرورهم أنهم قد ملكوا الأرض وما عليها.

مكتبة عابث الالكترونية

شعر «إبْرَاهِيم الحكِيم» بشيء من الوَهن يجتاح صدره العليل لكنّه أصر على استكمال حديثه فقال بنبرة لاهثة متقطعة:

لكن، ولأنّ ديمومة الحال دربٌ من دُروب المُحال فقد حدث ما كانوا يظنون أنه لن يحدث أبدًا، لجأة نضبت موارد الأرض وجفّ ماؤها، بدأت الصراعات والاقتتال بينَ الشعوب والأعراق المُختلفة بسبب نقص المياه وندرة الغذاء، كانت أسلحة الآباء والأجداد فيما مضى أكثر تطورًا ممّا نملك الآن وأشدّ فتكًا وتدميرًا، كأنّهم كانوا يستخدمون تطورهم في استحداث الطّرق والوسائل التي تؤدي لفنائهم، حتى نشبت الحرب الكبرى التي استخدم فيها البَشر أسلحة لم تُستخدم من قبل، كان ذلك إيذانًا ببدء الغضب السّماوي، بداية نزول عقاب السّماء على البَشر.

ازداد تهدّج صوته ووَهن نبراته حينَ اجتاحته نوبة من السّعال الشّديد اهتز لها بُنيانه الضّخم، شعر معها كأنّ شروخًا حادّة عميقة قد شقّت صدره، همّ «حَمْزَة» من جلسته واقفًا يحاول مساعدته على البقاء واقفًا إلا أنّ إشارة من يده أوقفته مكانه، هدأت تلك النوبة بعدَ أن استرد الرّجل المَهيب أنفاسه

مكتبة عابث الالكترونية

بصوبة ثم استند بشدة على عصاه الطويلة وهو يقول بنبرة من يسترجع ذكريات أليمة ودّ لو مُحيت من ذاكرته:

- فبعدَ أنْ وضعت الحرب أوزارها في غضون أيام قليلة، بعدَ أنْ خُربت القُرى ومُحيت بلدان بأكملها من فوق سطح البسيطة، فوجئ البَشر بالأرض ترتج من تحت أقدامهم، زلازل ضخمة مُخيفة لم يعهدوها من قبل، هدمت كل معالم الحضارة التي كانت قد شُيدت على مدار آلاف السّنين، تلتها ريح عاتية وأعاصير هائلة، هطلت السّيول وهاجت البحار والمحيطات حتّى فاض ماؤها على الأرض أو ما بقي منها فأغرق بلُدانًا ومحا أُخرى، كانت غضبة السّماء من القوة بحيث جعلت الاستمرار في الحياة مُستحيلًا، فرّ أغلب من بقي حيًا من هذا الجحيم المُقيم، حاولوا الاحتماء بقمم الجبال الشّاهقة، اختبئوا داخل الكهوف والجحور، لكن دونَ جدوى.

لمعت عيناه بقوة وهو يتذكّر تلك الحقُبة الحزينة من التّاريخ، علا صوته بعدَ أن استمدّ بعض القوة من عميق ذكرياته، بدا كأنّه أحد الرواة الأسطوريين يسرد واحدة من تلك الملاحم الخالدة حينَ أكمل:

مكتبة عابث الالكترونية

مرّت أيام وشهور وفقًا لحسابات ذلك الزّمان المُنصرم، لا أحد يجرؤ على التّحرك من مَخبئه، أخبرونا أنّهم في ذلك الوقت كانوا يرون الصّواعق تنقض على الأرض كأنّها حِراب صُنعت من نيران الجحيم فتطعنها في قوة دونَ أنْ تكتفي، كانوا يسمعون للسّماء حينها صراخًا وعواءًا مخيفًا كأنّها تصبّ لعناتها على البَشرِ، الذين لم يملكوا في هذا الوقت سوى الدّعاء، كل يلهج لسانه بالدّعاء لإله في صمت عاجز، ثم فجأة ساد الصمت كل شيء، صمت وهدوءٌ مريب.

سالت دمعة خفيفة من عينه وهو يتذكّر ما قد كان، لكنّه لم يُبال لأمرها وأكمل قائلاً:

ظنّ الناجون الأوائل أنّ هذا الهدوء علامة على انقضاء تلك الكوارث ونهاية لذلك الغضب السّماوي، لكن كان القدر ما يزال يُخبئ لهم في جُعبته من صنوف العذاب الكثير، كان هناك شئ ما يختمر في هدوء شديد بينَ كل هذا الدّمار والطّين والماء المختلط بعفونة أجساد الموتى، مرضٌ لعين بدأ في الكشف عن نفسه ببطء شديد، فبدأت تظهر على بعضهم حالات غريبة لم يعرفوها من قبل.

مكتبة عابث الالكترونية

امتقع وجهه واصفر بعد أن اضطربت أنفاسه بشدّة من جراء انفعاله الزائد وتأثره البالغ بما يروي، غامت الدنيا في عينيه وترنّح قليلاً في وقفته حتى كاد يسقط على الأرض، تحرّك «حمزة» مسرعا يتلقفه بين ذراعيه ويعينه على الجلوس وافتراش الأرض الرملية.. استند «إبراهيم الحكيم» على ذراعه وهو ينظر له ممتنا شاكرًا في حب أبوي جارف.. تلفت «حمزة» حوله فلمح نظرات الطمع والتشفي تلمع في عيون عشيرتي المشارقة والمغاربة، كاد أن يستل سيفه فاصلا أعناق هؤلاء السفهاء الذين لا يقدرون شيبة الرجل المهيب لكن ربتة خفيفة من كف الحكيم كانت كفيلة بإخماد براكين الغضب بداخله.. نظر نحو وجهه وقال في قلق:

- هل أنت بخير سيدي الحكيم؟

ابتسم «إبراهيم الحكيم» ابتسامة باهتة وهو يقول في وهن اختلط بسعاله الشديد:

- لا تقلق، لا زلت أملك عددًا معلومًا من الأنفاس.

هم «حمزة» بمساعدته على الوقوف وهو يقول:

- حسنًا، لا داع لهذا الحديث، فلنعد أدراجنا إلى الديار، كلهم ملزمون بالطاعة والمواثيق، ومن يعترض منهم فليس له مني إلا السيف والعذاب.

مكتبة عابث الالكترونية

هز «إبْرَاهِيم الحَكِيم» رأسه وهو يقول:

خفف عنك يا حَمْزة، لا داع للقتال وسفك المزيد من الدّماء، أما الدّيار فسنعود إليها دومًا في النّهاية، وأما الحديث فلابدّ من إكماله لعلّه يكون آخر عهدي بكم.

شعر «حَمْزَة» بغصة شديدة في حلقه وبرغبة مُلحّة في البكاء لكنّه تماسك أمام الحضور الذين تحلّقوا حولهما يتابعون من كَثب حالة الرّجل المَهيب، قال وهو يربت على كتف «إبْرَاهِيم الحَكِيم»:

لا تقل ذلك سيدي رجاءًا، كل شيء سيكون على ما يرام، مَن لنا بعدِك، تماسك من أجلنا.

أومأ «إبْرَاهِيم الحَكِيم» برأسه في بطء وقال بضعف:

لا أخشى على النّاس وفيهم حَمْزة ويَحْيَى.

ابتسم له «حَمْزَة» في امتنان ثم ناوله قَدح خشبي به قليل من الماء، رشف منه الرّجل رشفة بسيطة ثم أزاحه برفق.. أشار لـ «حَمْزَة» أن يعينه على الوقوف من جديد، اتكأ على عصاه وهو يقف مُجددًا ثم قال:

لعلّ ما حدث الآن أمام أعينكم هو أصدق دليل على أنّ قدرتنا نحن البَشر محدودة، ضئيلة للغاية،

مكتبة عابث الالكترونية

فلا تغرنّكم قوتكم يومًا، ولا تظنون أنّكم قادرون على هذه الدنيا حتّى لا يصيبكم ما أصاب أقوام قبلكم، فبعدَ أنْ سادَ الهدوء الأرض وتوقفت العواصف والأعاصير والفيضانات تفشّى بين آباءنا الأوائل مرض مُخيف، ليس كأيّ مرض، كان كالطّاعون، ظهر في حالات متفرقة في البداية ثم شرع يكنس البَشر كنسًا، ظلّ الحال على ذلك فترة من الزّمن لا يعلم أحد عدّتها، لم يترك خلالها هذا الدّاء بيتًا إلا زاره وترك فيه علامة لا يمكن لها أنْ تمحي، أهلكَ من البَشر الكثير والكثير، لم يعد أحدهم يعلم إنْ كان سيطلع عليه الصّبح أم لا، لأول مرّة في التّاريخ وقف جميع البَشر متجاورين ينتظرون النّهاية، لأول مرّة تجمعهم أخوّة حقيقيّة قائمة على الألم، على حقيقة الموت، أخوّة تقوم على العجز الشّديد.

توقف عن الحديث قليلاً بعدَ أن اضطربت أنفاسه مجددًا، نظر له «حَمْزة» في قلق لكنّه طمأنه بإشارة من يده ثم أكمل مستطردًا:

- ولأن السّماء في الأصل رحيمة، فقد توقف هذا الدّاء عن حصد الأرواح فجأة كما بدأ فجأة، وبدأ الأجداد يستعيدون حياتهم على أنقاض حضارة

مكتبة عابث الالكترونية

الأقدمين، حتّى بدأ البعض يصيبه حب التّملك وشهوة التّسلط من جديد، اختاروا أن يكون لهم قلعة تحميهم وحدهم دونَ سائر البَشر، والباقي تعرفونه جيدًا فقد عاصرتموه بالفعل.

عادت نوبةَ السّعال تضرب صدره بعنف شديد، بدأ يسعل بشدة حتّى كاد أن يتحطم قفصه الصّدري من الألم، شهق بقوة محاولاً الحصول على قدر كاف مِن الهواء، تناول بيد مرتعشة قدح الماء من يد «حَمْزة» ثم صبّه فِي جوفه دفعة واحدة، هدأت أنفاسه قليلاً فقال على عجل بعد أن ارتعشت نبرات صوته وتقطّعت حروفه:

- تعاونوا واتحدوا فالسّر يكمُن فيهما، ولعلّ القادم من حوادث الأيام يحمل بين طياته بصيصًا من النّور، ربما يكون سببًا في نجاتنا من سوء اختياراتنا السّابقة، اختياراتنا التي أدّت بنا إلى السّقوط في عتمة التيه القاسية، تحيط بأرواحنا تحاصرها من كل اتجاه، تجثم على أنفاسنا وتجهض أحلامنا، دونما ثمّة أمل ولو ضئيل في النّجاة.

أنهى الرّجل المَهيب عبارته السّابقة ثم سقط على الأرض مغشيًا عليه، انتفض «حَمْزة» من مكانه يجدّ في السعي نحوه وقد اعتراه قلق بالغ، اطمأن قليلاً بعدَ أن سمع صوت أنفاسه

مكتبة عابث الالكترونية

المُضطّربة الضّعيفة، كان الصّوت هادئًا خافتًا لكنّه كان كفيلاً يبثّ شعاع ضئيل من الأمل في بقائه علي قيد الحياة.. انتهى الاجتماعِ على بقاء الأمور على حالها حتى يحين موعد اجتماع آخر بعد تجاوز الرّجل المَهيب لوعكته الصّحيّة..

كانت الألسنة تتبادل التحية في حين كانت العيون تحمل بين طياتها علامات ونُذر الغدر والخيانة.. انصرف «حَمْزة» بصحبة «إبْراهِيم الحكيم» عائدين أدراجهم صوب الدّيار.. جاء الرّجل المَهيب راكبًا فرسه، لكنّه عاد مُمددًا في هودجه..

طوال الطّريق كان عقل «حَمْزة» يعمل بسرعة شديدة يحاول التّفكير في حل للخروج من هذا المأزق الذي لم يكن في الحُسبان.. خاصّة مع توقعه الغدر من المشارقة أو المغاربة في حالة رحيل الرّجل المَهيب..

- لماذا لم يصحبهم يَحْيَى في هذا الاجتماع البغيض؟..

هكذا حدّث «حَمْزة» نفسه سرًا، لو كان معه الآن لكان قد أعانه على التّفكير وساعده في حسن التّدبير، لكنّها عادته التي لن يغيرها أبدًا، لا يحب الدّخول في صراعات، يفضل دائمًا اللّجوء للحوار والنقاش بدلاً عن استخدام القوة والعنف، لولا أنه يعرفه جيدًا لأتهمه بالجُبن والخذلان، لكنّه أبدًا لا

مكتبة عابث الالكترونية

يمكن وصفه بتلك الصّفات فهو مُقاتل صنديد شجاع، فقط حينَ تحتدم الأمور ولا يوجد سبيل سوى القِتال..

كانت القَافِلة تقترب في سيرها من ديار عشيرة الوَسَطِيين، و «حَمْزة» غارق في تفكير عميق حينَ اقترب منه أحد الحرَّاس وأخبره بأن «إبْرَاهِيم الحكِيم» يطلبه.. توجه من فوره صوبَ هودجه الذي تجرّه أربعة من الثيران الأشدّاء، اقترب منه بفرسه ثم أبطأ من سرعته، انحنى قليلاً مُقترباً من الهودج ثم رفع أستاره بيمينه، كان الرّجل المَهيب نائمًا أو هكذا خيل لـ «حمزة».. لِجأة فتح الرّجل عينيه وقال بصوت واهِن:

- أين يَحْيَى؟.

أجابه «حَمْزة» على الفور:

- لابُدّ أنه في انتظارنا بالدّيار الآن، لا تقلق سيدي الحكِيم.

هز الرّجل رأسه ثم قال:

- لستُ قلقًا، لكنّني مُتعجب مِن أمره، لماذا يزهد في حضور تلك اللّقاءات الهامّة! أوَ ليس هو القَائِد الثّانِي في قوات عشيرتنا!.

حدّثه «حَمْزة» راغبًا في تخفيف وطأة الأمر عنه:

مكتبة عابث الالكترونية

- لعلّك سيدي تعلم عزوفه عن الدّخول في أيّة صراعات من أي نوع كانت، كما تعلم أنّ امرأته على وشك الوضع، لكنّك بالقطع موقِن بولائه الشّديد وحرصه البالغ على طاعة أوامرك.

ابتسم المَهيب ابتسامة باهتة وهو يقول في وهن:

- ليس هذا ما كنت أقصده، كنت أقصد أيّهم تراه أحق بخلافتي، القوي الجامح أم الهادئ الأمين؟

ابتسم «حَمْزة» في هدوء وهو يستكمل الحوار مُشجعًا الرّجل المَهيب على التّماسك:

- لا يوجد مَن يصلح لخلافتك سيدي الحكِيم.

أغمض الرّجل جفناه من التعب وهو يقول بصوت بدَا خافِتًا:

- كلّا يا بُني، يبدو أن أواني قد حان، آن لورقتي أن تَسقط بعد أن ذبُلت وجفّ خضارها، آن لها أن تُغادر ذلك الفرع النّضر من شجرة الحياة.

صمت قليلاً بعدَ أنْ غلبه الإعياء، أخذ شهيقًا قويًا وإن بدَا لـ «حَمْزة» ضعيفًا واهنًا ثم قال:

مكتبة عابث الالكترونية

فكّر جيدًا يا بُني فيما قُلته لك وعندَ الصّباح أبلغني ما ترى.

أنهى الرّجل المَهيب عبارته الأخيرة ثم استكان في نومته ولانت ملامحه.. تأمّله «حَمْزة» مليًا وقد أخذ يُفكر فيما قاله مُنذُ قليل:

- ماذا يعني بهذا التّخيير الغريب؟!، أتراه يقصده هو؟!، أم يقصد يَحْيَى؟!، لا يهم مَنْ يختار فكلانا يصلح لهذا الدور الهام، لكني بالطبع أفضل أنْ يكون أنا مَن يُخلِف الرّجل المَهيب.

كان يرى في نفسه كل مقومات الزعامة والقيادة، لكن «يَحْيَى» أيضًا يمتلكها، بل يزيد عليه بالحكمة والتّروي.. نفض عن عقله تلك الأفكار والوساوس، توقف عن الاسترسال فيها حينَ لاحت أمامه من بعيدٍ أشباح الدّيار.. قرّر أخذ استراحة يسيرة ثم يناقش بعدها هذا الأمر مع محبوبته وعشق روحه «زينب»..

****

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

(٤)

.. يتيم ..

كالأطياف السّارحة في ظلال النّور، تنساب الأحلام مُسجَاة في بحار الهموم الواسعة اللانهائية، تحملك إلى وادي السّراب المُثقل بالتكهّنات الواهية الفارغة، تسير بك مُرغمًا إلى غموض القادم من الأيام، على الرغم من أنّها تطحن آمالك بقوة وتزيد من أحزانك بقسوة، إلا أنّك قد تتمكن من تغيير نهايتها والتّحكم في مجرياتها..

في هذا العالم الخيالي من الأحلام البائِسة تتمنّى أن تظل حالمًا أبدَ الدّهر، عِوضًا عن أنْ تعايش لحظة واحدة من واقعك المرير.. فهناك تصبح أنت المُسيطر الأوحد، لا تغدر بك العتمة، لا يجرؤ قيد أنْ يلتفّ حول عنقك يكبّلِ إرادتك، يكسرها في البداية ثم مع مرور الزّمن يمحوها محوًا.. هناك تحتضنك البراءة بملامح وجهها الطّفولي الوديع دونَ نعيق

مكتبة عابث الالكترونية

صوت بغيض يُكدر عليك صَفو هدوئك، يسلُبك كرامتك ويُذيقك مُر الهوان.. هناك ستكون قادرًا على الكلام دومًا، ستقوى دائمًا على الصّراخ..

حينَ تفيق من تلك الأحلام الكاذبة ستلازمك هذه الغُصّة المؤلمة في حلقك، ليست غصّة بل حُرقة ملعونة ستستشعر دومًا مرارة ألمها في صدرك، يكون السّكون المُطبق هو الملازم لحضرتها، تمنع حتّى الصّدى من شق مسامعك.. حُرقة تحترق لها الروح ببطء شديد مؤلم، لا تشبه تلك التي تسبق انهمار الدّمع أو المُنبعثة قهرًا من جوف الصّدر، لا تُسكتها شربة ماء ولن تُذهبها نفحة هواء.. مع دوام ملازمتها لك ستعتاد مرارتها، ستفقد كلّ أمل راودك يومًا في الخلاص، كل حلم داعَب خيالك في النّجاة.. مع مرور الوقت أكثر ستغدو أنت زنزانة نفسك، ستصبح أنت قبرها الذي يعتصر ضلوعك في قسوة بالغة، يمتص من جسدك ما بقي فيه من روح، ستصبح وحيدًا تصارع عذاب الألم وبطش القهر، ستتمنى الموت في كل يوم وليلة، عوضًا عن تجرّع تلك المرارة من جديد..

كانت تلك هي مشاعر وأحاسيس «يَحْيَى» حينَ داهمته إحدى تلك النّوبات اللعينة التي باتت تشكل جزءًا أساسيًا من أيامه وحياته، عندما عبر جسده البوابة الثّانية التي تفصل ما

مكتبة عابث الالكترونية

بين غُرف القَبْو العامة وغرفه الخاصة، أو زنازينه المرعبة.. أصابته من جديد تلك الهزات العنيفة والارتجاجات المُخيفة فطرحته أرضًا بعدَ أن تيبست أعضاؤه، أخذ فمه يزبد ويرغي مخرجًا من جانبه لُعابًا أبيض اللون، شخصت عيناه إلى أعلى بعدَ أن تصلّب جسده في مشهد مُخيف وهو يتلوّى من الألم..

ظلّ على تلك الحال حينًا من الدّهر لا يعلم مداه حتّى سكن جسده وتوقفت تلك الهزّات العنيفة، غاب بعدَها عن الوعي لفترة حتّى بدأ يفيق ممّا غشيه من ألم عصف بكل ذرّة في كيانه.. كانت عظامه تؤلمه بشدة، إلى درجة لم يقوَ معها على الحِراك أو حتّى النّهوض من رقدته.. كان ذهنه مُشتتًا للغاية، عيناه زائغتان لا يبصر بهما جيدًا، لسانه ثقيل للغاية غير قادر على النّطق، أذناه كأنّما أُصيبتا بالصّمم أو عطبتا فباتتا لا تسمعان إلا طنينًا حادًا..

مع مرور الوقت بدأ يتراءى لسمعه أصوات بدت له خافتة، مبهمة في أول الأمر إلا أنه استطاع تفسيرها بعدَ وَهلة، علم أنها أصوات حديث دائِر بينَ حراس الزّنازِين، كان أحدهم يقول:

- هل عاودته تلك النّوبات مُجددًا؟!

سمع آخر يقول:

مكتبة عابث الالكترونية

- هذا المجذوب الخرِف، أي يوم تعس ألقى به في طريقنا؟!.

قال صوت آخر:

- ماذا نفعل معه الآن؟!.

أجابه صوت من بعيد:

- أرسلوا في طلب نفر من رفاقه ليأخذوه بعيدًا، لقد ازداد المكان اتساخًا بوجوده.

لم يسمع شيئًا آخر بعدَها، لكنّه أحسّ بقبضتين قويتين تقبضان على ساقيه في قوة بالغة، تسحبانه على الأرض في قسوة.. كانت أرضية المكان من بلاط صخري، تصطدم حوافها المُدبّبة بمؤخرة رأسه مُسببةً له آلامًا مُبرحة وخدوشًا طفيفة، دواراً يزيد من انعدام تركيزه.. بعدَ فترة تركت اليدان قدماه ترتطمان بالأرض في عنف.. ثم ساد الهدوء المكان بأكمله..

بعدَ حين أحسّ بأيد كثيرة تحمله عن الأرض، كان رأسه مُتدليًا إلى الأسفل، رأى بعينيه الزائغتين مشاهد باهتة، أطياف وخيالات لبعض من أبناء طائفته من العوام، كانوا يجدّون في سيرهم بعدَ أن رفعوه من يديه وقدميه.. ساروا به خارج القَبو عابرين السّاحة الكبرى، كان يرى بصعوبة

مكتبة عابث الالكترونية

نظرات الاشمئزاز والضيق بادية في أعين الكُبرَاء وهم يرمقونه شزرًا بعدَ أن ضاقت نفوسهم من رؤيته بهذا المنظر.. لكن ما كان يؤلمه حقًا نظرات العطف والشفقة التي اخترقت نفسه، بعدَ أن شعر بها من رفاقه.. صعدوا به الدرج الحجري حتّى أوصلوه إلى غرفته، مدّدوه على فراشه الخشن ثم انصرفوا دون كلمة واحدة، بقي واحد منهم فقط افترش الأرض بجوار الفراش، أخذ يرش رذاذًا خفيفًا من الماء على وجهه حتى أفاق.. رفع جفناه عن آخرهما بصعوبة محاولاً استيضاح الرؤية أمام ناظريه، كان أول ما وقع عليه بصره «خليل» يرشه على وجهه برذاذ الماء من فمه، وضع كفاه أمام وجهه وهو يقول في وهن:

- كفى يا خليل، كفى.

ارتسمت على شفتي «خليل» ابتسامة رضا وقال بعدَ أن تهلّلت أساريره:

- حمدًا للسّماء على سلامتك، لقد أقلقتنا عليك.

اعتدل «يَحْيَى» جالسًا في صعوبة بعدَ أن أسند مرفقيه إلى الفراش وقال:

مكتبة عابث الالكترونية

- لا أعلم حقًا ما أصابني؟!، كنتُ أرى أحلامًا غريبة، حتَّى انتبهت على ذلك الألم العاصف الذي كاد أن يفتك بي.

رفع «خليل» حاجبيه في دَهْشَة وهو يقول:

- حقيقة لا أعلم ما الذي يعتريك كل فترة، لكن يبدو أنه أمرٌ خطير، ما رأيك لو ذهبنا لزيارة سَيِّدة العَابِدات!، مؤكد سيكون لديها حل ناجع لذلك الدّاء العجيب.

وضع «يَحْيَى» يده على رأسه في ضيق، يتحسّس مواضع الألم بها، وهو يقول متأففًا:

- وما أدراها هي بتلك الأمور؟!.

ابتسم «خليل» ابتسامة غامضة وقال:

- يبدو أنك تبخس المرأة قدرها، ألم تلحظ كيف كانت تصوّب نظراتها إليك اليوم؟!.

عقد «يَحْيَى» حاجبيه في غضب وقال بنبرة حادّة:

- وماذا في ذلك؟!، لقد كانت تصوّب نظراتها صوبَ الجميع.

اتّسعت ابتسامة «خليل» وهو يقول بنبرة ذات مغزى:

مكتبة عابث الالكترونية

لكن نظراتها لك كانت تختلف عن غيرها.

لا أريد التورط في مأزق.

قال «يَحْيَ» عبارته الأخيرة بحسم، في حين استطرد «خليل» بنبرة ناعمة:

ومن أخبرك أنه ستكون هناك مشكلة؟!، إن سارت الأمور على ما يرام ستوفر لك سَيِّدةُ العَابِدات حماية خاصة، ربما لن تكون معها مضطراً لتنظيف تلك الزنَّازِين التي سببت لك ما أصابك.

نظر له «يَحْيَ» مُتعجباً ثم قال بعدَ بُرهة استغرق فيها في التفكير:

- ماذا تعني إنْ سارت الأمور على ما يرام؟!.

نظر له «خليل» نظرة غامضة، وقال بنبرة ذات مَغزى:

- لعلّك لم تلحظ أنها امرأة، لها احتياجات خاصة، لكن جفّ عودها وكبر عمرها فبات لا يرغب فيها أحد.

هزّ «يَحْيَ» كتفيه في لا مبالاة وهو يضغط على مؤخرة عنقه في ألم، في حين أكمل «خليل» مستطرداً:

مكتبة عابث الالكترونية

- وبالطبع أنت تعلم أنها بحكم منصبها لا يحق لها أن تفصح عن رغباتها، ولا أن تختار أحدًا من طَائِفة الحراس أو طَائِفة الكُبرَاء.

فغَر «يحْيَى» فاه في ذهول وهو يقول:

- أتقصد أنها ..

قاطعه «خليل» قائلاً وهو يهز رأسه:

- هذا بالضبط ما أقصده، كل فترة تختار واحدًا من طائفتنا ليكون لها رفيقًا، يلبي نداءها ويشبع رغباتها.

هزّ «يحْيَى» رأسه معترضًا وهو يقول:

- ولكن ماذا إنْ اكتشف الأمير ذلك، سَيَسُومنا سوء العذاب.

أشاح «خليل» بوجهه وهو يقول:

- لا تخف يا صديقي، يقولون أنه هناك اتفاق سري بينهما يقضي ألّا يتدخل أحدهما في شئون الآخر.

قال «يحْيَى» متعجبًا:

- ولكن ما شأنها هي بالأمير؟!.

ضحك «خليل» ملء فِيه مقهقهًا وهو ينظر إلى «يحيى» في استهزاء، ثم قال بِسخرية:

مكتبة عابث الالكترونية

يبدو أنّ ما يقولونه عنك صحيح يا صديقي، ذهبت ذاكرتك ومعها ذهب عقلك. لقد كانت خليلته قبل أن يرحل عنها شبابها.

انتفض «يحيَى» واقفًا في غضب، قال في حدّة:

فلتسخر ما شئت، لكنِ تذكّر أني قد حذرتك، لن أجمع بقايا جيفتك حينَ يمزقها الأمير وحراسه إربًا.

تسمّرا في مكانهما بعدَ أن انتبها لوقوف أحد الحرّاس على باب الغرفة يرمُقهما شَزرًا، ظلّا واقفين لا ينطقّان حتّى أشار الحارِس بيده صوبَ «يحيَى» وهو يقول في احتقار:

أنت أيها المجذوب، اتبعني سَريعًا، هناك إحدى العَابِدات تُريدك لأمرٍ يخص المَعبَد.

اقترب «خليل» من الحَارِس الضّخم في بطء وتردد، أحنى رأسه وظهره قليلاً ثم ابتسم في مداهنة وهو يخاطبه بنبرة متذللة:

- معذرة سيدي الحَارِس، أهناك خطبٌ ما؟!.

حدَجه الحَارِس بنظرة احتقار وهو يقول:

وما شأنك أنت بذلك، لا تتدخل فيما لا يعنيك، كي لا تنال من العقاب ما لا يرضيك.

مكتبة عابث الالكترونية

مدّ «خليل» ذراعيه إلى الأمام كأنّه يطلب العفو من الحَارِس وهو يتراجع بظهره إلى الوراء، أشار الحَارِس إلى «يَحْيَى» بكفه في ضيق وضجر ثم تحرّك وهو يقول بلهجة آمرة:

- وأنت، هيا تحرك سريعًا.

اقترب «خليل» من «يَحْيَى» وقال له هامسًا:

- يبدو أنّ السّماء ستُبارك لك يومك يا صديقي، هنيئًا لك.

نظر له «يَحْيَى» شزرًا ولم يرد، في حين استطّرد هو حديثه الهامس بعدَ أن غمز له بعينه:

- تذكّر ما أخبرتك إياه، حظًا موفقًا.

- هيا أيُّها الكسول، تحرك.

انتفض «يَحْيَى» في وقفته حينَ سمع صيحة الحَارِس السّابقة، تبعه من فوره هابطًا الدَرَج الحجّري، وقد أخذ عقله يعمل بسرعة شديدة، كانت نفسه تتنازعها خوف قاتل وفضول شديد إزاء ما ينتظره من مجهول، كان أشدّ ما يكرهه هو الإقدام على ما يجهل، لكن في ذات الوقت شغلته حكايات «خليل» وقصصه الغامضة حول نزوات سَيِّدَة العَابِدات ومغامراتها.. فمُنْذُ أن وُلِدت ذاكرته في هذه القَلعة اللعينة لم يفكر قط في القيام بأية مُخاطرة قد تؤدي إلى تورطه

مكتبة عابث الالكترونية

ں مأزق، لكنّه الآن بات مُرغماً على الخَوض في هذا الأمر
الشائك الذي لا يعلم له نهاية..

انتبه من أفكاره على صوت الحَارِس يقول:

هذا هو يَحْيَى المَجذوب كما طلبتِ أيّتها العَابِدة، لتطلبي
لنا البركة لعل السّماء تستجيب لدعواتك المباركة في
هذا النّهار الطّيب.

لم يرفع «يَحْيَى» نظره صوبَ تلك العَابِدة التي كان يخاطبها
الحارِس، ظلّ مصوباً بصره لحوَ الأرض في خوف، سمعها
'لو وتهمهِم بتلك الترانيم العجيبة التي لا يفهمها، ثم سمع
الحارِس يقول في خشوع:

آمين.

أشار الحَارِس بيده فهَرَع صوبَه حارسان يبدو من
استجابتهما السّريعة وملبسهما أنّهما أقلّ منه في الدَرَجة،
صاح فيهما بصرامة:

رافقاهما في طريقهما، قيّداه جيدًا، حتّى يصلا بأمان
إلى المَعبَد.

على إثر انتهائه من عبارته الأخيرة، اقترب أحد الحَارِسين
من «يَحْيَى» واضعًا طوقًا معدنيًا غليظًا حول رقبته تخرج
منه سلسلة طويلة أمسك طرفها في يده، كان طرفها الآخر

مكتبة عابث الالكترونية

موصولاً بحلقتين معدنيتين ربطهما الحَارِس الآخر في قدمي «يَحْيَى».. تحرّك الجمع في طريقه بعدَ أن سحب أحد الحَارِسين «يحيي» من رقبته في طريقهم نحوَ مَعْبَد سَيّدَةُ العَابِدات..

تحرّك الحَارِسان يجدّون في سيرهم خلف العَابِدة التي كانت تسير في خِفة ملحوظة ورشاقة بادية، يسحبون من خلفهم «يَحْيَى» بعدَ أن اشتدّ ضغط الطّوق المعدنِي حول رقبته مسببًا له آلامًا مُبرحة، وأعاقته هاتين الحلقتين في قدميه عن التحرك بحرية.. كان «يَحْيَى» يختلس النَّظَرات بين فينة وأخرى صوبَ العَابِدة، أو بمعنى أدق صوبَ ظهرها الذي كشف عن جماله ذلك الثوب المكشوف من الخلف الذي كانت ترتديه، كان للون جلدها الأسمر الأبنوسي انعكاسًا لافتًا في ضوء الشّمس.. عبروا السّاحة الكبرى حتى كادت أنْ تنتهي، تعجّب «يَحْيَى» كثيرًا بعدَ أن رأى أنّ القَلعَة قد شارفت على الانتهاء دونَ أنْ يبلغوا المكان المنشود، كانت القَلعَة هي عالمه الذِي لا يعرف غيره، ظهرت على وجهه علامات الفزع والذعر بعدَ أن تعب عقله من البحث عن إجابة السّؤال الذي عذبه مُنْذُ بدء المسير:

«ماذا يريدون مني؟!، ما المصير الذي ينتظرني؟!»..

حينَ اقتربوا من تلك البّوابة الغربية للقلعة، رفع «يَحْيَى» نظره نحوها يتأمل ضخامتها الهائِلة، خرج رأس ضخم من كوة

مكتبة عابث الالكترونية

جانبية صَغيرة بها تكاد تكون مُخفية تمامًا عن العيون، يرصد القادمين نحوها.. أطلق أحد الحَارِسين صيحة، كانت بمثابة كلمة السّر لصاحب الرأسِ الضّخم، فتح على أثرها تلك البوابة الهائِلة مُحدثًا صَريرًا مُزعجًا..

انتفض جسد «يَحْيَى» وارتعش بشدة بعدَ أن تملكه ،استحوذ عليه خوفان، أولهما خوفه المُعتاد من المجهول، ثانيهما أن تعصف به إحدى تلك النوبات الملعونة قبل أن يعود إلى مكانه بالقَلعَة..

مضت قدماه تدهسان ذلك الحَصى الصّغير المنتشر على طول الطّريق الضيق المُعبّد الذي سلكوه بعدَ أن غادروا القلعَة، كان طريقًا يبدو ظاهرًا للعيان أنّه تمّ تعبيده خِصيصًا لشخص له مكانة سامية وحَظوة خاصّة.. لاحت له من بعيد أشجار كثيفة مرتفعة، في نفسِ الوقت الذي هبّت فيه نسمات لطيفة حملت معها رائحة عُشب أخضر، وفاحت معها رائحة زكيّة اشتمّ فيها عبير الزهور..

حينَ اقتربوا من تلك الأشجار الكثيفة لاحت منه نظرة عابرة صوبَ أغصانها، كانت مُحمّلة بثمار كثيرة مُختلفة ألوانها، زاهية تخطف الأبصار.. فما بين الخضراء الزاهيّة إلى الصّفراء الفاقع لونها، ثم أخر قرمزية اللون وغيرها لها لون غريب لم يتعرّف إليه.. كانت تلك الأشجار الهائلة تشكّل ما يشبه

مكتبة عابث الالكترونية

الحاجز، سورًا يحجُب العين عن رؤية ما خلفه.. دنوا من ذلك الحاجز الشّجري فظهرت لهم بوابة صغيرة في منتصفه تمامًا، كانت صغيرة الحجم حقًّا لكن تبدو أنّها عالية التّحصين وشديدة المنَعة.. اقتربت العَابِدة من تلك البوابة في هدوء وثقة ثم دقت عليها، دقات بدَا أنها متفق عليها من قبل، سرعان ما فتحت تلك البوابة كاشفةً عمّا هو مستور خلفها..

فتح «يَحْيَ» عيناه عن أخرهما، فَغَر فاه من الذُّهول، تلفّت حوله حائرًا مُندهشًا، كانت الحدائق الغنّاء تحيط به من كل صَوب في تناسق خلّاب، رأى العَابِدات يتهَادين في مشيتهن بينَ أشجارها وأزهارها المُتفتحة، يسرنَ في خطوات مُتبخترة كأنّهن حُوريات لم يلمسهن بشر من قبل..

نظرت العَابِدة المرافقة له إلى الحَارِسين نظرة ذات مَغزى خلًّا وثاقه وهما يتلفتان حولهما مُنبهرين بما وقعت عليه أعينهما من جمال أخّاذ، أشارت لهما بكفها أن ينصرفا ففعلا وهما يجزّان على أسنانهما من الغيظ، يرمقانه بنظرات الغلّ والحقد.. تحركت في اتجاه طريق ضيق مفروش بحصى دقيقة بيضاء اللون بينما ظلّ «يَحْيَ» متسمّرًا في مكانه، ذَاهلاً عمّا حوله، يرفض عقله تصديق ما تراه عيناه.. أفاق على صوتها النّاعم يحثه على المسير، تبعها بعدَ أنْ خدرته صدمة ما يرى..

مكتبة عابث الالكترونية

لم يكن يتخيل أبدًا وجود مثل هذا المكان، وهو لم يُغادر أسوار القلعة من قبل..

كانتْ الأشجار السّامقة تُحيط بذلك الطّريق الضّيق الذي يسيران فيه، كانت ظلالها الوارفة تضفي على الأجواء صفاءً، تمنح الهواء نقاءً لم يعهده من قبل.. من بعيد ظهر له في آخر الطّريق مدخل صغير، عبَراه فبدا له مبنى أبيض متوسط الحجم يبدو عليه مظاهر الأبّهة والفخامة، تحيط به الأشجار من كل جانب، إحاطة السِّوار بالمعصم..

كان المبنى مكوّنًا من طابق واحد، دائري الشّكل، يحيطه دَرَج رُخامي فخم، ارتفع سقفه فوق عدد من الأعمدة الضّخمة ليعطي انطباعًا بأنّه أحد معَابد الأزمنة التي طواها سجل التّاريخ في غياهب النّسيان.. صعد الدّرَج يتبع في خطاه العابِدة، كانت خطواته متعثرة بعدَ أن اعتراه الذهول من كل مظاهر التّرف والفخامة التي لم يألفها من قبل.. وَلَجا ممرًا طويلاً مرتفع السّقف، يلف حول البناء بأكمله، زُينت جدرانه بنقوش عجيبة ورسومات بديعة، لم يفهم غالبيتها، وإن كان يظن أنها تحكي وتدوّن قصص وملاحم النّاجين الأوائل من البَشر.. كانت إضاءة هذا الممر رائعة مبهرة، بفضل تلك النّوافذ الزجاجية الضّخمة التي تكاد تمتد من أرضية المَمر حتّى تشارف سقفه، كان زجاجها ملونًا بألوان مُزركشة مما

مكتبة عابث الالكترونية

أضفى على المكان رونقًا زاد من جماله الذي لم يخطر على باله على الإطلاق.. على جانب هذا المَمر من جهة اليسار تتراص غرفًا مغلقة لها أبواب خشبية مُزخرفة في أناقة بالغة..

استدارت نحوه العَابِدة بعدَ فترة وهي تشير بيدها أنْ يتوقف مكانه، انتبه لها لأول مرّة.. على الرغم من رأسها الحليق تمامًا وبشرتها الأَبَنوسية السَمراء، إلا أنها كان لها جمال من نوع خاص، جمال غامض يأسرك مِن أول لحظة، لها نظرة تنساب من عينيها تمنحك إحساسًا بالعُمق ككهف يحمل بداخله الكثير من الأسرار التي ستعجز عن فك طلاسمها.. أفاق من شروده حينَ قامت العَابِدة بدقّ باب أحد الغُرف على يسارها باحترام وأدب جمّ، بقيت في مكانها لوَهلة ثم ما لبثت أن دفعت الباب إلى داخل الغُرفة وأغلقَته من خلفها.. بقي «يحَيَي» وحده يتأمل روعة المكان وجماله الذي زلزل كيانه وأذهب رشده، حتّى فتح باب الغُرفة من جديد وأشارت له العَابِدة بالدّخول..

كانت الغُرفة فسيحة شديدة الاتساع، أرضيتها ناعمة ملسَاء مفروشة بسجاد مزركش كثيف الوَبر، جدرانها مزينة بنقوش شبيهة بتلك التي شاهدها عند المَمر وإن كانت ألوانها أكثر فخامة وأناقة، لها نافذة زجاجية واحدة تطل على حديقة رائعة، سقفها شديد الارتفاع يتوسطه بالضبط

مكتبة عابث الالكترونية

؛ يا معدنية ذهبية اللون ذات أذرع لها شكل مُميز، تحمل
بهم سبعة قناديل زجاجية تمنح الغرفة إضاءة رائقة.. في
منتصف الغُرفة تمامًا يوجد فراش وَثير، دائري الشّكل،
تناثر في أرجائه وسائد مخملية وثيرة حِيكت وطُرزت بأناقة
شديدة، على جانب ذلك الفِراش وقفت اثنتان من العَابِدات
تمسكنَ في أيديهن بمروحتين مصنوعتان من ريش أسود ضخم
تحركانهما من أعلى إلى أسفل في هدوء ونعومة.. أسفلهما
كانت تضطّجع على الفراش في استرخاء امرأة تبدو عليها
سمات الجمال والوقار، كانت سَيّدةُ العَابِدات في اضطجاعها
متدثّرة بلحاف من الصّوف الأبيض، تمسك بين يديها بمجموعة
من الصُحُف الجلدية تتفحصها وتُمعن النّظر فيها باهتمام بالغ..

انتفض جسد «يَحْيَى» حينَ رفعت سَيّدةُ العَابِدات رأسها
نحوه في هدوء وثقة، رمته بنظراتها النّافذة، خر من فوره
ساجدًا على الأرض بعدَ أن أخذ جسده يرتجف بشدّة.. ظلّ
الصّمت مسيطرًا على فضاء الغُرفة حتّى قطعه صوت سَيّدَةَ
العَابِدات، لأول مرّة ينتبه إلى أن صوتها كان حادًا رفيعًا إلى
هذه الدّرَجة، كانت تخاطب واحدة من الموجودات ظنّ أنها
تلك العَابِدة التي صحبته إلى هذا المكان:

- حسناً يا سَالُومي لقد أديت مهمّتك بنجاح، يمكنك
الانصراف الآن.

مكتبة عابث الالكترونية

سمع صوت خطوات أقدام العَابِدة «سَالُومي»، وهي تتحرك على أرضية المكان بخفتها المعهودة، تأكَّد من مغادرتها للغرفة حينَ سمع صوتٍ ارتطام ضَلفتي الباب الخشبي المُزخرف.. بعد حين سمع الصوت الحادّ من جديد يقول بلهجة آمرة:

- وأنتما أيضًا، انصرفا الآن.

سمعت أُذناه نعالهما تدقّان الأرضية في خطواتٍ مُتعجلة تبعهما صوت إغلاق باب الغُرفة، ساد بعدها الصمت فترة، كاد قلبه خلالها أن يخلع من بين أضلعه، حتّى سمع صوت خطوات واثقة تقترب من مكانه حتّى توقفت بالقرب من رأسه، سمع صوتها الحادّ يقول بنبرة ودودة:

- قف يا يَحْيَى، بوسعك النّهوض الآن.

رفع جبهته عن الأرض في توجس وقلق بعدَ أن تعجب من معرفتها باسمه، أول ما وقع عليه نظره كان نعلاً بديعًا حيك بمهارة فائقة، مصنوع من سيور جلدية زاهية ألوانها، تُحيط في أناقة بقدمين دقيقتين ردمائتين الكعبين.. رفع رأسه أكثر فهالته نعومة ساقيها التي كانت ظاهرة من انعكاس ضوء القناديل الرائق على جلدهما. انتبه من شروده على يدها تربت على رأسه برفق ثم سمع صوتها الحادّ يقول في لين:

- لا تَخف يا يَحْيَى، انهض.

مكتبة عابث الالكترونية

نهض «يَحْيَى» إثر عبارتها السابقة، كان ذهنه قد بلغ حالاً من التّشتت أصبح معه إعمال تفكيره درباً من دروب المستحيل، كان ينظر نحوها ذاهلاً عمّا حوله، صدمه جمالها الذي فاق جمال وروعة المكان من حوله، فعلى الرغم من تقدمها في العمر إلا أنّها كانت ماتزال محتفظة بقدر هائل من جمال طاغ.. كانت ترتدي ثوباً حريراً فضفاضاً، فضي اللون، قصيراً يكشف عن ساقيها، ينسدل شعرها مُتلألئاً تحت ضوء القناديل كالذّهب الخالص، وقد تناثرت خصلاته المُموجة على كتفيها في دلال وأنوثة طَاغية.. تحيط بعنقها الأبيض الطويل قلادة ضخمة من الفضّة الخالصة مُشكّلة من نقوش متشابكة.. رمقته بتلك النّظَرات النّافذة وهي تقول بذات النّبرة النّاعمة بعدَ أن افترّ ثغرها عن ابتسامة ساحرة:

- كيف حالك اليوم يا يَحْيَى؟.

أجابها بحروف متلعثمة:

- تكفيني رؤيتك سيدتي لأكون في خير حال.

قهقهت المرأة بميوعة وهي تميل بشعرها للوراء قليلاً في دلال ثم اعتدلت قائلة:

- كنت أقصد كيف حال تلك النّوبات التي تصيبك؟، أما زلت لا تذكر شيئاً؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

نظر «يَحْيَىٰ» صوبَها بحِيرة ثم قال مُتسـائلاً:

- معذرة سيدتي، أتعرفينَ بأمرِ تلك النّوبات أيضًا؟!.

ابتسمت المرأة في غموض ثم تحركت صوْبَ فراشها، جلست على طرفه بدلال، قالت وهي تشير إليه بالجلوس إلى جوارها:

- تعال، اقترب.

اعترته رعدة وانتابه الخوف، تذكّر ما سمعه من «خليل» عن أحوال تلك المرأة الغريبة، تذكّر حُراس الأمير وبطشهم فلم يتحرك من مكانه.. رمته المرأة بنظرات مُتعجبة لكنّها فطنت لما يدور في خلده فبادرته بالقول:

- لعلك خائِف ممّا تلوكه الألسنة من أقوال بشأني.

تنحنح في صوت خافت والتزم الصّمت، لم يعقّب على قولها فاستطردت هي قائلة:

- لا تصدق كل ما يُقال لك، تعال، أريدك أن تلقي نظرة عن كثب على هذه الصُحُف.

انتبه «يَحْيَى» إلى تلك الصُحُف الجلدية المُتناثرة على فراشها فاطمأنَ بَاله واستراح قلبه، اقترب من الفِراش وهو ينظر صوبَ الصُحُف، كان منقوشًا عليها كتّابات ورموز لا

مكتبة عابث الالكترونية

بعلم السبيلِ لفك طَلاسمها.. كانت المرأة تراقبه مَليًّا أثناء نظره صوب الصُحف، التفت نحوها بعدَ فراغه من تفحصها ثم قال:

- ما أنا بقارئ لتلك النّقوش يا سيدتي، سامحيني.

رمته المرأة بتلك النَّظرات النّافذة مُجددًا ثم قالت:

- عجيب جدًا، كنت أخالَك ستعينني على فكّ طلاسمها ورموزها، فأنا أجهل تلك اللغة القديمة، لكنّك من المؤكد أنّك تعرفها، ألستَ من عشيرة الوَسَطيين؟!.

أومأ «يَحْيَى» برأسه حين قال:

- بلى يا سيدتي، هذا ما يقوله لي الجميع.

أغمضت المرأة جفنيها في دلال ووقار، قالت تطمئنه:

- لا عليك، لابدّ أنك ستسترد ذاكرتك مع مرور الوقت، وشيء من الراحة والتّنعم.

لم يفهم «يَحْيَى» ماذا تعني بما قالت فاكتفى بأن هزّ رأسه في بلاهة، استطردت هي قائلة:

- ما رأيك أن تنتقل للإقامة لدينا؟!، تعمل في خدمة المَعبَد.

قال «يَحْيَى» في دَهشَة:

مكتبة عابث الالكترونية

- في المَعْبَد!!، أمسموح لي أنْ أفعل هذا؟!.

ابتسمت المرأة في ثقة وقالت:

- لا تقلق، من الآن سيكون مسموحًا لك بأمور كثيرة.

ثم نظرتْ له نظرة ذات مَغزى وقالت:

- ما دمت في مَعِيتي،

أومأ «يَحْيَ» برأسه إلى الأسفل وهو يقول:

- في خدمتك سيدتي.

أشارتْ له المرأة بيدها نحوَ الباب وهي تقول له:

- حسناً يمكنك الانصراف الآن، نِلْ قِسطًا من الرّاحة، ستجد سَالُومي في انتظارك لتُريكَ غرفتك الجديدة وتمنحك ثيابًا نظيفة، لكن أعدّ نفسك جيدًا للغد، فمع بدء أيام الضّباب العشر نحيي ذكرى تولي الأمير شئون القَلعَة، وقد أعددنا لذلك احتفالاً لائقًا.

****

مكتبة عابث الالكترونية

(٥)

.. حَمزة ..

علا صوت نفير الرسول مؤذنًا باقتراب وصول رجال القَافلة عائِدين من اجتماعهم بقادة العشائِر والطَّوائف، تلك القَافلة التي تضم بينَ جنباتها خيرة رجال عشيرة الوَسطيين.. «حَمْزَة»، معشوق الروحِ وحبيبها.. هكذا حدَّثت «زينب» نفسها بينما كانت تتزين وتعدّ نفسها استعدادًا للقاء نصفها الآخر.. كانت تتبرج ناظرةً لانعكاس صورة وجهها على صفحة إناء مسطح بيضاوي الشّكل، نحاسيِ الصنع تقبض عليه براحتها.. على الرغم مِن أنّ ذاك الانعكاس لم يكن يُظهر ملامحها بشكل دقيق، غير أنّه كان كافيًا لكي ترى نفسها بعين الروح لا بعين الجسد.. لاحت أمام ناظرها بضعة تجاعيد خفيفة خطّت لنفسها على استحياء طريقًا أسفل عيناها.. انتابها الضّيق قليلاً بعدَ أن شعرت بفوات سنوات شبابها

مكتبة عابث الالكترونية

قبل الأوان، فعلى الرغم من كونها قد جاوزت الثلاثين من عمرها بعام واحد فقط إلا أنّها كانت تحسّ بزحف الكِبر إليها سريعًا، فهي لم تنعم بعد برغد العيش مع «حَمْزَة»، لم تذق معه عذوبة الحياة ولينها.. لكنّها واست نفسها بأنّه لا يرى سواها، لا يرغب في غيرها، لا يجد متعته وأنسه سوى مع دفء أحضانها وسخونة قبلاتها.. وجدت السّلوان في إقناع نفسها المضطّربة بأنّ القادم أفضل لا ريب.. فمن الذي كان يتخيل أو يتصور أن يجمعها بـ «حَمْزَة» سقف واحد.. «حَمْزَة» خير شباب العَشِيرة وزينة فرسانها..

سرحت ذاكرتها إلى الوراء قليلاً، إلى سنوات وأحداث ولّت ومضت بغير رجعة لكنّها حفرت علاماتها التي لا يمكن لها أنْ تمحي من عقلها.. تذكّرت حينَ كانت فتاة صغيرة تلهو وسط فتيات العَشِيرة.. كان «حَمْزَة» في ذلك الوقت ما يزال شابًا يافعًا، بدأ نجمه في البزوغ، لاحَ في الأُفق القريب أنّ اسمه سيكون له نصيب وافر من الشّهرة وحظ معلوم من النّبوغ.. كانت دائمًا ما تغمره بنظرات الإعجاب كأي فتاة يحتويها حُب الشُهرة وتغريها فتوة الشّباب وعنفوانه، لكنّه دومًا ما كان يقابل نظراتها المُغرمة بالتّجاهل لسبب لم تكن تعلمه.. كان هذا التّجاهل يجرح كبريائها وكرامتها كأنثى، لكنّه أيضًا كان يزيد من حدّة استعار رغبتها وتشبثها به..

مكتبة عابث الالكترونية

أحيانًا كانت تحدّث نفسها أنّ غروره ربما يكون السبب، لمعظم فتيات العَشيرة يتنافسنَ للفوز بقلبه.. وكانت أحيانًا أخرى تعزو ذلك التّجاهل إلى الظروف العصيبة التي يعيشونها ما بين حروب واقتتال لا يتوقف بين عشيرتهم وعشيرتي المشارقة والمغاربة، وما بين محاولات مستميتة للصمود والبقاء أمام غزوات قلعة الشّمال التي لا تنقطع أو تتوقف أبدًا.. لكنّها كانت في النّهاية تطرد كل تلك الأفكار الهواجس خارج عقلها، تشحذ ذهنها وتركّز فقط على أمر واحد لا ثاني له، الفوز بقلب «حَمْزة»..

- فيالحظها السّعيد مَن تصبح وليفة حَمْزة وأليفته.

هكذا كانت تحدّث نفسها دومًا.. إلا أنّ «حَمْزة» لم يكن وحده من يستأسر ويستحوذ على نظرات الإعجاب والغرام من بين شباب العَشيرة، بل كان ينافسه في ذلك صديقه الأقرب وثاني اثنين من خيرة شباب العَشيرة، «يَحْيَى»، لكنّه لم يكن من النوع الذي يستهوي قلبها ويأسر فؤادها..

فقد كان «يَحْيَى» من ذلك النوع الذي تظهر عليه علامات التّفكير والانشغال الدائم، دوما ما يكون مشغولاً بشيء، أي شيء وكل شيء المهم أنْ يكون مشغولاً.. حتى عيناه كانتا فيهما مَسحة غامضة من الحزن، يشعر معها النّاظر

مكتبة عابث الالكترونية

إليه وكأنّه أكبر بكثير من سنوات عمره المَعدودة في هذا الوقت..

أما «حَمْزة» فقد كان مثالاً للفتوة الجامحة، القوة المُطلقة، الرّجولة الحقّة.. كان مثالاً حيًّا يلُهب خيال أي فتاة مثلها عن فارس الأحلام، والذي معه ستحيا الحياة كما تريدها دون أن يحول شيْ بينها وبين تحقيق أحلامها..

أفاقت من شرود ذهنها بعدَ أن سقط الإناء النّحاسي من يدها على الأرض مُحدثًا جلَبَة وصخبًا بدّدَا الهدوء المُسيطر على فضاء الحُجرة.. انحنت تلتقطه مُجددًا وهي تبتسم بعدَ أن راودها شعور بأنّ أحلامها لم تتحقق بعد على الرغم من فوزها بقلب وعقل فارس أحلامها.. فعلى الرغم من سنوات ارتباطهما الطّويلة إلا أنّ السّماء ضنّت عليهما بثمرة لهذا الغرام.. كثيرًا ما تساءلت لماذا لم تُرزق بالذّرية حتّى الآن؟.. لماذا هي تحديدًا دونَ سائرِ نساء العَشيرة التي رفضت السّماء أن تستجيب لدعواتها وابتهالاتها؟.. اختلست نظرة سريعة عَبرت النّافذة الحَجرية الكبيرة صوبَ السّماء وهي تتساءل:

- هل ارتكبت جُرمًا ما لا أعلمه، تعاقبني السّماء عليه بالحرمان من الظّفر بذرية حَمْزة؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

نفضت عن رأسها غُبار تلك الوساوس البغيضة، التي كان من المُمكن أن تؤدي لإفساد هذا اليوم الذي انتظرته مُنْذُ أن غاب عنها الحبيب.. عادت بذهنها لذلك الركن القَصي من الذكريَات الجميلة في محاولة لاستعادة ما كانت عليه من حالة رائقة.. أخذت تتأمل وجهها من جديد على صفحة الإناء النّحاسي وهي تتذكر..

تذكرت كيف كان الفوز بقلبه أمرًا عَسيرًا، خاصّة وأنّها كانت لا ترى في نفسها جمالاً يؤهلها للتنافس مع بعض فتيات العَشِيرة اللاتي يفقنها حُسنًا ودلالاً.. تذكرت الأوقات الطّويلة التي كانت فيها تراقب ذهابه وغَدوه، ضحكه وحزنه.. درسته جيدا، حفظت عن ظهر قلب كل تفصيلات حياته.. ماذا يُحب وما يكره، متى يستيقظ ومتى ينام، ما يُبهجه وما ينغص عليه يومه.. حتى علمت السّبيل إلى قنص روحه.. هداها بحثها وعقلها إلى أنه كان يبحث عن العقل الراجح الذي يستطيع أن يُهذّب جموحه ويقوّمه.. عندها أيقنت أنها تمتلك ما هو أهم من تلك المقومات الجسديّة الفانيّة، كانت تملك روحًا مُتأججة طموحة وعزيمة لا تلين، عقلاً راجحًا وذكاءً فائقًا..

والحق أنّها وإنْ كانت لا ترى في نفسها جمالاً وحسنًا يميزاها عن غيرها من سائر فتيات العشِيرة، لكن ذلك لا

مكتبة عابث الالكترونية

يعني خلوها من أسبابهما.. فقط كان طموحها الزائد ورغبتها الجامحة في امتلاك المزيد هما ما خيلا لها ذلك.. فقد كانت «زينب» فتاة خمرية اللون، معتدلة القوام والقد، لا هي بالسمينة ولا بالرفيعة.. لها وجه طويل بعض الشيء لكن له استدارة بديعة عند الذقن، الذي تتوسطه نغزة مميزة مما اصطلح عوام النّاس على تسميتها بـ (طابع الحسن).. أنفها ملكي حادّ، مفلطح قليلاً عند مقدمته مما أضفى عليها جاذبية تختلف بها عن مثيلاتها من الفتيات.. فمها، طالما حدثتها أمها وقت أنْ كانت على قيد الحياة عن جمال شفتيها، له شفتان مكتنزتان ورديتان طوال العام لا يتغير لونهما بتغير حرارة الطّقس تشعر عند النّظر إليهما بالنّضارة والرغبة في الابتسام.. أمّا عيناها فلهما سحر خاص بتلك الرموش الطّويلة الآسرة، واسعتان بنيتان فيهما نظرة ساهمة لها غموض خفي، تأسرك نظراتها فور أن تلقي شباكهما عليك، تهيم بهما فلا تستطيع الفكاك من شركهما.. لها شعر أسود، خيلي طويل، ينساب في نعومة ودلال حتى يكاد يلامس أسفل ظهرها..

تذكّرت وقت قررت أن تعد له شركها، حينَ كان عائدًا برفقة شباب العشيرة من أحد تلك قوافل التّجارة مع عشيرة الجنوبيين.. في ذلك اليوم الذي يراه النّاس بعيدًا بمقياس الزمن، وتراه هي قريبًا بمقياس روحها، كانت «زينب»

مكتبة عابث الالكترونية

تعين الفُرصة للتقرّب من «حَمْزة» والتحدّث معه على انفراد.. لكنْ باءت كل محاولاتها بالفشل، فمثله لا يخلو من الرفاق والصحبة أبدًا..

حتّى اقترب موعد خلوده إلى النّوم، دخل إلى حُجرته الّتي كان يقيم فيها وحده بعدَ أنْ مات أبويه.. اقتربت من بابها بتوتر وقلق.. كانت الهواجسٍ والظّنون تتصارع داخلها بشدّة، تعبث بمشاعرها بعنف حتّى كادت أن ترجع عمّا عقدت عليه العزم.. لكنّها في النّهاية حزمت أمرها، قررت المُضيِ قُدمًا في خطتها.. أزاحت الأستار عن باب الحُجرة ثم دلفتِ سَريعًا إلى الداخل.. انتبه «حَمْزة» لوجود حركة خلفه عندَ باب الحُجرة.. التفت تجاه مصدر الصّوت، رآها.. كانت تقف بالقُرب من الباب تتظاهر بالتّماسك والقوة، لكن إعصارًا عنيفًا كاسحًا كان يضرب جَنبات نفسها.. لا زالت تذكر نظراته المُتعجبة حينَ رَمَقَها وهو يقول:

- ما الأمر؟ أتبحثينَ عن شيء؟!.
- إذن فأنت حَمْزة؟!.

كانت تلك العبارة الباهتة هي جُل ما تفتّق عنه ذهنها المتوتر لتكسر به حاجز التّعارف بينهما في ذلك الوقت البعيد..

افتر ثغره عن ابتسامة ساخرة وهو يقول مُتعجبًا:

مكتبة عابث الالكترونية

- أهذا ما جئت من أجله يا صغيرة؟!.

اعتراها الغيظ لاستهتاره بقدرها لهذا الحدّ فهي لم تكن تصغره سوى ببضعة أشهر فقط، قالت بحدّة:

- لست صغيرة، أنا أملك من رجاحة العقل ما قد يذهلك.

أذهلته جرأة لسانها وجسارة قلبها فخلع عن كتفه جراب سيفه بعدَ تأكده بأنّ هذا الحوار سوف يطول، قال وهو يتكئ على حائط الحُجرة الحَجَري بعدَ أن عقد ذراعيه أمام صدره:

- حسنًا أيتها الفتاة الكبيرة، ها أنا ذا أُنصت لحديثك، ماذا تريدين؟.

أيقنت بأنّها قد عبرت نصف المسافة صوبَ تحقيق مرادها، فها هو «حَمْزة» نفسه يحاورها بل وينصت لحديثها، قررت إكمال ما بدأته فقالت:

- ليس المهم ما أريده أنا، بل ما يهم هو ما تريده أنت؟.

عقد «حَمْزة» حاجبيه غضبًا وهو يقول في حدّة:

- لا طاقة لي بتلك الألاعيب الصّبيانية، هاتي ما عندك أو اذهبي من حيث أتيت.

مكتبة عابث الالكترونية

تجاهلت حدّته تمامًا، رمته بنظراتها النّاعسة وهي تقول بهدوء:

- أنت الذي تراودني دومًا، تشاغلني وتأتيني في الحلُم كل ليلة، حتّى بِتُّ أراك في منامي ويقظتي.

أطلق «حَمْزة» ضحكة ساخرة مُقهقهًا وهو يقول:

- أحقًا!! لا أذكر أنّي قد فعلت.

أكملت هي سعيها المحموم وراء فريستها وقالت بنبرة خافتة:

- أراك بعينِي هاتين وقد أصبحت قَائدا كبيرًا أخضع سلطانه كل العشَائِر والطّوائِف، أراكَ بعين قلبي وقد أصبحت أبًا لذرية كبيرة ملكت زِمام الأرض وما عليها، أراك بعين روحي وقد أصبحت سيّدها ومالكها الأوحد دون مُنازع.

ابتلع «حَمْزة» لُعابه بعدَ أن أربكته كلماتها النّافذة لأعماق نفسه، نظر إليها مليًّا بعدَ أنْ ضاقت حدَقتاه ثم قال بنبرة هادئة:

- مَن أنت؟!، وماذا تريدين حقًّا؟!.

استبشرت خيرًا بعدَ أنْ شعرت ببوادر النّصر تلوح في الأُفق القريب فشحذت كافّة أسلحتها لإنهاء تلك المعركة،

مكتبة عابث الالكترونية

داعبت بكفها الصّغير شعرها الأسود المُستكين على جانب كتفها في دلال وأنوثة، قالت بنعومة وهي تبتسم ابتسامة ساحرة:

- أنا نصفك الآخر.

تلعثم «حَمْزة» قليلاً من جرّاء هجومها المفاجئ واقتحامها العنيف لأسوار نفسه فقال محاولاً التّشبث ببواقي عزيمته التي خارت أمام نعومتها ودلالها:

- لكنّني لا أعرفك.

شعرت بضعف مقاومته، أيقنت بانهيار حصونه فضربت بيدٍ من حديد هادمةً آخر أسوارها، قالت بغُنج وهي تقترب منه في دلال صارخ:

- لكنّني أعرفك.

همّ «حَمْزة» بالتراجع للوراء لكنّه لم يستطع لاكتشافه أنه يتكئ إلى الحائط، تلعثم وظهر عليه الارتباك، انتثرت على جبهته بضع حبّات من العرق البارد بعدَ أن لفح حر صدرها جسده.. اقتربت منه أكثر فأكثر حتّى كاد صدرها أن يُلامس جسده حينَ أكملت هي حديثها بذات النّبرة النّاعمة والنَّظَرات النّاعسة:

- أنت سيدي، أنت بطلي، معي ستكون سيّد القوم والعشَائِر، معك سأكون وحدي المُتحكّمة في مملكة قلبك دون مُنازع، معًا سنكون كالحلم لكل عاشقين، سنكون خير مِثال يُضرب ويُحتذى به في الغرام، معًا ستكون لنا الذّرية الحاكمة، سننسى آلام الماضي، سيكون لنا الحاضر والمستقبل.

أنهت عبارتها السّابقة ثم شبّت على أطراف قدميها وتعلّقت بذراعيها النّاعمتين في رقبته القوية فتهدّجت أنفاسه واضطّربت، رمت عيناه بسهام نظراتها النّاعسة ثم أغمضت جفنيها في دلال وأنوثة طاغية فغامت الرؤيا أمام ناظريه، قبّلت شفتيه قُبلة طويلة بُهت معها عقله وغاب فيها عن الوجود..

انتبهت من جموح ذكرياتها المُلتهبة على صوت فرس يصهل خارج حجرتها، كان صوت صهيله محببًا لنفسها..

- لقد عاد الحبيب، عاد حَمْزة.

هكذا حدّثت نفسها وهي تقوم مُسرعةً، وضعت الإناء النّحاسي جانبًا وعدّلت من وضع ثوبها المكشوف ثم هرعت خارج الحجّرة لملاقاته، أمطرته وغمرته بسيل من القُبلات

مكتبة عابث الالكترونية

والعِناق فورَ أن نزل عن صَهوة فرسه، تعلّقت بذراعيها في رقبته، قالت وهي تنظر إلى وجهه بِولَهٍ وعِشقٍ:

- لكم اشتقت إليك، لا يكون للحياة معنى في غيابك.

صمتت قليلاً ومضتْ في عشق وهيام تتأمل تفصيلات وجهه المُحبّبة إلى نفسها ثم أغمضت عينيها، طبعت قُبلةَ حارّة طويلة على شفتيه ثم قالت همساً:

- أوحشتني رؤيتك، اشتقت لمذاق شفتيك.

ابتسم «حَمْزة» في سعادة غامرة وهو ينظر حوله خوفاً وخجلاً من رؤية أهل العَشِيرة لهما في هذا الوضع، قال بحنان:

- خففي عنك، لم تطل غيبتي هذه المرّة، إنْ هي إلا أيام معدودات.

ازداد تعلّقها في رقبته حتّى أجبرته على حملها بين ذراعيه كالطّفلة الصّغيرة، قالت وهي تمسح بوجهها في صدره:

- كل لحظة تبتعد فيها عن دفء أحضاني، تكون بالنّسبة لي دهراً كاملاً.

حملها مُسرعًا إلى داخل الحُجْرة خوفًا من تطوّر الأمور وتفاقمها أمام أهل العَشِيرة، ما إنْ وَلجا داخل الحُجرة حتّى منحته قُبلة طويلة غامت معها الأرض أمام ناظريه، تهدّجت

مكتبة عابث الالكترونية

أنفاسه حين مسحت بكفها على جانب رقبته وهي تقبّل صدره، خطى بها في اتجاه الفِراش، لكنّها لم تُمهله حتّى يصل إليه، قفزت من بين ذراعيه واقفةً، خلعت عنه درعه وقميصه ثم نزعت عنها ما كان يستر فتنة جسدها من ثوب مكشوف، نزلت على أرض الحُجرة وهي تجذبه من ذراعه في دلال، قالت في غنج:

- هِئْتُ لَك.

استعرت جذوته فنسي معها ما كان فيه من تعب، خَلت نفسه من كل الهموم، لم يعد يرى في الوجود سِواها.. ظلّا على تلك الحال فترة من الوقت، لم يعلما أطالت أم قصرت، لكنّها كانت فترة كفيلة بأنْ يطرحا عن نفسيهما خلالها ما كان يثقلهما من أحزان ومخاوف.. في تلك الليلة، ذاق معها وأذاقها من فنون الحُب والهوى ما لم ينسياه بعدَها قط..

بعدَ أن هدأت أنفاسهما وأفرغا ما كان يختلج داخلهما من شوق وغرام، استكانا عاريين على أرض الحُجرة، لم يكن يسترهما سوى مشاعرهما وإحساسهما بدفء العشق وحرارة الهوى.. استلقت «زينب» مُمددة على الأرض بجواره بعدَ أنْ أراحت رأسها على كتفه وقد افترش شعرها الطويل صدره وبطنه، أخذت تداعب بكفها الصّغير صدره القوى، في حين

مكتبة عابث الالكترونية

كان هو مُغمضًا عيناه في سعادة ودَّ لو بقيت أبدَ الدَّهر..
همست في أذنه بصوت خافِت:

- حدثني عن رحلتكم، أكانت موفقة؟.

فتح «حَمْزة» عينيه بعدَ أن أفاق من سَكرة العشق على واقعه المضطّرب، ندّت عن فمه زفرة تأفّف وضيق ثم قال وهو يعتدل جالسًا:

- لا شيء جديد، كلهم لا يصلح حالهم سوى السّيف، لكن...

صمت قليلاً ثم قال بنبرة قلِقة:

- سيدي إبْراهِيم الحكِيم ليس على ما يرام.

- ماذا به؟!.

قالت «زينب» باهتمام بالغ، قام «حَمْزة» واقفًا يبحث عن ملابسه وهو يقول بضيق:

- ذلك الدّاء اللعين الذي يعصف بصدره، يبدو أنه قد تمكّن منه.

نظرت له «زينب» بترقُّب وسألته:

- أتراه يحتضر؟!.

عقد «حَمْزة» حاجباه غضبًا ثم قال في حدّة:

مكتبة عابث الالكترونية

- لا تقولي مثل هذا القول مرّة أخرى، إبْرَاهِيم الحكيم لن يفنى أو يموت.

اقتربت منه في دلال وأخذت تمسح على شعره في حنان وهي تقول معتذرة:

- سامحني يا عشقي، أعلم أن له مكانة خاصة في قلبك، فقط كنت أرغب في معرفة حالته.

لانت ملامحه من جديد واستكان تحت نعومة كفها وهو يقول:

- الحق أنني لا أدري ماذا أفعل لمساعدته، يبدو أن السّماء لا تريد لحياتنا أن تنعم بالهدوء والاستقرار.

أمسكت بيده في حُب، قادته نحو إناء خَشبي ضخم، أجلسته بداخله وهو يتبعها كالمسلوب إرادته، أمسكت في يدها دُورقًا خشبيًا مُمتلئ عن آخره بالماء النّظيف، شرعت تصبّ قليل من الماء فوق رأسه المُجهد وهي تقول:

- لا عليك يا حبيبي، نفض عن رأسك كل الهموم والمخاوف، ما دمنا سويًا فلا تخش شيئًا، لكل مقام مقال.

مسح الماء عن وجهه المُبتل بكفه وهو يقول:

مكتبة عابث الالكترونية

- لكن الأمر يختلف هذه المرّة، فقد رأيت نظرات الغَدر في عيونهم حين رأوا أنّ صحة الرّجل باتت مُعتلة، كلهم كانوا يخشون بأسه وسطوته ويطلبون منه الحكمة والإرشاد، فما يكون الحال إنْ رحل عن الحياة مفارقًا.

هزّت «زينب» رأسها في لا مبالاة، قالت وهي تصبّ المزيد من الماء فوق رأسه وتفرك كتفه:

- لا شيء، سيبحثون عمّن يلتمسون عنده ما كان عند الحكِيم.

زَفَر «حَمْزة» بعض الماء كان قَد تسرّب إلى فمه ثم قال مُتسائِلاً:

- فإنْ لم يجدوا.

صبّت «زينب» كمية كبيرة من المياه فوق رأسه دفعة واحدة وهي تقول:

- عندها لا نلومنّ إلا أنفسنا.

أنهت عبارتها السّابقة ثم تركته لتملأ الدُورق الخشَبي بالماء من جديد بعدَ أن فرغ منه، ولتسري كلماتها في عقله ويتغلغل مفعولها في روحه، مسح «حِمْزة» عن عينيه الماء ثم تلفّت حوله باحثًا عنها وقال في ضيق:

مكتبة عابث الالكترونية

- أين ذهبت؟!، ماذا تقصدين بمقالتك تلك؟.

عاودت «زينب» صبّ الماء بهدوء شديد فوق رأسه وهي تقول بحروف واضحة:

- أقول أنه قد آن أواننا، هذا وقتنا نحن، فإنْ لم نغتنم هذه الفرصة فسوف يختطفها غيرنا، حينها سنبقى أسرى النّدم والحسرة ما بقي لنا من عمر.

رفع «حَمْزة» رأسه نحوها وقال متُسائِلاً:

- ولكن كيف السّبيل لذلك؟.

احتضنت رأسه من الخلف وقرّبت فمها من أذنه، أخذت تقول هامسةً:

- أظهر لهم بأسك، أبِنْ لهم سطوتك، حينها سيعلمون أنّ الحكِيم لم يرحل إلا بعدَ أنْ ترك خلفه مَن يملأ فراغ غيابه.

عقد حاجبيه مُفكرًا بعد لاقى كلامها هوى في نفسه، قال في هدوء:

- بالفعل هم يحتاجون للتّأديب، خاصّة هؤلاء المغاربة الملاعين.

صمت قليلاً ثم قال في تردد:

مكتبة عابث الالكترونية

- لكن: سيدي إبْرَاهِيم الحكِيم سيغضب حينَ يعلم بما فعلت مُخالفًا أوامره.

مسحت بكفها على رقبته ثم همستْ في أُذنه:

- وماذا في ذلك!، سيغضب قليلاً ثم بعدَها سيسعد حينَ تأتيه نتائج فعلتك، حينَ يعلم أنه يوجد مَن يستحق أنْ يخلفه.

بدا ذهنه يعمل بسرعة فائقة حينَ ذكّرته عبارتها الأخيرة بما قاله له الحكِيم قبل وصولهما لأرض العَشيرة، تذكّر تخييره له ما بين القوي الجامح والهادئ الأمين.. أيقن أنّ تلك فرصة ذهبية ينبت له فيها أنّه الأجدر بتولي مقاليد الأمور من بعده.. إلا أنّ صورة باهتة لـ «يَحْيَى» برزت في جانب صغير من عقله فقال من فوره:

- ولكن يَحْيَى، ألا يجب أنْ أخبره بهذا الأمر؟!، ألا يجب أنْ أشركه معي في تنفيذه؟!.

صبّت فوق رأسه الماء صبًا حتّى دخل في أنفه وهي تقول في حدّة:

- دعِ عنك تلك الأفكار الباهتة، فيَحْيَى لا يهتم بأمر العشِيرة من قريب أو بعيد، جُلّ همّه ينحصر في زوجته وذلك المولود الجديد الذي أنجبته له.

مكتبة عابث الالكترونية

رماها بنظرة مُتعجبة وهو يقول:

- لكنّه سيغضب لعدم مشاركتي له في الأمر، أو على الأقل عدم تشاوري معه قبل الإتيان على تنفيذه.

طبعت على خده قُبلة حانية، قالت وهي تربُت على شعره:

- لا تشغل بالك بصغائرِ الأمور، صف ذهنك واعمل عقلك في كيفية توجيه ضربة حاسمة للمغاربة يعلمون معها قدر حَمْزة، فلا يجرؤن بعدَها ومَن خلفهم المشارقة على شقّ عصا الطّاعة أبدًا.

صمت «حَمْزة» مُترددًا يفكر في مقالتها التي كان يشعر في قرارة نفسه بخطورتها الفادحة، وإنْ كان يجد لها صدى محبب لدى عقله.. عاجلته «زينب» على الفور ماحيةً كل أثار التردد من قلبه وقالت:

- انتظر حتّى يهبط الضَّباب، سيكون أمامك عشر أيام طِوال لتنفيذ مهمتك الكبرى، خُذْ معك نَفَر مِن الرِّجال الثّقات، واحرص على كتمان الأمرِ حتّى تعود مظفرًا مرفوع الرأس، حينها سيعلم الجميع مَن هو خليفة الحكِيم القادم.

****

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

(٦)

..يحيى..

لاحتْ في الأُفق تباشير ذلكَ اليوم الموعود، بعدَ أنْ حلّت أيام الضّباب العَشر، حينَ كانت إحدى العَابِدات ترمي بنظراتها المُنهكة صوبَ السّاحة الكبرى بعينين ذابلتين، أعياهما السّهر طِيلة البارحة من أجل الإشراف على الترتيبات الخاصة بالاحتفال الكبير، فأي يوم سعيد هذا الذي يوافق يوم تولية الأمير شئون القَلعَة..

علَا صوت العَابِدات خاشعًا بتراتيلهنّ المُميزة فامتلأت السّاحة الكبرى للقلعة بأجواء روحانية بالغة، أخذنَ يتلونها أثناء طوافهنّ بالتّمثال الحجَري الضّخم ومن حولهنّ اجتمع أهل القَلعَة عن بَكرة أبيهم يشهدون ذلك الاحتفال المَهيب بأعين شفت نظراتها عن غبطتهم البالغة، شرعوا يرددون خلفهنّ تلك التراتيل المَهيبة حتّى امتلأت قلوبهم سعادة وامتنانًا..

مكتبة عابث الالكترونية

في تلك الأثناء كانت السّاحة الكُبرى قد ازدحمت بالغادين والرائحين من أهل القَلعَة فسخن الهواء بعدَ أن اختلطت أنفاسهم الحارّة بالرّائحة النّفاذة لذلك النّبات الغريب.. ناءت الأرض بحملهم بعدَ أنْ انتشرت في السّاحة حلقات المُغنيين والراقصات ينشدون التراتيل، يحتفلون ويرقصون على صوت دقّات الطّبول.. ازدانت واجهات أسوار القَلعَة وحوانيتها بالأعلام والزينات المزركشة فبهرت أنظار أهل القَلعَة.. انتشرت في الأرجاء جماعات حرس الأمير بأجسادهم القوية وعضلاتهم المفتولة وسيوفهم اللامعة وحرابهم الطويلة المُشرعة، بعدَ أن تراصوا في السّاحة الكبرى بنظام عسكري دقيق، يطلقون بين كل فينة وأخرى إحدى تلك الصيحات الحماسية بصوت يزلزل أرضها وترتجّ معه أفئدة أهل القَلعَة..

كان الجو يضجّ بصخب أهل القَلعَة وأصواتهم، فأصبح تمييز أي منها مستحيلاً، لم يبق واضحاً منها إلا دَوي مُرتفع وهمهَمة عالية مختلطة، كان لها صدى هائل عظيم تردد بين جنبات الأسوار مضفياً على المكان مهابة وجلالاً.. وزعت الخمر والمشروبات على أهل القَلعَة ببذخ شديد، احتفالاً بتلك المناسبة الميمونة، فاختلط صوت تراتيل العَابدات بصيحات السّكارى الثَمِلين، وشاع في أرجاء القَلعَة أجواء من الفرح والطّرب..

مكتبة عابث الالكترونية

كان «يَحْيَى» يقف في تلك الأثناء مُتكئًا على سور القَلعَة القرب من بوابتها الغربية، يراقب ما تقع عليه عيناه في دَهْشَة وعجب، فتلك هي المرّة الأولى التي يكون فيها هذا الاحتفال بذلك القدر من الترف والبَذخ، فعلى الرغم من حضوره لأكثر من عشرة احتفالات مماثلة منْذُ أن فُتقت ذاكرته بداخل أسوار القَلعَة إلا أن تلك المرّة بدت له مُختلفة للغاية..

أخذ ينظر لنفسه في عجب وخُيلاء، كان يشعر بنظرات الاحترام والتقدير في أعين أهل القَلعَة بعدَ أن ارتدى ذلك الثوب الأبيض الفضفاض، وربط على وسطه إزار لامع براق، ذَهبي اللون، تغيرت معاملتهم له بصورة واضحة بعدَ أن أصبح خادمًا للمَعْبَد، أما الحرّاس فقد باتت نظراتهم تحمل لحوه قدرًا أعظم من الضيق والحنْق..

فُتحت البوابة الغربية بجواره ودخلت منها أسراب جديدة من العَابِدات يتبخترن في مشيتهنّ، هلّل الحضور لدخولهنّ المبهج، مضينَ يرقصنَ في حركات متناسقة بديعة على أنغام مزامير رائِقة ودقّات طبول مُنتظمة..

لمح من بينهن «سَالُومي» بعدَ أن نزعت ما كان يسترها من ثياب فبانت للأعين فتنتها الفائقة وتقاسيم جسدها الرائعة، رآها تقترب في خطواتها الرشيقة الرّاقصة من مكان تواجد طَائِفة العوام، نظر نحوهم في شفقة وهو يتذكر ما كان يكابده

مكتبة عابث الالكترونية

وقت أن كان بينهم، شاهد «خليل» واقفًا في الصّفوف ينظر بشغف واضحٍ لأجساد العَابِدات، كانت «سَالُومي» تقترب منهم أكثر حتّى بدا أنّها تقترب من موضع «خليل»، رآهما يتبادلان نظرات خاصّة، تحمل بين طياتها أمارات العشق والغرام..

عقد حاجبيه في دَهْشَة، تذكّر ما جرى معه بالأمس بعد انتهاء مقابلته بسيّدة العَابِدات، أدخلته «سَالُومي» غرفته الخاصّة في المَعْبَد ومنحته ثيابًا نظيفة كما أُمرت، أخبرته أنْ يغتسل في ذلك المَغْطَس الخشبي الكبير الواقع في نهاية المَمر الطّويل الذي يلف المَعْبَد بأكمله.. حينَ عاد إلى غرفته وجدها مُمدّة على فراشه في دلال وغُنج، كانت عارية تمامًا لا يستر جسدها شيئًا، سمّرته الدَهْشَة في مكانه فلم يتحرك، على حين بقيت هي ترميه بنظرات فارغة من أي معنى، وإنْ ظلّت عارية في فراشه.. استمرا يحدّقان في أحدهما الآخر حتّى قالت بهدوء لافت ولامبالاة غريبة:

- أمرتني سيدتي أن أُلبي طلباتك، أن أعمل على إسعادك أنّى شئت.

حينها عقد حاجبيه في دَهْشَة وقال:

- وأنتِ، ماذا تريدين؟.

مكتبة عابث الالكترونية

ضاقت حدقتاها وهي تقول في هدوء:

أريد أن أنفذ أوامرها بدقة.

اقترب من الفراش بهدوء، أخذ يفتش فيه حتَّى وجد ثوبها، مدّ يده به إليها وهو يقول مُبتسماً:

- حسناً، أخبريها أنّك قد فعلت.

صوّبت نحوه نظرات الدَهْشَة وقالت:

وكيف ذلك؟!.

أشار بعينيه صوبَ جسدها اللامع وقال مُبتسمًا:

- يكفيني ما رأيت.

اعتراها الخجل فمدت يدها تختطف منه الثوب، دارتْ به جسدها المكشوف قليلاً ثم قالت وهي ترتديه بصوت خافت:

- أخصيّ أنت؟!.

نظر «يَحْيَى» نحوها بتعجب وقال:

- كلّا بالطبع!، لِمَ السؤال؟!.

وقفت أمامه في خجل بالغ، أطرقت برأسها إلى الأسفل وهي تقول:

- لأنها المرّة الأولى التي أُقابل فيها بالرفض.

مكتبة عابث الالكترونية

أومأ «يَحْيَى» برأسه وهو يقول مُبتسماً:

- لا عليك، فليس للأمر علاقة بك.

انصرفت على إثر عبارته الأخيرة مغادرةً الغُرفة في صمت تام.. أفاق من شرود ذهنه في ذكرياته القريبة، اعتدل في وقفته عند البوابةِ الغربية حينَ سمع صوت صياح إحدى النّساء تصرخ قائلةً:

- فلتحل علينا البركات، البركة يا سَيّدةُ العَابِدات.

التفت برأسه نحوها مُستطلعًا ما يدور، كانت المرأة تحاول مدّ يدها لتخترق زحام الأجساد وتكدّسها، في محاولة يائسة لِلمس جسد سَيّدةُ العَابِدات طلبًا للبركة.. كانت سَيّدةَ العَابِدات تسير بالقُرب منه في وقار وهيبة شديدة بعدَ أنْ دخلت إلى السّاحة الكبرى عبر بوابة القَلْعَة الغربية، مرفوعة الرأس في عزة وشموخ، مشدودة الجسد كتمثال شمعِي، تنظر للحضور منِ طرف عينها، تتحرك في هدوء وثقة صوب التّمثال الحَجري الضخم بعدَ أن أفسح لها الجميع مجالاً للمرور من بينهم..

حينَ وصلت أسفل قدميه الضّخمتين خرّت ساجدةً تُتَمتم وتتلو تراتيلها ثم قامت واقفةً في شموخ وصرخت بصوتها الحاد في الحضور:

مكتبة عابث الالكترونية

- فلنسأل جميعًا السّماء أن تُلهم الأمير الحكمة والرّشاد، أنْ تُسدّد خطاه وتحفظه لنا.

التهبت حناجر الحضور بالهِتاف وعَلا صوتهم جميعًا يردّدون في حماس:

- آمين، آمين.

حينها دوّى في أرجاء المكان دوي النّفير، المُؤذن بظهور الأمير عليهم، ارتفعت الأعناق تنظر بشغف بحثًا عن موكبه المُبارك، أملاً في أن تحظى برؤية هودجه المُقدّس..

مضت فترة وجيزة حتّى رأى أهل القَلعَة مجموعة من الحرّاس المُسلحين، يتقدمون في جدية وصرامة بالغة أربعة من العبيد السّود الأشدّاء يحملون هودجًا فاخرًا ضخمًا، تنسدل الأستار من حوله فتحجب مَن بداخله عن الأعين.. سادَ الصّمت أرجاء السّاحة الكُبرى تمامًا بعدَ ظهور موكب الأمير، اقترب العبيد الأربع يحملون الهَودج من التّمثال الحَجري الضّخم حتّى وصلوا إليه، شرعوا يطوفون بالهودج المُقدّس حول التمثال، والجميع من حولهم صمتٌ يحدّقون بأعين مذهولة صوبهم.. حتّى انتهوا من فعلهم فشرعوا يعودون من حيث أتوا، شقّ حاجز الصّمت صرخة أحدهم حينَ علا صوته صارخًا:

مكتبة عابث الالكترونية

- عاش أميرنا، عاش أمير القَلعَة.

ردّد الجمع من خلفه الهِتاف في حماس بالغ، حينَ علا صوت آخر يهتف بقوة:

- المجد للسّماء.

اشتعلت حماسة الحضور أكثر فردّدوا من خلفه الهِتاف، فجأة دوّى في أرجاء السّاحة صياح صوت آخر:

- المجد لسيدتنا، المجد لسَيّدةُ العَابِدات.

ردّد الجمع الهِتاف الأخير دون وعي منهم بما يحمله من دلالة، كانت تلك هي المرّة الأولى التي يهتف فيها لغير الأمير داخل أسوار القَلعَة..

انتهت مراسم الاحتفال الصّاخب دونَ أنْ يؤدي ذلك الهِتاف إلى تعكير صفوه واستمرّ أهل القَلعَة في الاحتفالات بعدَ انْصراف موكب الأمير، دونَ أن تلوح ثمّة بادرة تَشي بملاحظته لذلك الهِتاف الغريب، ينشدون الأغاني على أنغام المزامير ويرقصون على إيقاعات الطّبول والدّفوف..

حينَ انصرفت العَابِدات من السّاحة الكُبرى تبعهن «يَحيَى» إلى المعبَد، حيث كانت التّرتيبات جارية على قدم وساق للإعداد لاحتفالات ذات طبيعة خاصّة، يحضرها علية

مكتبة عابث الالكترونية

القوم من أهل القَلعَة، قادة الطَّوائِف والعشَائِر.. احتفالات سيشرفها بالحضور الأمير ذاته..

ولج «يَحْيَى» إلى قاعة الاحتفالات الكُبرى التي أُعدت خصيصا لهذا اليوم الهام، كانت الزينات والأعلام قدْ انتشرت على جُدران القاعة الفاخرة مُضفية جوًا من الفخامة يقترن بالبهجة، افترشت المقاعد الوثيرة أرجاء القاعة وبجوارها نصبت المناضد النّحاسية بعدَ أن امتلأت بما لذّ وطابَ من الأطعمة والأشربة الفاخرة.. وقفت سَيّدةُ العَابِدات فِي نهاية القاعة تشرف بنفسها على حُسن الإعداد وجودته حين لمحت «يَحْيَى» فأشارت له بالاقتراب، بادرته قائلةً:

- ما رأيك باحتفالات هذا العام؟!.

هزّ «يَحْيَى» رأسه حينَ أجاب بهدوء:

- مختلفة يا سيدتي، رائعة.

أومأت سَيّدةُ العَابِدات برأسها في سعادة ورضا، همّت بمواصلة الحديث حينَ قاطعتها إحدى العَابِدات تقترب على استحياء، قالتْ باحترام بالغ بعدَ أن أخفضت رأسها إلى الأرض:

- معذرةً يا سيدتي، قائِد حرس مولانا الأمير يرغب في لقائِك.

مكتبة عابث الالكترونية

لمعت عينا سَيّدةُ العَابِدات ببريق غريب ولم ترد، اكتفت بإيماءة بسيطة من رأسها، دخل الرّجل مشدود القامة مرفوع الرأس، دنَا منها بخطوات واثقة لها صوت دقات قوية على الأرض، قال بنبرة رسمية:

- مولانا الأمير يرغب في السّؤال إنْ كان لدى سيدتنا علمٍ بتلك الهتافات الوضيعة التي زلزلت أرجاء السّاحة الكُبرى اليوم، وعكرت صفو الاحتفالات؟.

هزّت سَيّدةُ العَابِدات رأسها نفيًا وهي تقول بصوتها الحادّ:

- لقد فُوجئت بها تمامًا مثل مولانا الأمير، لو استطعت لحزّزت رأس الخائِن قائلها.

ارتسمت ابتسامة رضا على ملامح قَائِد الحرس وهو يقول قبل مغادرته القاعة:

- سيسر مولانا الأمير لسماع ذلك سيدتي.

راقبته المرأة وهو ينصرف مُغادرًا ثم غمغمت قائلةً:

- يبدو أن صدامنا أوشك أن يكون علَانية.

خاطبها «يحْيَى» مُستفهمًا عمّا قالته:

- معذرة سيدتي، هل تخاطبينني؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

التفتت المرأة نحوه وقالت بعد أن رمته بنظراتها النّافذة:

- لِمَ رفضت هديتي بالأمس؟!.

رفع «يَحْيَى» حاجبيه دَهْشَة وقال بنبرة قلِقة:

- أنا؟!.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة غامضة وهي تقول:

- بلى، ألم تأت سَالُومي إلى غرفتك بالأمس ورددتها بعد أنْ خيبت مسعاها.

ارتبك «يَحْيَى» وظهرت على ملامحه علاَمات الحيرة وقال بحروف متلعثمة:

- الحق يا سيدتي أنّني لم أكن...

رفعت المرأة كفّها في وجهه تقاطعه وقالت بحسم:

- لا عليك، لا أريد أنْ أعرف أسبابك، لكن يبدو أن حدَسي كان في محله، يبدو أن تلك النَّظَرات التي ترسلها عيناك تحمل داخلها ما هو أكثر بكثير ممّا هو ظاهر.

ازداد ارتباك «يَحْيَى» لكن المرأة عاجلته قائلةً:

- سأذهب الآن لتبديل ثيابي استعدادًا لقدوم الضّيوف، وأنت فلتُشرف على كل شيء حتَّى أعود.

مكتبة عابث الالكترونية

أنهت عبارتها السّابقة ثم انصرفت مُغادرة صوبَ غرفتها بعدَ أنْ تركته غارقًا في خضم بحر عميق من التّساؤلات المُتضاربة.. أكان لزامًا عليه قبول طلب «سَالُومي»؟!.. أفي رفضه لها إهانة لسَيّدةُ العَابِدات؟!.. حقًا هو لا يعلم لم رفضها، هي جميلة بالفعل، طالما اشتهتها عيناه وتمنتها نفسه فور أنْ وقعت على جمالها الأسمر الأخّاذ، لكن حينَ رآها مُمدة على فراشه لم يشعر نحوها بأي شهوة، فقط انتابته مشاعر الشفقة، أحسّ بمدى بؤسها وشقائِها..

- يَحْيَ، هل أنت بخير؟!.

انتبه على صوت «سَالُومي» تسأله.. التفت نحوها بوجهه فرآها وقد اتخذت كامل زينتها فبدت أشدّ جمالاً ممّا عهد، ارتسمت على شفتيه ابتسامة حاول بها مواراة ارتباكه وقال:

- كل شيء على ما يرام.

بادلته الابتسام ثم قالت وهي تشير بكفها الصّغير صوبَ نافذة القاعة:

- حسنًا، هيا بنا فقد بدأ توافد الضّيوف، ستكون واقفًا خلفَ ذلك السّتار حتّى إذا ما طلبتك سيدتنا، أنت تعلم بالطّبع أنك الرّجل الوحيد المتواجد في مَعْبَدنا،

مكتبة عابث الالكترونية

وهذا شيء سيلفت انتباه ضيوف الأمير بالطّبع، فهو أمر لم يعتادوه من قبل.

أطاعها «يَحْيَى» دونَ سؤال ومضى إلى حيث أشارت، أخذ يرقبُ وفود الضّيوف يتقاطرون إلى القاعة، كانوا قد أتوا من كل حَدب وصَوب، وفود تمثل كافة الطَّوائف والعشائر بعدَ أنْ استتب الأمر للأمير، كان قد سمع من أقرانه أن الأمير أصبح سيدًا بلا منازع على الجميع، عدا عشيرة الوَسَطيين الذين رفضوا الخضوع لسلطانه فعاقبهم بالعزلة والحِصار بعدَ أنْ فشل في كسر شوكتهم بالقوة..

بعدَ فترة وجيزة دلفت سَيّدةُ العَابدات إلى القاعة، مُتأنقة تتبختر في زينتها المتلألئة، ترتدي ثوبًا ذهبيًا يشفّ عن جمال خلقتها وبديع تكوينها.. مضت توزع الابتسامات على الضّيوف وتتبادل معهم عبارات المُجاملة والتّرحيب، حين دَوت صيحة عالية اخترقت أسماع المتواجدين جميعًا:

- مولانا الأمير.

وقف الجميع صمتًا واحترامًا لحضور الأمير، الذي دخل عليهم مُنتصبَ القامة، مَهيب الطّلعة، يصوّب بصره إلى الأمام دائمًا غير مُبالي بالحضور من حوله، كان يبدو في تلك الهَالة من حوله ضخمًا، على الرغم من كونه متوسط الطّول يميل

مكتبة عابث الالكترونية

للنّحافة، يضع على منكبيه وِشاحًا حريريًا أحمر اللون رُصع غالبه بأحجار لامعة، يعتمر فوق رأسه عِمامة زرقاء يتدلى منها أمام وجهه رِقاقة من القماش الأبيض الخَفيف، على الرغم من أنها لا تخفي ملامحه تمامًا لكنّها أيضًا لم تكشف عنها بوضوح..

اقترب في سيره من سَيّدةُ العَابِدات فأحنت رأسها وأشارت بيدها لحو عرش أُعدّ خِصيصًا لجلوسه في هذا الاحتفال، جلس الأمير على عرشه في ثقة وخُيلاء ثم أشار بكفيه للضّيوف، يأذن لهم في الجلوس.. نصبت أمام عرشه مائِدة ضخمة عمرت بأنواع كثيرة من الأطعمة والفاكهة، دَنت منه اثنتين من العَابِدات تحملان بين أيديهما دُورقين ذهبيين مُمتلئين عن آخرهما بأجود أنواعِ الخمر، تناول الأمير كأسًا ثم جرع ما فيها والتفت صوبَ سيدة العَابِدات رافعًا يده في وقار، صفقت على إثر تلك الإشارة سَيّدةُ العابِدات بيدها مرتين..

كان «يَحْيَى» ما يزال واقفًا في مكانه خلف تلك السّتار يرقب ما يحدث حوله بنظرات ملئت بالانبهار والفضول، كانت تلك هي المرّة الأولى التي يكون فيها قريبًا لهذه الدّرَجة من أمير القَلعَة، شعر بخفقان قلبه بينَ أضلعه من فرط الحماسة.. دخلت مجموعة من العَابِدات سريعًا بخطوات رشيقة

مكتبة عابث الالكترونية

واقترشن أرضية القاعة، كنّ يُمسكنَ في أيديهن بآلات موسيقية مختلفة، طبول ودفوف، مزامير وقيثارات، صنوج..

أشارتْ لهن سَيّدةُ العَابِدات بيدها فشرعنَ في العزف الجميل والنّقر الرشيق، عزفنَ لحنًا رائقًا شَجيًا أذهل أسماعَ الضّيوف وخلب ألبابهم، حلّق بأفئدتهم في عوالم أخرى مُغايرة، هامت أرواحهم في سماوات السّعادة والانتشاء، ذهلت عن متاعب الحياة وهموم الدنيا فاستبقوا إلى الشّراب يعبونه في جوفهم عبًا..

بعدَ حين لعبت الخمر بعقولهم فراحت أعينهم ترمق العَابِدات بنظرات مُستعرة بعدَ أن ألهبها عُري ثيابهنّ وطَراوة لحمِ أجسادهنّ، اتّسعت شفتا سَيّدةُ العَابِدات عن ابتسامة حينَ رأت ما طرأ على ضيوفها بفعل الشّراب فصفقت بيديها من جديد.. ما إنْ فعلت حتّى اندفع في وسط القاعة مجموعة أُخرى من العَابِدات لا يستر أجسادهن شيء، من بينهنَ «سَالُومي»، انطلقنَ بينَ الضّيوف يخالطونهم ويداعبونهم، يشاربونهم ويماجنونهم حتّى ماجت القاعة برنات ضحكاتهن الرقيعة بعدَ أنْ فاحت في أجوائها خليط ما بين رائِحة رغبات الضّيوف المُستعرة ورائِحة الخمر..

بدا على الأمير في جلسته مظاهر التّململ والضّجر، بعدَ أن ظلّ فترة حسبها طالت دونَ أنْ يجدَ ما يسره، كان

مكتبة عابث الالكترونية

قد عبّ في جوفه كؤوسًا من الشّراب بات عاجزًا عن تذكّر عددها.. لاحظت سَيّدةُ العَابِدات ذلك فانبرت واقفةً في وسط القاعة وقالت بصوتها الحادّ:

- والآن أيّها الجمع الكريم، فليأذن لي مولانا الأمير أنْ أقدم له هدية المَعبَد إليه في هذا اليوم المَيمون.

أشار الأمير بيده في ضجر ووَهَن بعدَ أن أعيته الخمر وأرهقه السّأم، نظرت سَيّدةُ العَابِدات نظرة ذات مَغزى نحوَ السِتار التي يقف خلفها «يَحْيَى»، لم يتنبه إلّا حين شعر بحركةَ سريعة بجواره، جسد يمر بجانبه في سرعة بالغة، مَرق بجواره كغزال يركض طليقًا في خفّة بينَ الأشجار..

تبعه برأسه حتّى توقف مُنتصف القاعة تمامًا، توقف ثم انحنى في هدوء شديد يؤدي التّحية للأمير، كان لا يبين من هذا الجسد شئ على الإطلاق، تغشاه من أعلاه إلى الأسفل غِلالَة من القماش الأبيض، تحجب ما تحتها..

أشارت سَيّدةُ العَابِدات بيدها إلى العازفات فداعبت أناملهنّ أوتار القيثارات في رقّة ونعومة، نفخت شفاتهنّ في المزامير بدِعَة وهدوء، تعزفنَ لحنًا آية في العذوبة والرّقة، يهيئ به الأجواء لأذان الضّيوف.. بعدَ فترة وجيزة مضت الأنغام تخفت شيئًا فشيئًا حتّى باتت أقرب لهمس العاشقين، ومعها

مكتبة عابث الالكترونية

كان الجسد المُغطى بالغِلالة البيضاء يتوّج في حركات راقصة، يهبط نحوَ الأرض رويدًا رويدًا، حتى بات مُمددًا فوقها.. بجأة أمسكت بعض العازفات بالدّفوف والطّبول، شرعنَ ينقرنها بإيقاع هادئ معه بدأ الجسد المُستتر في التثني والتلوي بخِفة ومَياعة، كان يتلوى كحية تخدر ضحيتها قبل أن تنقض عليها.. انتبه الضّيوف جميعهم بعدَ أن استرعى انتباههم ذلك الأداء الراقص البديع..

مضت العازفات تضربنَ بأصابعهنّ في إيقاع هادئ ومعه بقيٍ الجسد المُمد أرضًا يرقص ويتحرك في خِفة ورشاقة بالغة، حتى توقف الجسد عن الحركة وبدأ في الارتعاش مع صوت دقّات الطّبول التيِ بدا إيقاعها يتسارع شيئًا فشيئًا.. بجأة، اقتربت إحدى العابِدات من الجسد أثناء اهتزازه ونزعت عنه حجابه..

ندّت عن أفواه الضّيوف شهقات الإعجاب والانبهار حينَ بَان الجسد وبات ظاهرًا للعيان بعدَ أن كُشف عنه غطائه، ووقفت صاحبته تتبختر في دلال طاغي، اعتدل الأمير في جِلسته على عرشه بعدَ أن بهته ما رآه، ومعهم فغر «يحّيَ» فاه وفتح عيناه عن آخرهما.. سمع صوت يأتي من خلفه:

- فلتحل علينا الرّحمات، هذا جمال قهّار.

مكتبة عابث الالكترونية

كاد أن يلتفت خلفه ليرى المُتحدث لكنّه سمع من أمامه في القاعة أحد الضّيوف يخرج عن وقاره صائحًا:

- ويلي، لقد ذهب بصري من وهج حسنها الأخّاذ.

التفت «يحْيَى» صوبَ تلك الغادة الحسناء التي ألهب ظهورها المُباغت أفئدة وعقول كلٍ من وقع عليها بصره.. كان أول ما رأى وجهًا نورانيًا مشرقًا به شيء من الاستدارة؛ يحيطه شعر طويل حالك السّواد، ينسدل على كتفين ناعمتين حتّى أسفل ظهرها المُمتد في استقامة بديعة، خداها ظاهرين باحمرارهما كأنّهما حبتا رمّان، فمها رقيق له شفتان مكتنزتان طازجتان، لها أنف رقيق ذو طرف كأنّه خاتم من قرنفل، عيناها دعجاوتان صافيتان، تلوح فيهما نظرة ناعسة حالمة تنظر للأفق البعيد في كبرياء وشمم، يسعى الجميع للفوز بنظرة منهما دون أن يظفر بذلك أحد..

أفاق من نوبة الهيام التي عصفت بعقله حينَ سمع نقر الطّبول يهدأ، رمى نظراته الولهانة صوبها، كانت تتحرك بخفةٍ وأنوثة طاغية توزع دلالها على الضّيوف حينَ شاهدته يرقبها من خلف السِّتار، خُيل إليه أنه رآها تبتسم وتغمز له بعينها ثم أحنت رأسها إلى الأسفل بعدَ أن ثنّت وسطها حتّى انسدل شعرها يلامس الأرضِ في أنوثة طاغية، أخذت تحرّك ردفيها في تناغم وإيقاع مُلهم.. باتت حركاتها وثنياتها تتسق

مكتبة عابث الالكترونية

تمامًا مع نقرات الدّفوف ودقّات الطّبول، حتّى أصبحت لفتاتها وإيماءاتها هي الموسيقى والأنغام ذاتها، تداعب القلوب وتعصف بالعقول.. حرّكت ذراعيها البضّتين حركة دائرية بديعة وهي تعتدل واقفة في دلال وميوعة، مالت بجيدها إلى اليمين قليلاً فارتمى شعرها على كتفها الأيسر في دلال، ثم رفعت رأسها إلى الوراء فانسدل شعرها في الهواء يسترسل على ظهرها في دَعَة وسكينة..

أخذ «يحيى» يتأملها مليًا بعدَ أن اعتدلت بجسدها واقفة أمامه تحركه حركات بارعة ألهبت خيال النّاظرين، كانت ترتدي ثوبًا شفافًا قصيرًا، انحسر قليلاً عمّا فوق نَهدين مُمتلئين نَافرين وما قبل ركبتين مُمتلئتين نَاعمتين بمسافة تَسمح بملاحظتهما، أما جسدها فقد كان حرًا طليقًا كمُهرة جَامحة ترمح في المراعي الشّاسعة الفسيحة..

انتبه على صوت ضرب الصُّنوج بعدَ أن احتدمت الأنغام والإيقاعات فغلب الحضور الطّرب، شاركوا إيقاع الدّفوف تصفيقًا بكفوفهم، اتقدت عيونهم بأنوار من اللذّة الخاطفة.. كانت هي لا تزال ترقص رقصتها الخلابة، يبدع فيها جسدها اللّدن بما يعجز العقل عن تصوره، كانت تحرّك بطنها في ليونة مع تلك الموسيقى الصّاخبة، بدأت في الدّوران حول نفسها

مكتبة عابث الالكترونية

مع تصاعد وتيرة النّغمات ودق الطّبول، حتّى ختمت رقصتها البديعة بأنْ ألقت نفسها تحت عرش الأمير أسفل أقدامه..

ساد القاعة الصّمت لفترة حتّى انتبه الحضور لانتهاء الرقصة فالتهبت أكُفهم من التّصفيق وعلت أصواتهم بالتّحية والاستحسان.. كان الأمير يهز رأسه المُحتجب في سعادة ورضا، على حين كانت سَيّدةُ العَابِدات ترقب الجميع بعدَ أن أيقنت بنجاح مقصدها.. رفع الأمير يده لأحد أتباعه فاقترب على الفور من الفتاة الراقصة، أمسكها من ذراعها بقوة وهو يوقفها، سحبها منه مغادرًا القاعة..

حينَ مَرقت الفتاة بصحبة الحَارس من السّتار الذي يقف خلفه «يَحْيَى»، تلاقت أعينهما لأول مرّة، لمح فيها نظرة تعب وعتب، نظرة تائِهة حائِرة تُكفكف الدّمع قبل أنْ يسقط هازمًا كل جبروت هذا الجمال الطّاغي، نظرة تتألم في صمت، تختبئ خلفَ تلك الأسوار الحصينة من البسمات الزائفة.. انتفض «يَحْيَى» في مكانه بعدَ أن اهتز كيانه لتلك المشاعر التي فاضت بها نظراتها، نسي خوفه وتغلّب على تردده، اندفع نحو القاعة الكُبرى وهو يفتش عن تلك الغِلالة البيضاء التي كانت تلف بها نفسها كي تَستر جسدها، لم يَعره أغلب الحضور انتباهًا بعدَ أن أذهبت الخمر والنّساء عقولهم، لكن عينًا واحدة كانت تُتابعه عن كَثب، كانت سَيّدةُ العَابِدات ترقُبه بعين

مكتبة عابث الالكترونية

كالصّقر، افترّ ثغرها عن ابتسامة ظفر بعدَ أنْ فطنت إلى أنّ الفتاة قد شغلت قلبه..

حينَ مدّ «يَحْيَى» يده إلى الأرض يلتقط ذلك القماش الأبيض فاجأه صوت يأتي من خلفه يقول في دَهْشَة، بحروفٍ ممطوطة من فعل الخمر:

- ما الذي أتَى بك إلى هذا المكان؟!.

التفت نحوه في حدّة، كان رجلاً تبدو عليه أمارات التّنعم والوجاهة، لكنّه لم يتعرف عليه، لم تُسعفه ذاكرته العليلة على تذكّره فبادره بالابتسام وهو يقول:

- معذرة يا سيدي، هل تخاطبني؟!.

ضحك الرّجل وهو يترنّح في وقفته، قال بصوت مرتفع:

- بالطبع أحدثك، ما بالك يا رجل ألا تذكرني؟!.

علت أمارات الحيرة والتوتر وجه «يَحْيَى» بعدَ أن خشي أن يلفت هذا الرّجل انتباه الحضور من حوله، همّ بالرد لكن صوتًا حادًا رفيعًا صاح به من بعيد:

- يَحْيَى، ماذا تفعل عندك؟!، تحرك على الفور إلى الداخل.

مكتبة عابث الالكترونية

تنفس «يَحْيَى» الصّعداء بعدَ مقالة سَيّدةُ العَابِدات الأخيرة، مدّ يده يلتقط الغلالة البيضاء ثم هرول مُغادِرًا القاعة، مُتحركًا صوبَ السّتار الذي كان يختبئ خلفه، أخذ الرّجل يرمقه بنظرات الدَهْشَة والاستنكار، في حين كان قَائد حرس الأمير يراقب الموقف بأكمله، كانت عيناه متقدتان بنظرات الرّيبة والشّك..

حينَ وصل إلى الممرِ الدائِري الطّويل لم يجد ضالّته فيه، تلفّت حوله كالمجنون باحثًا عنها، نظر من إحدى تلك النّوافذ الزجاجية الملونة صوبَ الحديقة الشاسعة، رَآها تحثّ الخطى في إِثْر الحَارِس.. اندفع من فورِه هابطًا الدّرَج الأبيض للمعْبد، ركض مُسرعًا خلفها، حينَ اقترب منها قليلاً صاح بأعلى صوته:

- أيتها الفتاة، أنت، توقفي رجاءً!.

التفتت الفتاة نحوه وقد اعتلت ملامحها علامات الدَهْشَة، دنا منها حتّى بات أمامها، نظر لها بأعين مُبتسمة وقال:

- لقد نسيتي هذا الرداء، لا يصح أن تسيري هكذا.

لم ترد الفتاة وظلّت تنظر في عينيه، لمح في نظراتها امتنانًا وشكرًا وإنْ غيبته غِلالات كثيفة من الدموع.. أفاق على صوت الحَارِس يصيح بها في غِلظة وهو يجذبها من يدها:

مكتبة عابث الالكترونية

- هيا أيتها اللعينة، أتُخالين مولانا الأمير سينتظرك، أسرعي لا وقت أمامنا، لابدّ لنا من تحضيرك قبل دخوله عليك.

أطرقت الفتاة برأسها إلى الأرض في خجل ثم مضت، بقي «يحيى» تنازع نفسه الظنون والهواجس ما بين حالمة وغاضبة.. من بعيد، من خلف إحدى تلك النوافذ ذات الزجاج الملون كانت سيدة العابدات تراقب ما يجري بعين راضية، لاح على وجهها شبح ابتسامة نصر بعد أن أيقنت أنّ سهمها الذي أطلقته قد أصاب قلب الفريسة في مقتل..

****

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

(٧)

.. حمزة ..

وقفتْ «زينب» أمام النّافذة الحجّرية الكبيرة تراقب الطّريق بعينين أعياهما السّهر وأضناهما الإرهاق، تنتظر عودة «حَمْزة».. فمُنْذُ أن غادرها لتنفيذ ما اتفقا عليه من تأديب واجب لعشيرة المغاربة وهي لم تبرح الحجّرة قط.. رافقت القلق وصاحبت السّهد مُنْذ ذلك الحين، جافت النّعاس فأمست لا تغفو إلا قليلاً.. فقط حينَ يغشاها التّعب ويتمكن منها الإنهاك، تخُور قواها فيتساقط جفناها لفترة وجيزة ثم تفيق بعدها منتفضة من غفوتها لتظل متسمّرة بالقرب من النّافذة الحجّرية.. ترسل عيناها الكليلتان نظراتهما المضطّربة، تخترق حُجب الضّباب الكثيف علّها تجد ضالّتها، فلا ترى في الأفق سوى أشباح وأطياف غُرف العَشِيرة..

مكتبة عابث الالكترونية

كانت أيام الضَّباب العشرة قد شارفت على الانتهاء دون أن يعود «حَمْزة»، أو يأتها خبر منه.. طالت مدّة غيبته حتّى باتت لا تجد سببًا مقنعًا تفسر به طول احتجابه عن أهل العَشِيرة.. الكل يسأل عنه ويطلبه، لم يكن غيابه واختفائه المفاجئ بهذا الشكل أمرًا طبيعيًا.. فـ «إبْرَاهِيم الحَكِيم» أرسل في طلبه يدعوه لزيارته أكثر من مرّة، كذلك كان حال «يَحْيَى» الذي سأل عنه كثيراً فلم تجد مبررًا تسوقه إليه سوى أن «حَمْزة» قد أصابته حمّى شديدة من رحلته الأخيرة مع القَافِلة ويخشى على أهل العَشِيرة من انتقال العدوى..

كانت أعصابها قد بلغت حال من التّوتر فقدت معها القدرة على التَّفكير وحُسن التَّدبير.. اعترتها وانتابتها الهواجس حول مصير «حَمْزة»، لفتها وحاصرتها الظُّنون السّيئة من كل حَدب وصوب حتّى باتت تحدّث نفسها بصوت مسموع.

- أتراه لم يتمكن من تحقيق مأربه؟!، أتراه قد ضُبط أو تمّ أسره؟!، اللعنة على تلك العواصف التي توشك أن تذهب عقلي.

هكذا حاورتها نفسها وهي تجوب الحُجرة ذهابًا وإيابًا دون أن تجد إجابة، دون أن تصل لِما يمكن أن يريح بالها ويطمئن نفسها..

مكتبة عابث الالكترونية

«لا أستطيع أن أظل هكذا مكتوفة الأيدي بلا حِراك، عاجزة عن معرفة ما حلّ به، اعملي عقلك يا زينب».. حدّثت نفسها وهي تحاول التّوصل لحل قد يذهب ذلك الرّوْع الذي يكاد أن يفتك بقلبها..

«أحتاج لكسب المزيد من الوقت، لن أتمكن من مُداراة غيبته أكثر من ذلك، لابدّ من التّصرف بسرعة».. حدّثت نفسها مُجدّدًا وقد بدأت تُعمل عقلها للخروج من هذا المأزق، حتّى يعود «حَمْزة» من مهمته..

هداها فكرها بعدَ جهد مُضنٍ إلى وجوب زيارة «إبْرَاهِيم الحكِيم»، التّظاهر بأنّ «حَمْزة» أرسلها للاعتذار عن وعكته الصّحية التي أقعدته عن تلبية طلب الحكِيم بزيارته.. وضعت غطاءًا خفيفًا من القماش على رأسها ثم رفعت أستار الحُجْرة وهي تتحرك بخطوات مُسرعة صوب حُجرة الحكِيم.. على الرغم من خطواتها المُسرعة إلا أنّها كانت تفكر بعمق في تلك الزيارة الثقيلة على قلبها.. كانت لا تكن تجاه الرّجل مثل ما يشعر به «حَمْزة» نحوه.. كان بالنّسبة لها مجرد رجل قوي تمكّن من السّيطَرة على أقوات وأقدار العَشِيرة لقوته وجبروته فيما مضى..

ومضت في ذاكرتها البعيدة لمحة عابِرة من ذكرى باهتة كانت قد طمرتها أسفل تِلال ضخمة من الذّكريَات الغابِرة

مكتبة عابث الالكترونية

فباتت لا تعاودها قط.. لا تدري ما الذي جعلها تطفو على سطح عقلها في هذا التوقيت، تُعكر سماء ذهنها المتعكرة من الأساس بخبيث الهواجس وقبيح الظنُون.. أحسّت بألم عاصف يفتك بمعِدَتها، ندّت عن فمها آهة وصرخة مكتومة، ارتمت على جانب الطّريق تفرغ ما في جوفها وهي تسعل بشدّة.. ظلّت على تلك الحال فترة من الوقت تفصد خلالها جسدها بعرق غزير بارد حتّى استعادت معدتها هدوئها، ومعها تمالكت نفسها قليلاً، تلفّتت حولها ترى إذا ما لاحظ أحد من أهل العَشيرة ما حلّ بها من إعياء.. فرّت دمعة تعسة من عينها رغمًا عنها، إلا أنّها تمالكت نفسها سريعًا ومسحتها عن خدها بكفها في عنف شديد، كانت لا تسمح للضعف أنْ يتمكن منها أبدًا على الملأ بعدَ ما مرّت به في حياتها.. رسمت على شفتيها ابتسامة مهترئة وهي تتكئ على ركبتيها واقفةً ثم تعود أدراجها إلى حجرتها في خطوات متخبطة، ما إن أزاحت الأستار المُوارية لمدخلها حتّى وَلَجَتها تتسنّد على جدرانها من الوَهن والإعياء.. وصلت للفراش فانهارت مقاومتها، ألقت بجسدها عليه تبكي في حُرقة على ما جرى معها وطواه الزمن في سجل النّسيان فلم يعد يذكره أحد..

وقت أنْ كانت طفلة بالكاد بلغت العاشرة من عمرها، بدأت تظهر عليها علامات أُنوثة بسيطة على استحياء بعدَ

مكتبة عابث الالكترونية

أن فاجأها الطّمث.. في ذاك الوقت كان غالبية البَشر قد هلكوا، لم ينج منهم سوى قلّة قليلة.. لم تكن قد عاصرت هي ومن في مثل عمرها ما جرى على الأرض وأدّى لحدوث ذلك، لكنها رأت وعايشت ما هو أعظم وأخطر.. بات خطرُ الزوال والانقراض يهددهم ويشكل خطراً محققاً على بقاء جنسهم.. كان معظم الرّجال تحديداً قد ماتوا أو فُقدوا، لم يعد باقياً في العَشِيرة منهم سوى نُدرة..

آنذاك، لم يجد البَشر حلاً للخروج من هذا المأزق الخطير سوى التكاثر والتّناسل دون تمييز بينهم، فقط لضمان بقاء النّوع.. عطّلوا الشّرائع التي كانوا يعتنقونها فيما مضى، تغاضوا عن الأعراف والعادات التي شبّوا على احترامها.. أصبح من حق أي رجل أن يستمتع بأي أنثى دون أدنى رابطة فيما بينهما.. لا يهم مَنْ يأتي مَن أو مَنْ يستحل مَنْ، فقط النّجاة وبقاء النّوع هو ما يهم..

لازالت تذكر أمّها وقت أنْ اقتادها أحد الرّجال كي يستمتع بها ويودع نطفته في جوفها، كانت ترى نظرات الخوف والجزع بادية على محياها وإنْ كانت تحسّ بتماسكها الشّديد وإيمانها الرّاسخ بقداسة ما تفعل.. كانت أمّها معتدلة في مزاجها، معتدلة الحال في رحمها لم تجاوز الثّلاثين من عمرها في ذلك الوقت، ليست بالقصفة اليابسة ولا باللينة مسترخية

مكتبة عابث الالكترونية

الأعطاف، سهلة النّظر معتدلة العقل، وجهها يبدو مبتسمًا دائمًا، واسعًا خصرها وبطنها.. لذا فقد كانت امرأة ولود، كثرت خلفتها مما رغب فيها الرّجال أكثر.. حتّى أعياها كثرة الحبَل والوِضع فبات جسدها عَليلاً هزيلاً، لا يرغب فيه رِجال العشيرة، ساءت حالتها وباتت لا تغادر حُجرتها إلا فيما ندر..

تذكّرت ذلك اليوم الذي استيقظت فيه أمّها شاحبة باهتة لا تستطيع الحركة كعادتها، أخذت تحدّثها عن أهمية المرأة ودورها المقدّس في هذا الزمان.. كيف أنّها هي المعين الذي قدرته السّماء لبقاء جنس البَشر، كانت تُعدها للقيام بدورها الذي سيحين حتمًا عمّا قريب.. كان حديثها غير مُقنعًا، لذا فقد أخذت «زينب» تشرح لها مخاوفها وهواجسها من هذا الأمر.. وأنّها لا تستسيغ هذا الفعل دونَ أن تُكِنّ شعورًا نبيلاً وحبًا حقيقيًا لمن تفعل معه ذلك، وإلا فما الفارق عندئذٍ بينها وبين بهيمة الأنعام!!.. أخبرتها عن حلمها في أن ترتبط برجل نبيل، فارس قوي يوفر لها الحماية، يغمرها بوافر الحب والحنان.. ظلّت تحدّثها طويلاً عن أحلامها وآمالها حتّى تعبت من كثرة الحديث.. أخبرتها عن أنّها لا ترى فيما تفعله هي وسائر نساء العَشيرة أي واجب مقدس بل تراه أقرب للمهانة والهمجية..

مكتبة عابث الالكترونية

اعتراها النّدم وشعرت أنها قد أخطأت في حق أمّها بعدَ أن وجدت منها صمتًا تامًا.. التفتت نحوها وانحت على يدها تُقبّلها معتذرة.. إلا أن يدها كانت باردة، حينَ رفعتها بالقُرب من فمها لم تجد لها دفئًا، كانت متخشبة لم تلمس فيها لينًا.. تركتها فسقطت تهوي بجوار جسدها، هزتها من كتفها، نادت عليها مرارًا حتّى بُحّ صوتها لكن بلا مُجيب.. دفنت وجهها في صدرها وأخذت تبكي بمرارة وحرقة.. لكنّها كانت تبكي دون صوت.. أصبح بكائها صامتًا..

بعدَها تكفّل «إبْرَاهِيم الحَكِيم» بوصفه كبير العَشيرة وقَائدها، برعايتها كما تكفّل بالعديد من أبناء وصغار العَشيرة حينَ رحل أباءهم، كما تقضي بذلك أعراف وتقاليد العَشِيرة التي سنّها هو بالطبع.. كانت في ذلك الوقت تظهر له كل مظاهر الودّ والتّوقير لما تراه من اهتمامه البالغ بهم، الحِفاظ عليهم ورعايتهم.. حتّى كان ذلك اليوم الذي لا تزال ذكراه اليابسة محفورة بقسوة في أغصان شجرة طفولتها الخضراء..

ابتسمت في مرارة وحنق حين تذكّرت ما كان معها.. كانت في هذا اليوم ممدة برفقة مجموعة من الفتيات الصّغيرات على فراش بسيط في حُجرة صغيرة متواضعة ملُحقة بحجرة «إبْرَاهِيم الحكِيم» أعدّها ضمن حُجرات عديدة مُخصصة لرعاية صغار أبناء العَشِيرة.. كان الحَكِيم يكفلهنّ جميعًا في الظّاهر،

مكتبة عابث الالكترونية

لكنّه في حقيقة الأمر كان يَعدّهنّ لغرض خاص في نفسه..
أفاقت من نومها على يده تربت على فخذها برفق وهو يوقظها،
حينَ رأته ابتسمت في براءة.. أخبرها أنه يريدها لأمر لا
يصح مناقشته أمام باقي الفتيات، أمسكت يده وهي تتبع
خطواته الواسعة الواثقة حتّى وصَلَا إلى تلك الشّجرة النّائية
في ركن قَصي خارج حدود العَشِيرة..

مازالت تذكر ذلك الطّقس السيء في هذا اليوم المشئوم،
كانت السّماء مُلبّدة بالغيوم تنذر بوابل من العواصف
والسّيول.. ربما يكون ذلك اليوم هو السّبب في كراهيتها للآن
لمثل هذا الطقس..

اقترب منها الحكِيم بهدوء وهي لا تزال تحافظ على تلك
الابتسامة البريئة، لكن نظرة ما لم تكن تدري معناها لمعت
في عينيه سببت لها خوفًا خفيًا، انقباضة شديدة في أمعائها..
طبع قُبلة حَانية على مُقدمة رأسها ثم ربَت على صدرها
الصغير، أسند ظهره على جذع الشّجرة الضّخم وهو يفترش
الأرض جالسًا ثم أجلسها على فخذيه، يداعبها ويهدهدها.. بدأ
يمسح بكفه الخشِن الضّخم على رقبتها بحنان، ثم فجأة انقضّ
عليها يقبّلها في نَهم وشَبق شديدين..

لم تفهم سرّ هذا التّحول المُخيف في سلوكه آنذاك، لكنّها
عرفت ماهيته حينَ ألقاها على ظهرها وباعد ما بين قدميها

مكتبة عابث الالكترونية

عنوة، همّت بالصّراخ لكنّه جثم فوقها بثقله، كتم فمها بكفه الضّخم.. تأففت باشمئزاز حين تذكرت رائحة عرقه، تلك الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث من جسده..

وضعت كفيها على أذنيها تمنعهما من تذكّر صوت أنفاسه اللاهثة، أغمضت عينيها في قوة محاولة النّسيان.. لكن ذكرياتها التي روتها دموع الألم أبت أنْ ترأف بحالها وتمهلها، عاودت نهش روحها بقوة وذكّرتها بما حدث حينَ رفع ثوبه ثم اندفع بقوة هاتكًا سرها المَصون، مُخترقًا كهفها العَفيف.. كان ألمها في ذلك الوقت عاصفًا، يفوق براءة سنوات عمرها بمراحل بعيدة، كفيلاً بجعل امرأة متمرسة تصرخ عاليًا.. لكنّها لم تكن تجرؤ على إصدار صوت، أي صوت ولو ضئيل.. لم تكن تستطيع حتّى ولو مجرد الاعتراض على ما يفعل، تحمّلت ما أصابها دونَ أنْ تفهمه في صمت عاجز.. فقط اكتفت بالبكاء الصّامت من جديد..

حينَ فرغ من فعلته وسكبَ ماءه في جوفها، قام من فوقها يتقاطر العرق من جسده الضخم وهو يلهث مصدرا صوتًا أقرب للخوار.. نظر لها مليًا يتأمل ملامحها الدّقيقة ثم ربَت على كتفها ومسح على رأسها بحنان، منحها برتقالة أخرجها من نطاقه، اكتفى بأنْ طمأنّها أنه لا خوف ممّا جرى معها.. أعلمها أنّ هذا هو دورها المُقدّس الذي يجب أنْ تؤديه

مكتبة عابث الالكترونية

وتستمتع به، أخبرها أنه يكفيها فخرًا أنها ستحمل بذرة ذرية «إبْرَاهِيم الحَكِيم».. مُنْذُ ذلك اليوم أصبحت تلك الفِعلة عادة مُحببة لديه، أنَّى شاء أيقظها من نومها وكرّرها معها..

لم تكن تدري سبب رغبته في ذلك الفعل المؤلم لها على الرغم من تمتعه بالكثير من النّساء اللاتي يكبُرنها في العمر والخبرة، يتمنين أن يفعلنَ له ما يرضيه.. ظلّ على تلك الحال فترة من الوقت لا تذكر عدّتها، حتّى تيقّن من عقمها وجفاف رحمها فلفظها خارج حُجرته ولم يعد يمسسها.. وإن ظلّ يكفلها..

غادرتها تلك النّوبة المشؤومة من الذّكريَات المُخزية مخلّفةً وراءها زوبعة عاصفة من الأحزان، تركتها متكومة في جانب قَصِي من الحُجرة تفترش أرضها كغصن تيبس بعدَ أن جفّ عوده.. تنتحب في حُرقة بالغة، ينتفض جسدها بشدّة، كَفاها يرتعشان في عنف وهي تحاول أن تمسح دموعها المُنهمرّة.. لكن لم يكن لبكائها صوت، كانت كالعادة تبكي في صمت العاجزين..

شيئًا فشيئًا تمكّنت من السَّيطَرة على أعصابها، التي شارفت على الانهيار بعدَ أن داهمتها تلك الذكرى الأليمة، وقفت على قدميها واستجمعت قوتها بعدَ أنْ تذكّرت أنّ «حَمْزة» لا يزال يحتاج إلى مساندتها الآن.. عدّلت من وضع

مكتبة عابث الالكترونية

ثوبها وغطاء رأسها متجهةً صوبَ باب الحُجرة.. قبل أن تتجاوزه توقفت قليلاً وهي تفكر، صرّت على أسنانها بعدَ أن لمعت في رأسها فكرة جنونية.. التفتت تفتّش بعينيها في أرجاء الحُجرة، تبحث عن شيء ما.. ومضت عيناها ببريق مُخيف حينَ وقعتا على خنجر معدني يخص «حَمْزة»، يلمع نصله وسط الضّباب الكثيف الذي خيم على عقلها كما خيم على الأجواء من حولها.. دون تردد، مدت كفها تلتقطه ودسته بين طيّات ثوبها حتّى بات خفيًا عن الأنظار ثم تحركت في اتجاه حجرة الحكِيم..

حينَ بلغت وجهتها تأكدت من تمام خفاء ما دسته بين طيات ثوبها قبل أن تستجمع شتات نفسها وتمد يمينها ترفع أستار باب حجرة الحكِيم.. كانت حجرته غارقة في ظلام لا يفرق عن تلك الحالة التي سببها الضّباب خارجها.. اللهم إلا ضوء خافت مصدره قنديل قديم بجوار فراش الحكِيم، يشعّ نوره على استحياء من شعلته التي أوشكت على الخبوت.. رأته على هدي ذلك البصيص الخافت جسدًا خامدًا، يرقد مستسلمًا بلا حِراك.. لا يمكن معرفة أنه مازال حيًا سوى من حركات صدره الوَهِنة، المُتابعة صعودًا وهبوطًا..

- مرحبًا سيدتي زينب.

مكتبة عابث الالكترونية

انتفض جسدها من الرّعب وتسمّرت في مكانها حين سمعت تلك العبارة.. التفت صوبَ قائلِها، كان واحدًا من الخدم المخصصين لرعاية الحكِيم والقيام بشئونه في أثناء مرضه..

تمالكت نفسها سريعاً، شدت قامتها وهي تقول:

- كيف حال سيدي الحكِيم اليوم؟.

أجابها الخادِم:

- ليس على ما يرام سيدتي، لا نملك سوى الدّعاء له، وطلب الشّفاء من السّماء.

هزّت «زينب» رأسها موافقة ثم سألته وهي تشير برأسها في اتجاه الحكِيم:

- أنائِم هو هكذا طوال الوقت؟.

أجاب الخادِم:

- لا ندري متى يفيق أو يغفو سيدتي.

ضاقت حدقتاها وهي تجوب بنظرها المكان تفتش عن وجود آخرين، قالت:

- هل هناك أحد آخر معك يخدمه؟.

أجاب الخادِم:

مكتبة عابث الالكترونية

- سيدي يحيَى قد أوكل لي ولآخر مهام خدمة سيدي الحكِيم، نتناوب الأمر فيما بيننا، الآن تحين نوبتي في الخدمة.

تنفست «زينب» الصّعداء ثم قالت بلهجة آمرّة:

- حسناً، أتركني الآن مع سيدي الحكِيم، أرغب في الدّعاء له وحدي دون أن يشتّت ذهني أو يقاطعني أحد.

تحرك الخادِم من فوره مطيعًا، غادر الحُجرة وهو يقول باحترام جمّ:

- أمرك سيدتي.

اقتربت من الفراش بخطوات مُضطّربة، تصارعت في نفسها كل الأفكار والظّنُون.. دَنت من جسد الحكِيم السّاكن، ضاقت حدقتاها وهي تتأمل وجهه على ضوء القنديل الباهت.. كان وجهه شاحباً للغاية، تبدو عليه علامات السّكينة والوقار.. جزّت أسنانها في غضب وهي تحدّث نفسها:

- لن تنال رحمتي أبدًا، حتّى إنْ خَمدت أنفاسك وسكنت حركاتك أيُها الذّئب العجوز.

مكتبة عابث الالكترونية

مدّت يدها تخرج الخنجر من بين طيات ثوبها، لكنّها انتفضت مذعورة حين فتح الرّجل عينيه فجأة.. نظر ناحيتها طويلاً ثم ابتسم في هدوء.. كانت نظراته خاوية تمامًا كأنّه ينظر إلى لا شيء، لكن انكسار جفنيه وتهدل حاجبيه كانا يشيَان بما يعانيه من ألم وإعياء.. أخرج يمينه من أسفل الغطاء مادًّا كفه يتلمس الطّريق نحوها، أخفت الخنجر بيسراها في حين مدّت كفها الأيمن تلتقط يده.. قبض على كفها بقوة خُيل إليها معها أنه قد استعاد عافيته، ارتجف كفها بشدّة بين قبضته.. اتّسعت ابتسامته حينَ شعر بارتجافها وخوفها، خرج صوته واهنًا ضعيفًا حينَ قال:

- ما زلت صغيرة يا زينب.

لم تحر جوابًا فلم ترد وكأنّه لم يقل شيئًا، فقط اكتفت برسم ابتسامة باهتة على محياها الذي اعتراه الارتباك الشّديد.. أغمض الرّجل جفنيه وهو يقول:

- لم أتوقع رؤيتك تودعيني، كنت أحسب أنك مازلتِ غاضبة ممّا قد كان مني.

أشعلت كلماته نيران غضبها مُجددًا، همّت أنْ تطعنه بالخنجر لكنّها لم تفعل.. لم تطاوعها يدها، أصدرت لها الأمر بالتنفيذ.. لكنّها لم تفعل..

مكتبة عابث الالكترونية

- لتبتلعني أعماق الأرض أو لتحرقني حِمَم الجحيم، مالي ضعيفة لهذا الحدّ؟، الآن ساعة الانتقام، لِمَ لا أجرؤ على قتله؟، هو من الأساس ميت، قتل براءتي وأنا أستقبل الحياة دون شفقة فكيف لا أقو على قتله وهو شِبه ميت؟، اللعنة على الجُبناء.

حدّثت نفسها وهي تصرّ على أسنانها من الغيظ..

سعُل الرّجل بشدّة ثم تنهد تنهيدة طويلة التقط بها بعضًا من أنفاسه المتقطعة وهو يقول:

- أوَ تدرين يا زينب، عند المرض تكون أحلام المرء أكثر حدّة، ينكشف عنّا الغطاء فتنجلي بصائرنا بصورة عجيبة عند الوقوف على عتبات الموت، نرى الصّورة على الرغم من تفصيلاتها الكثيرة المُرهقة أكثر وضوحا.

- هه، ما زلت تحاول التظاهر بتلك الحكمة التي خدعت بها الجميع، لكن هيهات أنْ تَنطلي عليّ تلك الخدعة من جديد.

حدّثت نفسها وهي تحاول سحب كفها من قبضته بهدوء، لكنّه أحكم إغلاقها حوله وأكمل قائلاً:

مكتبة عابث الالكترونية

- بتُّ أعلم أنْ نهايتي قد حانت، وأنا كما تعلمين لا أهاب الموت، لكن ما يعذبني هو ما أحسّه ممّن حولي، فمن هم على شاكلتي لا يوقظ قلوبهم سوى تلك الأحاسيس اللعينة التِي يلمسونها حال مرضهم، تلك الشّفقة البغيضة، حينَ أشعر بشفقة البَشر نحوي دون أن يوبخني أحد علىٍ ما فعلته فيما مضى، ذلك يا زينب هو العذاب حقًا لمن هو مثلي.

لم يهتز لها جفن من جراء حديثه الذي ظنّت أنه به يلتمس منها الغفران، بل على العكس اتقدت في داخلها ألسنة الرغبة فِي التّشفي والانتقام، قالت تُحدّث نفسها بعدَ أن أعياها التردد:

- كُفي عن ذلك التردد اللعين، فلتذهب كل تلك المخاوف الوهمية إلى الجحيم، ألا ترين أنه قد أصبح جسدًا خاويًا خامدًا، هيا أزيحي عن كاهلك أطياف تلك الذّكريَات البائِسة لكي تمكني من مواصلة حياتك.

سحبت كفها من قبضته فجأة واستلّت خنجرها من جديد.. رفعته فوق صدره عاليًا بعدَ أن أمسكته بكلتا يديها وهي تهم بطعنه تلك الطعنة التِي تنهي بها حياته، تنتهي معها كوابيسها وهواجسها.. فتح الرّجل عينيه ناظراً في اتجاه

مكتبة عابث الالكترونية

الخنجر المُشرع صوبَ صدره فأصابتها رعشة شديدة ارتجّ معها جسدها الضئيل بأكمله.. فجأة، تسمّرت يداها في الهواء وتوقفت عن إتمام فعلتها.. أمعنت النّظر إلى وجه الرّجل، انتبهت من خلال ضوء القنديل الباهت إلى أن عيناه ثابتتان على نقطة واحدة وأنه لا يرى الخنجر، علمت أنْ المسكين فقد قدرته على الإبصار.. مدّ يمينه مجددًا يبحث عن كفها الذي سحبته.. لا تدري ما أصابها حينَ اكتشفت كف بصره، وضعت الخنجر في يسراها ثم ناولته يمينها من جديد.. سمعته يتنهد في ارتياح حينَ لامس كفها قبضته، قال بعدَ فترة بصوته الخافت الباهت:

- لا أعلم لِمَ تتراءى لي أفعالي الماضية الآن جرمًا بغيضًا، بتّ لا أجد فائدة ممّا اقترفت يداي، أصبحت لا أجد معنى لكل هذا الصّراع الذي خضت غماره، تحوّلت بسببه وخلاله إلى مسخ دميم، أرغب دائمًا في الحصول على المزيد، أطربتني كلمات الإطراء وسعي البَشر خلفي وطلبهم مشورتي ونصحي، أصبحت الحياة بكل لذاتها غير كافية بالنسبة لي، لعلّي الآن أعتقد أن جرمي الأعظم أني ظننت أنه يحق لي ما لا يحق لغيري.

مكتبة عابث الالكترونية

لم تجبه «زينب» أو تَرد عليه، اكتفت بالاستماع إلى الاعتراف الأخير لرجل كان يَدَّعِي في سالف الأيام بأنّه حكيم.. هدأت أنفاس الرّجل قليلاً وسكنت حركاته حتّى ظنّت أنه قد فارق الحياة.. لكنّه ما لبث أن فتح جفناه من جديد، زاد من شدّة قبضه على كفها وهو يجذبها نحوه لكي تقترب من فمه.. قال لها بصوت متهدج ازداد وهنه:

- اعلمي أنّي أحب حمزة حباً جماً، وأودّ أن أكفر عن خطاياي نحوك، لذا فقد قرّرت أن أترك لكما الحياة تستمتعان بها دون أن ينغصها عليكما شيء، لقد قررت أن أُوصي بأنْ يخلفني من بعدِي يَحيَي.

عادت بظهرها إلى الوراء في حدّة بعدَ أن صدمتها كلمات الرّجل بشدة.. وسوست لها نفسها بعدَ أن شَرد ذهنها في الاحتمالات المُختلفة التي أيقظتها داخلها كلمات الرّجل:

- لقد عاد الملعون لألاعيبه القديمة، ها هو ذا يقتل حلمي من جديد، لن أسمح له بقتل آمالي وأحلامي مُجددا.

أفاقت من شرودها على صوته الوَهِن يقول وهو يربُت على كفّها:

مكتبة عابث الالكترونية

- وأنا أعتمد عليك يا زينب أن تقفي بجانب حمزة تشدي من أزره، سيكون هذا القرار صعباً على نفسه، لكني أثق أنكما معًا ستتمكنان من تجاوز صعوبته.

أنهى «إبراهيم الحكيم» عبارته الأخيرة ثم ربت على كفها الصغير بعد أن تركه، أشار لها بكفه في وهن أن تغادر، أغمض جفنيه ودخل في سبات عميق.. غادرت «زينب» الحجرة ذاهلة عن كل ما حولها، لا تدري كيف السبيل للخروج من هذا المأزق.. لا يمكن أن تسمح بحدوث أمر مثل ذلك.. لقد خرف الرجل بعد أن هرم وأذهب المرض عقله.. كيف واتته الجرأة أن يوكل الأمر إلى «يحيى» دون «حمزة».. حقًا إن «يحيى» لا يقل شجاعة أو جسارة عن «حمزة»، لكن الأخير هو المحرك الأساسي والباعث الرئيسي علي القوة في العشيرة.. كانت طوال الطريق من حجرة الحكيم حتى حجرتها تفكر في طريقة تمنع بها هذا الأمر من التحقق.. حينما دخلت الحجرة ألقت الخنجر جانبًا في حدة ثم نزعت غطاء رأسها في عنف وهي تصرخ كالمجنونة:

- سحقًا لك أيها المأفون، ما بالك تصر على حرماني من كل شيء.

مكتبة عابث الالكترونية

مضت تبرح الحجرة ذهابًا وإيابًا وهي تزوم وتزمجر كالنمرة الحبيسة، حتى أعياها التعب فسقطت على الأرض وهي تصرخ:

- تبًا لك.

- ما الأمر حبيبتي؟!.

انتبهت من تلك النوبة المخيفة التي أصابتها على صوت «حمزة» يقول عبارته السابقة في حنان بالغ.. كان يقف على مدخل الحجرة مرتديًا درعه وقد تلطخ بالدماء، انتفضت واقفة على قدميها ثم اندفعت نحوه ترتمي بين ذراعيه وهي تنتحب وتبكي بصوت مرتفع.. ربت على رأسها ومسح على شعرها بحنان وهو يقول بنبرة قلقة:

- ماذا حدث؟!، أخبريني بحق السماء.

شرعت تكفكف دمعها بيدها وهي تنظر لوجهه في حب وتقول:

- لا شيء، لا شيء، فقط أخبرني هل نجحت في مسعاك؟!.

ارتسمت على ملامحه علامات الفخر وقال مبتسمًا:

- هل لديك شك في قدرات محبوبك.

مكتبة عابث الالكترونية

هزّت رأسها نافية ثم قالت:

- كلا بالطبع، فأنت حبيبي وسيدي، لا أعرف في الكون سِواك، لكن فقط أشتاق لسماع تفاصيل ما جرى.

أزاحها «حَمْزة» جانبًا برفق ثم أجلسها على الفراش، اعتدل بعدَها في وقفته فاردًا قامته ثم قال في لهجة مسرحية:

- انتقيت بعضًا من الرّجال الثّقات ثم تحركنا نبتغي أرض المغاربة، وصلناها بعدَ مسيرة يومين في الضّباب الكثيف، تربّصنا بالقوم وانتظرنا حتّى خلَدوا إلى النّوم ثم انقضضنا عليهم في غرفهم كالصّواعق الحارقة، أعملنا فيهم القتل والتحريق حتّى رأيت كبيرهم على مسافة قريبة يحاول أن يجمع حوله الرّجال، انبريت له مُبارزًا حتّى صرعته، حززت عنقه فاصلاً رأسه عن جسده، غرزت الرأس فوق مُقدمة سيفي ثم صرخت فيهم أن يستسلموا، لاذَ الكثير منهم بالفِرار من هول ما لاقوه واستسلم آخرون، لم نأخذ منهم أسرى بل قتلنا كل من استسلم من رجالهم، جمعنا الرؤوس ثم قصدنا أرض المشارقة، حينَ وصلناها كان الإجهاد قد بلغ منا مُنتهاه، أهديناهم رؤوس المغاربة، ضيفونا ليومين وبالغوا في إكرامنا بعدَ أن

مكتبة عابث الالكترونية

وَعوا الدّرس جيدًا، أصبح الكل يعلم أنه لا أحد يجرؤ على معارضة مشيئة الوسَطيين، أصبحوا موقنين بأنّه لا سيد إلا حَمْزَة.

أنهى حديثه ثم التفت ناظرًا لوجهها، كانت شاردة النَّظَرات كأنّها لم تسمع شيئًا من مقالته.. اقترب منها ثم جثا على ركبتيه أمامها، أمسك رأسها بكفيه في حنان، قال وهو يغمرها بنظرات الشّوق:

- ما الأمر يا حبيبتي؟، لم لا تبدو على وجهك أمارات السّعادة؟، أليس هذا ما اتفقنا عليه؟!.

ارتسمت على ملامحها علامات الحسرة وهي تقول:

- السّعادة!، وماذا تعني تلك الكلمة لمثلي؟، لقد نشأت أتلقى أبشع الضّربات والمصائب حتّى بتّ لا أُبالي بما يحدث لي، حتّى الأبناء ضنّت بهم عليَّ السّماء فأصبحت عقيمًا، جسدًا أنثويًا نضرًا في الظّاهر لكن باطنه يُخبِئ رحمًا يابسًا.

قبّلها في فمها بحب بالغ وقال بعدَ أن غمرها بنظرات العشق والهوى:

- هَوني عليك يا حبيبتي، يكفيني حُبك وحده عن كل النّعيم.

كأنّه لم يقل شيئًا، تجاهلته تمامًا وهي تقول كأنّها تُحدّث نفسها بصوت مسموع:

- حتّى حلمي الأخير بأن أتمتع معك بسيادة هذه العشِيرة تبدد، بات سرابًا باهتًا.

انتفض «حَمْزة» واقفًا بحدّة وقال بلهجة غاضبة:

- ماذا تقولين؟!، لن أسمح لأحد بأنْ يسلُبنا حلمنا، لقد ارتكبت مجازر لم أكن أتصور أن أفعلها في سبيل تحقيق هذا الحلم، من أجل الوصول لهذا الأمل.

رَمته «زينب» بنظرة باهتة وهي تقول بنبرة مُتحسرة:

- إذن فلتنس كل ما فعلته، لتنس كل أحلامك وآمالك فقد ولّت بغير رجعة.

ازداد غضبه وهياجه وهو يقول:

- بحق السّماء لاقتلنّ مَن يفكر في سلبنا هذا الحلم.

لمعت عيناها ببريق مُخيف حينَ رمقته وهي تقول:

- إذن فلتفعل إنْ استطعت.

جذبها من ذراعها بعنف يوقفها أمامه بعدَ أن أعماه الغضب من سوء كلماتها، صاح في وجهها بحدّة بالغة:

- وما يمنعني يا امرأة؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

خلصت ذراعيها من قبضته القوية ثم ابتعدت عنه وقالت بضيق:

- لقد قرّر الحكِيم أن يوليَّ قيادة العَشِيرة من بعدَه ليَحْيَى.

امتقع وجه «حَمْزة» وجفّ ريقه، خَارت قواه لِجأة بعد أن نزل الخبر على رأسه كالصّاعقة، جلس على حافّة الفراش، أخذ يردد في ذهول:

- إذن فقد فعلها كما قال.

اقتربت «زينب» من وجهه، احتدّت عليه وصاحت بجنون:

- ماذا!!، هل أخبرك عن نيته تلك من قبل؟.

أومأ «حَمْزة» برأسه في حسرة وقال بنبرة باهتة:

- نعم، لكنّي لم أظن أنه سيفعلها، كنت أحسبه يختبرني فقط كعادته.

ساد الصّمت بينهما بعدَ أن أصابهما الوجُوم لفترة من الزّمن طالت حتّى بات من المُتعذِر عليهما حسابها.. حتّى قطعت «زينب» حاجز الصمت وقالت بنبرة خافتة:

مكتبة عابث الالكترونية

- لابدّ لنا من التّصرف فوراً، لا يمكن أن نسمح بإتمام هذا الأمر.

قال «حَمْزة» بنبرة مُستسلمة:

- وما يمكننا أن نصنع، تعلمينَ أن الحكِيم إذا ما قرر شيئاً فلن يعدل عنه أبداً.

حدَجته بنظرة ازدراء ثم قالت في حدّة:

- أتراك ما زلت تَهابه؟!.

تجنّب النّظر في عينيها وقال بصوت باهت:

- إنه سيدي إبْرَاهِيم الحكِيم، كفلني ورعاني، علّمني كل ما أعرف، ليس خوفاً لكنّه توقير وتبجيل، تعلمين أنّي ما ارتكبت تلك المذابح إلا سعياً لنيل رضاه.

أشاحت بوجهها عنه وهي تقول بصوت غاضب:

- تلك هي مشكلتك الحقّة، فأنت أكثر رحمة ممّا ينبغي، فهذا النّبل الذي تدّعيه سيحول بينك وبين تحقّيق مرادك.

رفع رأسه نحوها وهو يقول مُستنكراً:

- وهل في حفظ الفضل لصاحبه ما يعيب الرّجل؟!.

ابتسمت في سُخرية وهي ترمقه بضيق، قالت:

مكتبة عابث الالكترونية

- أنت تريد المجد والسّلطة، لا تخلو من الطّموح الجامح ولا الموهبة اللازمة لتحقيق مرادك، لكنّك ترفض مصاحبة الشر الذي حتمًا يكون لازمًا لتحقيق هذا المجد.

بُهت «حَمْزة» من مقالتها الأخيرة غير أنه آثر التزام الصّمت في حين أكملت هي حديثها:

- تريد نيل المعالي دونَ أن ترتكب ما يخلّ أو يُنقص من نُبلك، تلك الصّورة التي رسمتها في أذهان وخيال أهل العَشيرة، تريد أن تستحوذ على كل شيء دون أدنى غِش أو خداع، تطمح للوصول إلى درجة علية، تناشدك أن تُقدم على ارتكاب فِعلة معينة من أجل الوصول إليها، لكنّك تأبى فعلها.

تحدّث «حَمْزة» بعدَ طول صمت بنبرة مستكينة:

- وما هي تلك الفِعلة؟!.

تصلّبت قسمات وجهها حينَ لمعت عيناها ببريق مُخيف وهي تقول بصوت بدا كالفحيح:

- نقتل إبْرَاهيم الحكِيم.

انتفض واقفًا وهو يصرخ في وجهها:

مكتبة عابث الالكترونية

- صَه يا امرأة، لا يمكن أنْ يصدر هذا الكلام الملعون من لسانك العفيف، محال أن تفكر روحك البريئة في مثل تلك الأفعال الشيطانيّة.

لانت ملامحها واقتربت منه في نعومة، قالت في عذوبة:

- لساني العفيف لا يمانع إنْ لطخته في سبيل الدفاع عن حلمك، روحي البريئة على أتم الاستعداد لأنْ ترتكب أفدح الآثام فداءًا لك.

ابتعد عنها في جزع وقال بنبرة فَزِعه:

- لن نكمل هذا الحديث، لن أمضي في تنفيذ ما تقولين، لا أستطيع، لا أستطيع.

رمقته شَزرًا وهي تقول:

- أكان الذي راود خيالك إذن أملاً زائفًا؟،أم تُراك تريد نيل مبتغاك وتقنع رغم هذا بحياة الجُبناء، لا تنفك تردد كالضُعفاء لا أستطيع لا أستطيع، شأن الليث الذي يرغب في افتراس غزالة لكنّه يخشى أن تلطخ أنيابه الدّماء.

جلس من جديد على طرف الفِراش دافنًا وجهه بين كفيه وهو يقول:

مكتبة عابث الالكترونية

- كفى، توقفي أرجوك، لديِ الشّجاعة لأن أفعل كل ما هو خليق بالإنسان أنْ يفعله، لكن ذاك الذيِ تطلبين لن يتركني من بعدَه إنساناً، لقد أكرمني الرّجل وأحسن مثواي، لا أستطيع أرجوك.

تحركت في اتجاه النّافذة الحجّرية وقالت:

- من الآن فصاعداً أصبح بين روحينا حجاباً غليظًا، لن أرى حُبك كما كان أبداً، سأراه جباناً خانعاً تماماً كصاحبه.

رفع رأسه ناظراً إليها وقال راجياً:

- أرجوك توقفي، أتدرين ما ترغبين في تحويلي إليه.

حدَجته بنظراتها المُستعرة وهي تقول:

- أُحولك!!، عن أي شيء تتحدث؟!، إذن فأي وحش هذا الذي كان على استعداد لقتلِ كل عشيرة المغاربة لتحقيق مراده، كنت رجلاً حين كانت لديك الجرأة والشّجاعة على تحقيق مُبتغاك، وستكون أكثر رجولة إنْ فعلت ما من شأنه أن يكمل ما بدأت، ما بالك قد أصابك الخوَر والوَهن عندما حانت أمامك الفرصة لتحقيق حلمك.

أطرق برأسه إلى الأسفل وهو يقول بصوت خافت:

مكتبة عابث الالكترونية

- وماذا إنْ فشلنا؟!.

تهللت أساريرها ولمعت عيناها ثم اقتربت منه ببطء شديد، جثت على ركبتيها أمامه ودفنت رأسه بين طيات صدرها، مسحت على رأسه في حنان وهي تقول:

- احزم أمرك ولن نفشل حينها أبدًا.

****

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

(٨)

.. يحيى ..

رانَ السّكون على أرجاء المَعْبَد وسكنت الحركة فيه تمامًا بعدَ أن تجاوز الوقت منتصف اللّيل، خَلد الجميع إلى سُبات عميق عدا «يَحْيَى» الذي غادر فراشه قلِقًا يكابد ما استبدّ به من أرق وسهد.. كانت أيام الضَّباب العشرة قد شارفت على الرحيل إيذانًا بحلول أيام الظَّلام العشر، بعدَ أن تركت في نفسه المزعزعة ظلالاً باهتة كثيفة تماثل ذلك الضَّباب الكئيب الجاثم على أجواء الأرض..

كان القلق قد استحوذ على كيانه فبات قانطاً يائسًا من مرافقة النّوم، فقد مرّت سبعة أيام كاملة دون أنْ يراها أو يسمع منها.. فمُنذُ أنْ هامت بها عيناه في ذلك الاحتفال الكبير، تلاقت نظراتهما للمرّة الأولى فباحت له عيناها بمكنون روحها لم يقع بصره عليها ولو مصادفة..

مكتبة عابث الالكترونية

غادر غرفته بعدَ أن تملّكه السّأم والضّجر، مضى يبرح الممّر الطّويل أمامها جِيئة وذهابًا.. بعدَ فترة وجيزة استَند إلى الحائط بجوار إحدى تلك النّوافذ الضَّخمة، يصوّب بصره عبر زجاجها الملون نحوَ السّماء إلا أنّه ارتدّ إليه خائبًا بعدَ أن منعه الضَّباب الكثيف من اختراقه.. تأفّف في ضيق وهو يتساءل:

- هل يستطيع هذا السّكون المُطبق أن ينزح عن رأسي ذلك الضّيق والضّجر اللذان ما فتئا يعصفان به؟، لا أريد لتلك النّوبات اللعينة أن تزلزل كياني من جديد.

كانت نوباته الحادّة قد خفت حدّتها أو تكاد تكون توقفت تقريبًا، بعدَ أنْ أنعمت عليه سَيّدةُ العَابِدات وانتقل لهذا المكان.. فمُنْذُ أنْ أصبح خادمًا للمَعْبَد تغيرت حياته تمامًا، أصبح يَرفل في الملابس النّظيفة، يتحمّم كل مساء في ذلك المَغطس الخشبي الرائع، يأكل من أفضل أنواع الأطعمة وأجودها.. حتى حينما كان يذهب إلى القَلْعَة لقضاء بعض احتياجات المَعبَد، كان أهلها يعاملونه أفضل معاملة بعدَ أن ظنّوا أن ما دفع سَيّدةُ العَابِدات لإلحاقه للعمل في خدمة المَعبَد أنه رجل صالح، أنّ انجذابه وتلك النّوبات التي تصيبه إنّما هي دليل دامغ على كراماته وبركاته التي حبته بها السّماء..

حدّث نفسه مُتسائِلًا:

مكتبة عابث الالكترونية

- ما الذي جذبه إليها، دفعه للتّعلق بها كل هذا الحدّ؟!، إنه حتّى لا يعرف ما اسمها!!!، أوووف لهذا القنوت، لم لا يرضى بما هو مقسوم له؟!، أليسّت حياته الآن أفضل بكثير ممّا سبق؟!، لم الشكوى باستمرار؟!.

هزّ رأسه بعنف يطرد عنها ما عصف بها من أفكار وظنون، لكن صورتها وهي تنظر لعينيه تلك النّظرة السّاهمة أبت أن تفارق عقله، تذكّر أنه ظلّ لسبعة أيام متتالية يترقّب عودتها إلى المعبَد حتّى بات يتلصص على المَمرات والحدائِق عساه يحظى بنظرة واحدة أو مجرد لفتة بسيطة منها، قال بعد أنْ غلبته أشواقه:

- أشعر بلهيب ثورة جامحة تستعر في داخلي، يتأجّج بها قلبي، تودّ أن تصحبني إلى آفاق بعيدة، جديدة مجهولة، أودّ أن أفرّ بها من حاضري الذي أمقته وذلك الماضي المفقود الذي لا أذكره.

لم يُسلم نفسه لتلك الهواجس أكثر من ذلك، هداه عقله بعدَ مُعاناة أن يتحمّم، نخير وسيلة للتخلص من أرق هذه الليلة التّعسة هي الحصول على حمّام رائق من ذلك المَغطس الخشبي الكَبير، بعدَ أن اختبر ذلك التّأثير العجيب لمائه الهادئ على نفسه، حينَ يسحب منها التّعب والألم ليحل مكانهما إحساسًا منعشًا غريبًا، ينزل بردًا وسلامًا على روحه.. أخذ منشفة من

مكتبة عابث الالكترونية

غرفته وتوجه يسير في الممر صوبَ المَغطَس مُمنيًا نفسه بنوم هانئ بعدَ انتهائه من التّحمّم..

حينما اقترب من مكان المَغطَس سمع صوتًا خافتًا هادئًا لا يكاد يبين، أرهف سمعه جيدًا، كان صوت بكاء مكتوم أو أنين مَبحوح.. تحرّك على أطراف أصابعه بخفة بالغة ناحية الصّوت، كان يريد أن يعرف صاحبه، بعدَ أنْ تملكه الفضول لمعرفة من يمكن له أن يكون مستيقظًا في مثل هذا الوقت المتأخر؟!، وما سبب بكاؤه؟!..

اختبأ خلف ذلك العمود الحَجَري الضَّخم المواجه للمغطَس، بات صوت البكاء وأنينه أكثر وضوحًا.. بقي على حاله فترة من الوقت مختبئًا حتّى اطمأن إلى أن أحدًا لم يلحظه، بهدوء شديد أخرج جزءًا يسيرًا من رأسه يستطلع مصدر الصّوت، تسمّر مكانه بعدَ أن اتّسعت عيناه عن آخرهما..

يا للسماء!!..

كانت هي.. يفترش جسدها الغضّ الأرض، جالسة تسند ظهرها على الجدَار الخشَبي للمغطَس، تستند بمرفقيها على ركبتَيها بعدَ أن دفنت وجهها فيهما، انسدل شعرها الطويل مُبللاً حالمًا يتقاطر الماء من خصلاته المُسترسلة تغطي ساقيها

مكتبة عابث الالكترونية

فلا يَبين منها سوى قدميها الصّغيرتين.. كان جسدها لا يستره شيء، عاريًا تمامًا، ثوبها مُلقىً على الأرض بجوارها في لا مبالاة..

ظلّ على حاله تلك فترة من الزّمن خُيل إليه أنّها أبدَ الدّهر، واقفًا خلف العمود الضّخم يراقبها، مأخوذًا بسحر فتنتها وبديع خلقتها، بقيت هي على حالها من السّكون والبكاء الحزين.. تردّد كثيرًا قبل أن يتغلّب على خوفه واقترب منها بخطوات بطيئة إلا أنّها لم يبد عليها أنها شعرت به على الإطلاق، دَنا منها أكثر ودقّات قلبه تعلو إلى درجة خشي معها أن تسمعها..

حينَ وصل إليها سيطرت عليه مشاعر الحيرة والتردّد، لم يعلم ماذا يفعل!، كان يرغب لو أخذها في أحضانه مُواسيًا أو أن يربُت على رأسها في حنان، يُداعب خُصلات شعرها المُبلّلة، لكنّه كان يخشى أنْ يُقابل فعله بالرّفض، فكّر أنْ يعود أدراجه من حيث أتى وليكن التحمّم في يوم آخر، فكم لبث فيما مضى أيامًا طوال دونَ أن يمسّ جسده الماء، وقت أنْ كان كل شيء بقدر..

تسمّر في مكانه قليلاً ثم استجمع شتات نفسه، أمسك ثوبها المُلقى في إهمال بجوارها ثم مد يده به إليها، لكنّها لم تحرك، كانت غارقة في أحزانها فلم تشعر به على الإطلاق.. لم

مكتبة عابث الالكترونية

يجد بُدًّا من أن يبسط الثّوب فوق ظهرها العاري مواريًا به ما يَبين من أجزاء جسدها الفاتِن.. انتبهت لفعله فتوقفت عن البكاء، رفعتْ رأسها ببطء تنظر نحوه، كانت عيناها حمراوتان زادهما البكاء جمالاً على جمال، لكنّهما كانتا تحملان معانٍ كثيرة.. كانت نظراتها تبثّه رسائِل عرفان وامتنان يخالطها قَدر كبير من الدَهْشَة والاستغراب..

انتابه الارتباك وسيطر عليه بشدّة فلم يجد ما يقوله، قرّر الانسحاب من هذا الموقف المُحير فاستدار بجسده كي يغادر المكان، بعدَ أنْ خطى خطوات بسيطة استوقفه صوت خرج ضَعيفًا مبحوحًا من كثرة النّحيب، على الرّغم من ذلك بدا له عذبًا ملائِكيًا له رنة مُميزة شَغفت بها روحه:

- أرجوك، انتظر.

تسمّر في مكانه بعدَ أنْ اعترته رعدة طَفيفة سَرت بينَ ضلوعه، لم يلتفت نحوها، كان التّردّد قد بلغ منه منتهاه حتّى أنه فكر في تجاهل ندائِها والعودة لغرفته.. لم يطل زمن تردده كثيرًا حينَ شعر بكف رقيق يلمس كتفه، ازدادت الرّعدة في جسده حينَ سمع صوت أنفاسها يتردّد من خلفه، أحسّ بها تلفح رقبته.. قالت برقّة:

- كنت أريد أن أشكرك على ما فعلته معي تلك اللّيلة.

مكتبة عابث الالكترونية

التفت نحوها في توتر ملحوظ، كانت عيناها النّاعستان ترسلان تلك النَّظَرات الحالمة الحزينة فتستقرّ على وجهه المُضطّرب، كان لها نفس تأثير ماء المَغْطَس الهادئ، نزلت على روحه بردًا وسلامًا، كانت تلاحظ ارتباكه واضطّرابه في نشوة وسعادة، لم تر من قبل مثل هذا النوع من الرّجال، لم يفكر أحدهم من قبل في ستر جسدها، كان غاية أملهم هو الوصول لهتك أستاره ودك أسواره.. قال بصوت خفيض يناسب رعدَة روحه ونظراته المُنكسِرة التي لم تلتق عيناها بعدَ:

- لا داع للشكر.

مدّت يدها نحو ذقنه ترفع وجهه نحوها ففرّ بنظراته منها، نظرت مليًا في عينيه، رأت فيهما حزنًا عميقًا وحيرة بائِسة، لكن من خلفهما لمست بقلبها روحًا جامحة مُتقدة، تنتظر الفرصة للانطلاق مُحلّقة في فضاءات الكون الرّحبة.. تعجبت كثيرًا من نظراته التي تحمل كل تلك المعاني المُتضاربة، هَالها أن تفعل نظراته بها ما فعلتْ، أن يكون لها هذا التّأثير على روحها القوية التي من أجلها يُبذل الغالي والنّفيس، رغبتَ في اختبار سحرها من جديد فنفثت قسماته في روحه حينَ خاطبته هامسةً في دلال ولين:

- وشكرك أيضًا على ما فعلته الآن.

مكتبة عابث الالكترونية

رفع بصره صوبَ عينيها، تلاقت نظراتهما للمرّة الثانيّة، أحسّ بخدر عام يسيطر على حواسه، بات لا يرى من حوله سوى عينيها، كان جمالها قاهراً حقًا، يحرق من يدنو منه، يبعث في نفسه الجنون، يملأ صدره وجوارحه برغبة عارمة لا تشبع ولا ترِوى، كانت تداعب كتفه بكفها حينَ خرجت الحروف متلعثمة منه وقال بصوت غلب عليه الارتباك:

- قلت لك، لا داع للشكر.

أنهى عبارته السّابقة ثم طاف بنظراته فيها، كانت ما تزال عارية، تضع كفًا على كتفه تُداعبه بلطف ولين، تمسك بالآخر ثوبها أمام صدرها في دلال، تواري به ما استطاعت من جمال باهر.. استدار بجسده بعيدًا عن فتنتها القاهرة، ابتسمت حينَ أيقنت بسريان سحرها في نفسه، قالت بصوت خافت:

- اسمي دليلة، وأنت ما اسمك؟.

كان لوقع اسمها على أذنيه إيقاعًا حالمًا، نغمًا رائقًا طاف به في عوالِم مختلفة، وقع في خَلده تلك المقولة التي سمعها أن لكل إنسان حظ من اسمه، أيقنَ الآن أنها حقيقة، ستكون دليلته، بها ومعها سيجد ذاته التي فقدها، نفسه التي يئس

مكتبة عابث الالكترونية

أنْ يعرفها.. أفاق من شروده حينَ كرّرت عليه السّؤال، كان لا يزال يوليها ظهره حينَ أجاب بصوت خافت:

- يقولون أن اسمي يَحْيَى.

صكّت أُذنيه صوت ضحكتها الصّافية فرقص لها قلبه، قالتْ بمرح:

- يقولون لك!!، ألا تعرف اسمك؟!.

همّ بالإجابة إلا أنّها عاجلته قائلةً بصوتها الخافت:

- يمكنك الاستدارة الآن أيها الحيِّ، لقد ارتديت ثوبي.

التفت صَوْبَها بهدوء، كانت تبتسم له ابتسامة فاتنة ومضت في ثغرها كتعويذة سحرية، انحلّ معها كل ما كان يعقد لسانه فانطلق قائلاً في هيام:

- كم أنت جميلة حقًا، كنت أحلم فقط بنظرة من عينيك السّاهمتين أو لفتة بسيطة، لم أكن أتخيل أنْ أحظى بقربك مثل الآن، الشّكر لك أنت، يقولون أن الجمال يجيئ بغتةً مثل القدر فيصيب البَشر بما لم يكن لهم في الحسبان، أما حُسنك أنت فسيذهب بكل تعاستي وأحلامي السّيئة إلى غياهب النّسيان.

مكتبة عابث الالكترونية

بُهتت «دليلة» من كلامه المعسول، هذا الكلام لا يصدر إلا عن مُحب ولهَان، عاشق خبير له دراية بفنون العشق والهوى.. نظرت نحوه متعجبة من هذا التحول المُفاجئ في حديثه معها، لأول مرّة تشعر بالخجل بعدَ أن لامس كلامه وترًا في قلبها ظنّت أنّه قد توقف عن العزف إلى الأبد، كان إحساسها مُضطربًا بعدَ أنْ اعترتها انفعالات شتى، تتصارع فيما بينها، إحساس بالدَهْشَة من هذا الإنسان الغَريب الغامض، وإحساس آخر لم يطرق باب قلبها من قبل، رَعشة عابرة أصابت روحها، خَفقة خاطفة اهتزّ لها فؤادها، كان حديثه كَسَهم ذَهبي صوّب بمهارة فأصاب قلب فريسته بدقّة بالغة.. هزت رأسها سريعًا تحاول إبعاد تلك الأفكار عن ذهنها، كانت تؤمن بأنّ الحُب ضعف، ولا يمكن لمثلها أنْ تكون ضَعيفة، لا مكان للضّعفاء في هذا العالم المَلِيء بالشّرور، فالحُب رفاهية لم تسمح لها الظّروف أنْ تختبرها من قبل.. انتبهت على صوته يقول في ارتباك:

- معذرة إنْ كنت قد تجاوزت في حديثي.

نظرت نحوه، كانت عيناه تَسُومها نظرات الوَلَه والغَرام، فاضطّربت أنفاسها بشدّة، انكمشت في نفسها كعذراء تَجلى في خدرها يتقدم نحوها رجلها لأول مرّة.. فرّت عيناها من

مكتبة عابث الالكترونية

نظراته بعدَ أن أربكها هذا الشعور الذي تختبرهُ للمرّة الأولى، قالت وهي تتراجع إلى الوراء:

- لا داعي للاعتذار، سأراك قريبًا.

همّت بالمغادرة حينَ استوقفها صوته قائلاً:

- غدًا ألقاك، هنا، في نفس الموعد.

باتا ليلتهما مُرافقين للسهر، لم يغمض لهما جَفن، لكنّه كان سهرًا من نوع آخر، له طبيعة مختلفة، حالةٌ ما بين اليقظة والمنام، يكون فيها المرء مُستيقظًا مفتوح العينين، لكنّه في واقع الأمر يكون ذاهلاً عن كل الأشياء من حوله، إلا عن شيء واحد، محبوبه..

في اليوم التّالي وعندما جاء وقت الموعد المضروب، تحرّك «يَحْيَى» من غرفته يسابق الزّمن صوبَ المَغطَس، تتسارع أنفاسه ويخفق قلبه بشدّة كأنّه يبحث عن روحه التي سلبت منه، كان خائفًا أنْ تُخلف الميعاد، يمني نفسه بلقاء آخر يهدئ من اضطّراب روحه، يُطفئ من نيراتها المُتقدة، يروي ظمأ نفسه العَطشى لحديثها ونظراتها، أنفاسها ولفتاتها.. حين وصل إلى المَغطَس وجدها تنتظره خلف ذلك العمود الحَجَري الضّخم، ردّ وجودها روحه إليه..

مكتبة عابث الالكترونية

كانت عيناها اليوم تلمعان ببريق خلّاب، تسلطان نظراتها المُتوهّجة على عينيه الداهشتين، كأنها الشمس تسلط أشعتها على أوراق النّبات فتميل فروعها تتبعها أيّنما اتجهت.. دَنا منها بخطوات هادئة، همّ بالحديث لكن لسانه لم يطاوعه، صمتت هي الأخرى.. جلسا إلى الأرض متجاورين بعدَ أنْ أسندا ظهريهما إلى جَدار المَغطَس، استولى عليهما خدر ساحر، كانا كل فترة يتلفت أحدهما صوبَ الآخر ثم من جديد يلتزم الصّمت، ظلّا فترة صامتين يسعد كلا منهما بحديثه مع نفسه، لكنّه كان في حقيقة الأمر يحادث صاحبه بلغة أُخرى، لغة صامتة سحرية، لغة لا تفقهها إلا القلوب والأرواح.. حتّى قامت «دليلة» فجأة من مكانها واقفة، جذبته من يده وهي تقول:

- هيا بنا، لنمش في الحديقة قليلاً.

على الرغم من غرابة هذا الرأي وخطورته، في مثل هذا التّوقيت من الليل وسط هذا الضّباب الكثيف، إلا أنّه تبعها صَاغرًا مَسلوب الإرادة، مَسلوب الرّوح والفؤاد..

بقيا في الحديقة زمنًا لم يحصياه، حتّى قارب يوم جديد على البدء، تحدّثا في هذا اليوم طَويلاً.. أخبرها عن ذاكرته التي انمحت وأخذت معها سنوات عمره التي جاوزت الأربعون بقليل فبات لا يذكر منها إلا عشرًا، هي تلك السّنين

مكتبة عابث الالكترونية

البائسة التي قضاها في القَلعَة، دمعت عيناها حينَ أخبرها عن نوباته المُفزعة التي لا يعلم لها علةً أو دواءً.. تكرّرت لقاءاتهما وتعدّدت حتّى أصبحت جزءًا أساسيًا في حياتهم، فبعدَ أنْ ينتهيا من مهامهم اليومية الخاصّة بأعمال المعبَد يتوجه كل منهما لغرفته ساهمًا يحصي الوقت حتّى يحين موعد اللّقاء..

توطّدت علاقتهما أكثر فحَكت له عن حياتها وذكرياتها، أخبرته بأشياءٍ كانت قد خبأتها في أعماقها، أخفتها عن كل البَشر، عن ماضيها الذي كادتْ تنساه، لم تتصوّر أبدًا أنْ يأتي يوم تفتح فيه قلبها وعقلها لأحد.. عَلِم منها أنّها ليست من ديار أهل القَلعَة، أخبرته أنّها وُلدت في ديار عشيرة المشارقة، لا تتذكر شيئًا عن طفولتها المُبكرة أو عن أبيها وأمّها، فقط صورًا باهتة شاحبة عن غُرفة صغيرة متواضعة تكاد تكون خالية من الأثاث، أبٌ غائب طوال الوقت، أمٌّ واهنة ضعيفة تفترش الأرض قرب مدخل الغُرفة تنتظر عودة رجلها..

حكت له أنّ ذكرياتها الحقيقية تبدأ بعدَ نجاتها من ذلك المرض الرّهيب الذي تفشى في ديار المشارقة فأباد أبويها ومعهما الكثير من أهل الدّيار، حينها أوكلوا رعايتها لامرأة عجوز، لا تعرفها ولم تعلم أنّ أمها كانت تعرفها.. كانت العجوز تعاملها معاملة سيئة، شحيحة في كل شيء، طعام كان أم شراب، تسخر منها إنْ أطاعتها وتضربها بقسوة إنْ عصتها..

مكتبة عابث الالكترونية

كان معها فتيات أُخريات في نفس الغُرفة، ظنّت في بادئ الأمر أنهنّ بنات العجوز، لكن مع مرور الوقت وزيادة الإدراك في عقلها علمت ماذا كانت تصنع بهنّ العجوز..

كانتْ اللّعينة تمنحهنّ لراغبي المُتعة من أبناء العَشِيرة ورِجالها في مُقابِل إمدادها بالطّعام والشّراب، كانتْ تُذيقهنّ سُوء المعاملة ومرّ العذاب.. لازالت تذكر هيئة تلك الفتاة البائِسة بعدَ أنْ انتفخ بطنها ببذرة حمل مجهول، كانت المسكينة صغيرة للغاية على خوض تلك الآلام، عانت معُاناة بالغة حينَ سَال ماء حملها، لم تتحملِ ما قاسته من آلام ففاضت روحها البريئة.. أخبرته أنها كثيرًا ما كانت تختبئ من تلك الشّمطاء خارج الغُرفة، ساعات طوال رغم برودة الطّقس أو قيظ الحر، لا يهم، فقط كان ما يِشغل بالها آنذاك أن تنجو بنفسها من ذلك العذاب المقيم..

ترقرق الدّمع في عينيها الحالمتين، ترك فيهما سحابة كدّرت صفوهما، حينَ تذكّرت يوم أن ظهرت عليها بشائر الأنوثة، أنوثة طفولية بريئة، يومها رمتها العجوز بتلك النّظَرات الشرهة البغيضة، تحوّلت عيناها بشكل مُخيف، أصبحت في ذلك الحين أقرب للذئاب منها إلى أعين البَشر.. في هذا اليوم المشئوم منحتها لثلاثة منِ رجال العَشِيرة، تناوبوا عليها الأمر حتّى كادت روحها أنْ تزهق.. في تلك الليلة المقبضة شعرت

مكتبة عابث الالكترونية

بِخواء روحها، أحسّت أن قلبها قد اعتصر عصراً، لم تبك أو تذرف الدّمع، ليلتها قررت أن تتحين الفرصة للانتقام من تلك الشيطانة الشمطاء..

باتت تتحين الفرص وتترصّد لها، حتّى كانت إحدى ليالي الظّلام العشرة آنذاك، كان عودها قد اشتد وصقلت خبرتها، أصبحت فتاة يانعة يتصارع رجال العَشِيرة للظفر بها.. كانت ليلةً شديدة السّواد حالكة الظلمة، رعدت السّماء وبرقت حينها إلى درجة خُيل لها معها أنّ لعناتها ستحل على الأرض من جديد.. في تلك اللّيلة لم يكن في الغُرفة سواهما بعدَ أنْ وزّعت العجوز كل الفتيات على طالبيهم، كان الإعياء بادياً على جسدها الهرم المُتعفن حينَ خلدت إلى النّوم وهي تتنفس بصعوبة بالغة..

اقتربت منها «دليلة» بخطوات ثابتة وهي ترميها بنظرات كالشّرر، كانت قد أعدت خرقة بالية لأداء المُراد بعدَ أنْ غمرتها في بركة مُمتلئة بمياه الأمطار خارج الغُرفة.. انقضت على العجوز من علٍ تكتم أنفاسها بتلك الخِرقة المُبللة، لحظات وسكنت أنفاسها النّتنة إلى الأبد.. لم تدر حينها ماذا تفعل، أيقنت أنّ بقائها في العَشِيرة سيكون فيه هلاكها ففرت غير مُعقبة لا تعلم أين السبيل..

مكتبة عابث الالكترونية

مضت تسير شريدة على غير هدىً، كاد اليأس أن يقطع كل أمل راودها في النّجاة، حتّى لقيت مجموعة من الرُّحلِ قاطعي الطّريق، أخذوها غنيمة، لكن القدر كان بها رحيما حين أعجبت بها امرأة كبيرهم وخلصتها لنفسها.. كانت هذه المرأة خبيرة بفنون كثيرة، منها تعلّمت الغناء والرقص، أخبرته أنّ تلك الفترة كانت من أفضل فترات حياتها على الرغم من بعض المضايقات التي كانت تجدها من تلك المرأة العطوف، إلا أنّها استطاعت تجاوزها بقليل من الحِنكة والصبر..

حتّى جاء ذلك اليوم الذي اعترضت طريقهم جماعة من حرس أمير القَلعَة، لم يطل زمن تلك المعركة، فقد كانت نتيجتها محسومة من البداية.. أخذوها أمة في عبيد وجواري الأمير، حتّى التقطتها عين سَيّدةُ العَابِدات الخبيرة، فألحقتها بالمَعبَد، ليست كعابدة ولكن لأغراض أخرى، أكرمت مثواها وأطعمتها، علمتها ما كان ينقصها من فنون الهوى، حتّى كان ما جرى بالحفل..

أوقفها «يَحْيَ» عن الاسترسال في الحكي، وضع كفه على ثغرها بعد أن لاحظ توترا قد اعترى ملامحها، قال:

- لا أريد أن أعرف ما حدث في ذلك اليوم.

مكتبة عابث الالكترونية

أسبلت جفنيها في سعادة وامتنان، قبلت أصابعه في حب، افترقا على وعد بلقاء في اليوم التالي.. لم يعد إلى غرفته سريعاً، مضى يجوب أرجاء حديقة المَعبد غير عابئ بالضباب الكثيف الذي يحوطه من كل حَدب بعدَ أن استبدّت به نوازع الشوق ونداءات الغرام، صرعته حمى اللقاء، رغب لو لم يفارقها، ودّ لو بقيت جانبه أبد الدّهر..

حينَ عاد «يَحْيَ» إلى غرفته في تلك اللّيلة على هدي من ذلك النور الذي انبعث من أعماق قلبه فأضاء له عتمة الطّريق في وسط حُجب الضّباب المُسيطرة على الأجواء، كانت الغُرفة بخارجها غارقة في ظّلام باهت بعدَ أن غفل عن إشعال قنديلها، أغلق بابها الخَشبي على مهل وهو يتنهّد تنهيدة طويلة، ما كاد يفعل حتى أتاه صوت حالم يقول في هدوء:

- ما الذي أخرك كل هذا الوقت، كنت أنتظرك، لم أقو على مُكابدة نار الشّوق في بعدَك.

انتصب خلف الباب واقفاً بعدَ أنْ ظنّ توهمه لسماع صوتها من كثرة انشغال فكره بها، جال ببصره وسط ظلام الغُرفة يبحث عن طيفها، لكن بلا جدوى.. عاوده الصّوت مُجدداً يقول في نبرة ناعمة:

مكتبة عابث الالكترونية

- آآاه من الشّوق وأفعاله، لقد جافاني النّوم وخاصمتني الأحلام، باتت نفسي مُزعزعة ما بين ليل البعد وآلامه، وخوف الفِراق وأوهامه، سُحقًا لذاك الفراش الذي كنت أقضي فيه اللّيالي دونك، رغم نعومته ولينه كان كأشواكٍ تنغرس في روحي فلا أطيق النّوم، كنتِ أقضي ليلي ساهرةً مع نفسي أبوح لها بما شئت حتّى فاضت بما حدثتها، لم تعد تحتمل المزيد، أخبرتني أنّ البوح لن يكون كاملاً إلا إنْ كان لك.

شعر «يَحْيَى» أنه مُقيد بقوة خفية، تَسلب إرادته، تمحو عقله، بات غير قادر على الحركة، عاجز حتّى عن الحديث.. قالت «دليلة» مُستطّردة في لين بعدَ أنْ تحوّل صوتها إلى الهمس:

- حسنًا، لا تقل شيئًا، كنت في انتظارك طويلاً، طالما حلمت بأن ألقى من هو مثلك، من ينظر لروحي لا لجسدي، حينَ تلاقت نظراتنا للمرّة الأولى أحسست في عينيك بأشواق غامرة، حوطتني ومنحتني شعورًا غريبًا بالأمان لم أحسّه من قبل، وحينَ تلاقت أعيننا للمرّة الثانية أحسست بالضّياء، نعم، لا تتعجب، فقد كانت نظراتك إليّ كَنورِ الفجر حينَ تنبلج الشّمس في غسق الدّجى، وحينَ ابتسمت عيناك لي تحولت

مكتبة عابث الالكترونية

حياتي إلى عذاب، نار تحترق بها روحي كل ليلة حينَ
يرقد جانبي على الفراش، كان عذابًا مريرًا لكنّه كان
كذلك أحلى عذاب، كان عذاب الحُب بينَ المُحبين،
لم أعد بعدَها قادرة على تحمل بعدَك، حاولت التّسلح
بالصّبر، لكن صبري كان يحتاج إلى صبر آخر، لم
أعد أستطيع تحمل البعدَ عنك ولو للحظة واحدة.

خرج «يَحْيَى» من ذُهوله بمشقة بالغة، همّ بالتفوه بكلماته الأولى لكنّها خرجت كأنّه يوجهها إلى نفسه، قال بصوت خافت:

- مُنْذُ أنْ رأيتك لم تحوّل عيناي عن وجهك، كنت أرى النّور في خديك فتتأجج نيران الهوى في قلبي، نظراتك النّاعسة أو ابتسامتك التي يلين لها قلبي، كنتُ في الليل أراها تتحول إلى حضور حقيقي، ترافقني في أحلامي، تحوّل إلى ضياء يحيل عتمة وحدتي نورًا متوهجًا، وفجأة، ها أنذا أجدك هنا في غُرفتي الصغيرة، وسط هذا المَعبَد، بشحمك ولحمك.

ساد في ظلام الغُرفة حَفيف ثوبها حينَ قامت من الفراش تحرك في دلال نحوه، سرَت في هوائها نَسمات عطر رائحة جلدها حينَ اقتربت منه، لفحته حرارة جسدها حين لامسته، اضطربت أنفاسه بشدّة وسرت في روحه رجفة مُحبّبة

مكتبة عابث الالكترونية

بين العُشاق حين لامست شفتاها فمه، أغمض عيناه وغاب عقله عن العالم بعدَ أنْ قبلته قبلة طويلة، بعدَها أمسكت يده تسحبه نحوَ الفِراش وقالت هامسة:

- تعال معي، اتبعني.

لم يشعرا كم مرّ من وقت وهما على حالهما، يغترفان من أنهار العشق والهيام، حينَ فرغا وبدءا يستفيقان من نشوة الغرام، كانا مُمدّدين مُتعانقين في وضع جانبي على فراشه، يحتضنها «يَحْيَى» في قوة من الخلف كأنّه يخشى ضياعها، بينما استكانت هي ولَانت بين ذراعيه كقطة شاردة وجدت لها مأوى..

كان «يَحْيَى» قد أغمض عينيه السّاهمتين نصف اغماضة، مُستشعراً روعة العشق ولذّة الهَوى بعدَ أن شعر أنه قد امتلك الدُّنيا وما عليها، قال همساً:

- لقد سامحتك عن كل هذا العذاب وتلك الحيرة التي سببتهما لقلبي.

ضحكت في غنج ثم التفت تدفن وجهها في صدره وتقول بصوتها النّاعس:

مكتبة عابث الالكترونية

- لو أنّ النعيم كان في بُعدي عن دفء أحضانك لما وددت الذهاب إليه، ولو كان الجحيم فيهم لبقيت مُستكينة راضية أبد الدّهر.

داعبَ شعرها الفَاحم بكفه ثم مسح بالآخر على خدها في حنان، طبع قُبلة حانية على رأسها، همّ بالحديث إلا أنّ طرقًا عنيفًا على باب الغُرفة قاطعه.. اعتراه القلق في حين انتفضت هي جالسة تنظر صوبَ الباب في جزع.. قالت بصوت متوتر:

- ما هذا الطّرق؟!، أتنتظر أحدًا؟!.

لم يجبها وهزّ رأسه نافيًا، أشار لها أن تختبئ خلفَ الباب تستتر في جنح الظّلام على حينَ ستر جسده وأمسك بمقبض الباب يفتحه في هدوء مضطّرب..

فجأة، اندفع الباب في وجهه بعُنف مُرتطمًا بأنفه مُسببًا له آلامًا مُبرحة، لم يتمكن من التّصرف حينَ باغته أحدهم بضربة قوية من جسم صلب على رأسه دارت لها الدُّنيا أمام ناظريه.. كابد شعورًا قويًا بالإغماء حينَ سقط على ظهره أرضًا، كان يسمع أصواتًا مُختلطة، يرى أطيافًا مهتزة، أصبحت الرؤية شاحبة باهتة، سمع صوتًا حادًا يقول في صرامة:

- لقد خالفتما القواعد، ستنالا أشدّ العقاب.

مكتبة عابث الالكترونية

التفت نحوَ مصدر الصّوت بصعوبة بالغة، كانت سَيّدةُ العَابِدات تقف عند مدخل الغُرفة في صَلف، ترميه بنظرات مُتعالية، حاول محادثتها لكن لسانه عجز عنِ النّطق، سمع صُيحات تكرر اسمه، كانت «دليلة» تصرخ مستغيثة:

- يَحْيَ، يَحْيَ،

حاول التحرك من رقدته، لكنّه فشل، شعر بظلام الغُرفة يُحيط به من كل جانب، كاد أنْ يطبق على أنفاسه، فجأة أظلمت الدُّنيا أمامه تمامًا، وقع في إغماءة طويلة، سقط في جُب سحيق،،

****

مكتبة عابث الالكترونية

(٩)

.. حَمْزَة ..

اشتدت حجب الضَّباب قبل سُويعات قليلة من مفارقته للأرض مُعلنًا عن بداية أيام الظَّلام العشر، حين كان «حَمْزَة» يخوض غمار صراعًا نفسيًا عنيفًا، تكتنف ذهنه حُجب كثيفة من الظّلال، نَاء بحملها كاهله ووهنت من ثقلها روحه، لا تختلف عن تلك الحُجب الضَّبابية الكثيفة التي تجثم رابضة على الأجواء القَاتمة للعشيرة.. تعصف بعقله أفكارًا وظنونًا متضاربة، تتصارع فيما بينها في حدّة وعُنف، فقد كانت طبيعته التي تميل للنُبل بفطرتها، ترفض بشدّة تنفيذ ما دفعته إليه «زينب»، في حين كان طموحه الجامح يدفعه دفعًا إلى التّنفيذ.. كان مُحاصرًا بين كفتي الرحى، نبله وطموحه، لا يستطيع الفِكاك أو الفِرار منهما..

مكتبة عابث الالكترونية

كان طريقه إلى حجرة الحكيم طويلاً، على الرغم من اعتياده عليه وقصر مسافته، مُقبضًا كَئيبًا قادته فيه قدماه دون عقله، بعدَ أن تاهت نفسه في غياهب الخوف ودوامات التّردد، كان يقدم خطوةً ويؤخر الأخرى أملاً في الوصول لحل يخالف ما تراه «زينب».. لم يكن قد حسم أمره بعد، فعلى الرغم من تظاهره أمامها بالقَبول حينَ تناول من يدها الرقيقة ذلك الخنجر الملعون، دسّه في درعه بعنف كأنّه يطعن نفسه، إلا أنّه لم يكن مُستعدًا أبدًا لطعن قلب الحَكِيم..

كان يسير بِضعة خطوات قليلة ثمّ يتوقف وينظر في اتجاه حجرته، يترجّاها أنْ تسمح له بالتّراجع عن تلك الفِعلة التي استنكرتها فطرته الإنسانية وكرهها نُبل نفسه الذي جُبل عليه.. أخذ جانب آخر في نفسه يعمل على تخويفه، ترويعه من إتمام الأمر.. يخبره أنّ عواقب تلك الفِعلة لن تتوقف عندها بل ستتعداها لِما هو أخطر وأعظم، لن يتمكن حينها من إيقاف عجلة الموت، فللقتل عجلة إنْ تسارعت دورتها لن يتمكن أحد من إيقافها أبدًا..

حدثته نفسه مُحذّرة من عواقب الأمور:

- لو كان في ارتكابك لذلك الجُرم انتهاء وحل لمشكلاتك لكان خيرًا لك أن تُتِمه سريعًا، لكن هيّهات أن تكون تلك هي عاقبة الأمور وخاتمتها، فللسماء في

مكتبة عابث الالكترونية

هذه الحياة أحكام خاصة، أسمى وأعظم من قُدرات البَشر وتوقعاتهم، دومًا ما تكون لها نتائج تترتب وتنشأ نتاج فعالهم، فلو أنّنا علمنا غيرنا أنّ القتل والعنف هما السبيل لنيل المراد وبلوغِ المرام، ووَعوا جيدًا ذلك الدّرس، لعادوا إلينا بعد حين وطبّقوا علينا ذات الدّرس.

عند ذلك الحدّ توقف ذهنه عن العمل بعدَ أنْ وَمَضَتْ في عقله فكرة غريبة، حدّث نفسه قائلًا:

- إنْ كان ذلك صحيحًا، فلابدّ أنّ الحَكيم قد ارتكب وزرًا وجُرمًا عظيمًا في سالف الأزمان وما أنا إلا مبعوث السّماء الذي أرسلته لأطبق عليه ذلك الجزاء العادل.

تهلّلت أساريره عند توصله لهذا الاستنتاج بعدَ أنْ ظنّ أنّه قد غلب نفسه، ومضى في طريقه يسعى صوبَ تحقيق مآربه، غير أنّ نفسه لم تُمهله وعاودت زعزعةَ ثقته من جديد حينَ حدّثته:

- لكنّه يأتمنك على كل شيء، جعلك من المُقربين، أمن جوارك، كيف ستبرر فعلتك الخسيسة تلك؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

هزّ رأسه بعنف وهو يطرد عنها ما يؤلمها من أفكار، قال بصوت مسموع:

- تشجّع يا حمزة، قد هيأتَ نفسك وجهزتها لإرتكاب ما يلزم لتحقيق أحلامكَ، لا مجال الآن للتراجع وإلا ستخسر كل شئ، هيا ولا تخف، لتخدع كل البَشر باتخاذ مظهر القوي غير الخائِف الذي يأخذ ما يريده بقوة، ولتخف وراء وجهك المُرتعد ما يعتمل في قلبك من رجفة ورعشة.

هدأ من سيره قليلاً بعدَ أنْ لاحَ له في الأُفق القريب شبح حُجرة الحكِيم، توقّف قليلاً يلتقط أنفاسه ويستجمع شجاعته.. إلا أنّه سمعِ نَعيق غراب يصرخ من خلفه، التفت بحدّة نحوِ ذلك الصوت المشئوم، رآه بوضوح على الرغم من ذلك الضباب الكثيف الذي يُخيم على الأجواء.. كان الغراب ضخمًا بصورة لم تألفها عيناه من قبل، شديد سواد اللّون، ينظر نحوه مُحدّقًا فيه بطريقة أرعبته.. توقّف عن السّير وهو يرمق ذاك الغُراب بخوف مُستتر.. أصدر أصواتًا محاولاً إخافته إلا أنّه لم يتزحزح من مكانه، سرَت في بدنه قشعريرة غريبة كاد معها أنْ يعود أدراجه، لكنّه تمالك نفسه سريعًا وهو يهش الغُراب بيده قائلاً:

مكتبة عابث الالكترونية

- انصرف لحال سبيلك يا فأل الشُّؤم، ما بالك تحدّق هكذا أيها اللعين.

حدّثته نفسه من جديد أن يتراجع عمّا ينتوي فعله، أخبرته أنّ هذا الغُراب ربما يكون إشارة ما، أو رسالة واضحة له بعثتها السّماء علّه يستفيق من غفلته، إلا أنّه هزّ رأسه بعنف مُتجاهلاً ما جرى وهو يحثّ خطاه صوبَ حُجرة الحَكِيم..

حينَ وصلها أزاح بيمينه أستار بابها وهو يُدلف داخلها بهدوء مُصطنع، كان التّوتر والإرتباك مُسيطران على كل حواسه، تخطو قدماه خطوات مُرتعشة صوبَ فراش الحَكِيم، أنفاسه مُضطّربة لاهثة، وقد تفصّد العرق البارد عن جبينه.. تلفّت حوله باحثًا عن ذلك الخَادِم الذي أخبرته «زينب» بوجوده، لم يُبصره، دقّق بصره مليًا، لكنّه لم يكن موجودًا..

تنفس الصّعداء بعدَ أنْ اطمأن لخلو الحُجّرة من أي شخص سواهما، الحَكِيم وهو، اقترب ببطء شديد من الفراش المُسَجّى عليه جسد الحَكِيم ساكنًا هادئًا.. توقف حينَ وصل عند مقدمة رأسه، مضى يتأمل قسمات وجهه بعدَ أنْ بان عليها الهرم وأعياها المرض.. تذكّر وقت أنْ كان صاحب تلك القسمات يكفي مُجرد ذكر اسمه حتّى ترتعد منه أجساد أعتى الرّجال وأكثرهم قوة وفحولة.. دنا من وجهه أكثر، طبع قُبلة وداع حانية على جبهته ثم أغمض عيناه طويلاً محاولاً

مكتبة عابث الالكترونية

حفظ تفاصيل ملامح هذا الوجه في عقله قبل أن يفعل ما ينتويه.. فتحهما وهو يمد يمينه في درعه باحثًا عن الخنجر، لكنّها تسمّرت في مكانها حينَ فتح الرّجل عينيه فجأة محدّقًا في الفراغ وهو يقول بصوت واهنٍ:

- من هناك؟!.

أجاب بنبرة حاول أن يبقيها هادئة قدر استطاعته:

- أنا حَمْزة يا سيدي الحكِيم.

مدّ الرّجل يده اليمنى يبحث عن وجهه حتّى وجده، مسح بكفه عليه ثم ربتَ على خده في حنان، قال في صوت خافت أعياه المرض حتّى بدا أقرب ما يكون إلى الهمس:

- أين كنت يا حَمْزة؟!، لقد أقلقني غيابك يا بُني.

ارتبك «حَمْزة» وتلعثم قليلاً في الإجابة، فقد كان لا يستطيع الكذب أمام الرجل، قال بحروف متُقطعة:

- كنت يا سيدي أؤدب عشيرة المغاربة، أعيد لميزان الحق نصابه، حتّى لا يظنّ أحد أن هيبتك قد ولّى زمانها.

مكتبة عابث الالكترونية

أغمض الرّجل عينيه في أسى ثم أشاح بوجهه بعيدًا، ولم يُعقب على مقالة «حَمْزة» الذي اعتراه الغمّ لرؤية ما حدث من تبدّل في موقف الحكِيم نحوه فقال مُبررًا:

- إنّما فعلت ما توجب عليَّ فعله سيدي الحكِيم.

ظلّ الرّجل على حاله من الصّمت المطبق، مغمضًا عينيه في حين أكمل «حَمْزة» قائلاً:

- أنت تعلم سيدي أنّي ما هاجمتهم إلا طلبًا لرضائك وحفاظًا على مُلكك وسطوتك، فأنا في سبيلِ نيل رضائك والذّود عن اسمك أفعلِ ما ينبغي عليّ فعله، وإنّما أفعل ذلك كأي خادم تشرّفه خدمتك سيدي.

التفت الرّجل صوبه ثم فتح عيناه ورماه بنظراته الجوفاء المُحدقة في الفراغ، قال بصوت هادئ النّبرات:

- لقد كان قراري صائِبًا، لم يؤثر المرض في حكمته.

امتقع وجه «حَمْزة» حينَ سمع عبارة الحكِيم الأخيرة، فَهِم مغزاها ولم يرد، تسمّر في مكانه بعدَ أن شَلّ تفكيره، أكمل الرّجل حديثه مُستطردا:

- بل فعلت ما رأيت أنه يرضي غرورك ونرجسيتك الطّامحة لأن ترث مُلك هذه العَشِيرة وما عليها من بعدي.

مكتبة عابث الالكترونية

حاول «حَمْزَة» أنْ يرد فخرجت كلماته باهتة مُضطَربة وهو يقول:

- لكنّني لم أكن...

لم يمهله الحكِيم فقاطعه قائِلاً في حدّة واهنة:

- اصمت، هل أتي علينا الزّمان الذي تتحدث فيه دون إذن مني؟!.

صمت «حَمْزَة» على الفور وأطرق برأسه إلى الأسفل في حينَ أكمل الرّجل:

- تقول أنك فعلت ما فعلت إرضاءًا لي وذودًا عن اسمي على الرّغم من مخالفتك لصريح أمري، ماذا تُسمي هذه الفِعلة؟!، أليست خيانة لمشيئتي وعصيانًا صريحًا لكلمتي؟!.

أشاح بوجهه من جديد بعدَ أنْ فرّت دمعة بائِسة من عينه الكفيفة، حزنًا على ما أصابه من وهن وتعب، قال بنبرة أسيفة:

- وا أسفاه على غدر الزّمان، ليتني لم أعش لأرى هذا اليوم، ليت الضّباع قد نهشت لحمي قبل أن أجد منك هذا النُّكران والجحود.

مكتبة عابث الالكترونية

إنهار «حَمْزة» حينَ رأى ضعف الرّجل وحزنه فانحنى يُقبّل يده وهو يقول معتذرًا:

- اغفر لي ذلّتي يا سيدي، ما أنا إلا مجرد تابع صغير لم يكن لي شأن إلا بك.

سحب الحَكِيم يده بحدّة، وقال بلهجة صارمة:

- ما الذي جاء بك يا حَمْزة؟!، كنت تعلم أنني لن أغفر لك معصيتك لأوامري.

ازْدَرد «حَمْزة» لُعابه بصعوبة وهو يقول بنبرة مُرتعشة:

- لقد كنتُ...

هزّ الرّجل رأسه حينَ قاطعه مجددًا وهو يقول بصوته الوَهِن:

- لقد أخبرتك زينب بما دار بيننا.

تسمّر «حَمْزة» في مكانه ولم يتحرك، بعدَ أن تجمّدت أطرافه وسرت فيهم برودة مُخيفة، استطرد الحَكِيم قائِلاً:

- أوَ تدري يا حَمْزة، تعلم السّماء أنّي لم أُحب أحدًا مقدار حبي لك، ربما كان السّبب في ذلك أنّك تُشبهني في كل شيء، ربما بسبب طموحك الجامح الذي لا يعيقه مانع أو جرأتك النّادرة التي لا يوقفها

مكتبة عابث الالكترونية

شئ، تلك هي الهِبة الكُبرى التي وهبتك إياها السّماء، لكن لتعلم أنّ تلك الهِبة إنْ لم يقوّمها ويلجمها شئ فستكون فيها نهايتك.

أجاب «حَمْزة» بوجوم:

- ماذا تقصد يا سيدي؟.

أغمض الرّجل جفنيه في ألم وقال بنبرة بدَا فيها إحساسه بالنّدم:

- على الرغم من أنّ مرضي الأخير قد سَلبني البصر، إلا أنّ بصيرتي قد تكشفت وانجلت بصورة لم أكن أتصوّرها، أتعلم يا حَمْزة أنّ لكل إنسان منا اختبارا عليه أن يخوض غِماره في هذه الحياة، بتُّ الآن أدرك أنّ طموحِي الجامح كان هو ذلك الاختبار، تمامًا مثلك، ولا أُريد لك أن تلقى ذات المصير الذي لاقيته.

تحدّث «حَمْزة» بهدوء بعدَ أنْ تمالك نفسه وجمع شتاتها:

- وما بال مصيرك يا سيدي؟!، لقد خلّفت وراءك إرثًا هائلاً من العظمة والمجد.

ارتسمتْ على شفتي الرّجل ابتسامة حسرة وهو يقول:

مكتبة عابث الالكترونية

- ذاك ما يصوره لك عقلك الهش بعدَ أن استحوذت وسيطرت عليه طموحاتك، لكن الحقيقة أنّني لم أذُق طعم الرّاحة مُنْذُ أن تبعت ذلك الطّموح، أصبحت كالفرس البري الجامح حينَ ينزع عن رأسه لِجامه، أصهل وأجري في كل الاتجاهات دون أن يقودني ما أفعل لشيء معلوم في نهاية الأمر، لم يتسبب لي ذلك الطّموح في أي شيء سوى الخسارة والنّدم.

صمت الرّجل قليلاً بعدَ أنْ اجتاحته نوبة شديدة من السّعال كادَ أنْ يلفظ معها أنفاسه، سحبَ شهيقًا قويًا وقال بنبراته الواهية:

- اعلم أنّك إنْ أكملت هذا الطّريق فلن تذق طعم الرّاحة أبدًا، لن يُغمض لك جفن، سيفارقك النّوم إلى الأبد، ذلك الموت الأصغر الذي نختم به حياتنا كل ليلة، يصلح ما تفسده الهموم والأحزان، يغسل أوجاعنا ويضمد جراحنا، يقوينا ويعيننا على تحمل صعاب الحياة وشقائها.

داهمته نوبة السّعال من جديد فالتزم الصّمت بعدَ أن انتهت، وأخذ يلهث بشدة محاولاً السّيطرة على أنفاسه المتقطعة.. تأمل «حَمْزة» ما آل إليه حال الرّجل لفترة من الزمن، طالت حتّى قطعها بأن قال بنبرة راجية:

مكتبة عابث الالكترونية

- بحق السّماء يا سيدي، هل لك أن تعود عما قررته؟.

ارتسمت على شفتي الحكيم شبح ابتسامة باهتة وهو يقول بنبراته الوهنة الضعيفة:

- مُنذُ أن تركت حجرتك قاصدًا مكاني وأنت تعلم أنّي لن أفعل، فامض لحال سبيلك إنْ شئت، أو افعل ما أتيت من أجله.

أغمض «حَمْزة» عينيه في ألم وهو يعض على شفتيه من الحزن، حينَ فتح جفناه كانت الدّموع تنهمر من عينيه بغزارة، بهدوء شديد مدّ يسراه تكمّم فم الحكيم، ارتفعت يمينه بالخنجر في الهواء فوق صدر الرّجل، قال بنبرة مُتهدّجة:

- سامحني، أرجوك.

أزاح الحكيم يده من فوق فمه برفق، قال بعدَ أنْ رَبت عليها بحنان:

- أمّا عني فقد سامحتك، لكن لتكن الأقدار رحيمة بك، فمُنذُ تلك السّاعة لن تعرف للراحة سبيلاً، لن تجد لك السّعادة طريقًا، لن...

لم يكمل المسكين عبارته بعدَ أن شهق بعنف حينَ اخترق النّصل الحادّ صدره فجأة، كانت طعنة واحدة فقط، لكنّها كفيلة بأداء الغرض منها.. أخذ جسده العليل ينتفض قليلاً

مكتبة عابث الالكترونية

حتّى خارت قواه تمامًا بعدَ أن خمدت أنفاسه وسكنتْ حركاته إلى الأبد.. انتزع «حَمْزة» النّصل المُخضّب بالدّماء من صدر الرّجل بيدٍ مُرتعشة.. أخذ يُجيل بَصَره ما بين النّصل بعدَ أن انطفأ بَريقه واصطبغ باللّون الأحمر والجسد النّازف بدماء الحكِيم، اتّسعت عيناه عن آخرهما في ذُهول غير مُصدق لِما اقترفته يداه من غدرٍ وإثم.. سقط على ركبتيه بجوار الفِراش يبكي وينتَحب في حرقة، أخذ يردد في ذُهول:

- لا يمكن!!، لستُ أنا، لم أفعلها.

عَفّر وجهه في تُراب الحُجرة حينَ سجد برأسه على الأرض يبكي ندمًا، يصرخ ويصيح في جنون محدّثًا الجسد الخامد قرب رأسه:

- لماذا لم تعد في قرارك؟!، لماذا أصررت على دَفعي لما فعلت؟!، آآآه يا سيدي.

فجأة خُيل إليه أنّه يسمع صوتًا يُحادثه في الحُجرة، كان الصّوت مجهولاً يصدر من كلِ اتّجاهات الحُجرة، كان أشبه بالطّنين الحادّ يسيطرِ على كل حيِّز فراغها.. التزم الصّمت بعدَ أن انتفض جسده مرتعبًا وهو يشهر خنجره، يصوّبه في كل الاتّجاهات باحثًا عن مصدر ذلك الصّوت، لكنّه لم يجد أحدًا بخلاف الجسد المُسَجّى بالقُرب منه.. عاود الصوت

مكتبة عابث الالكترونية

الحديث من جديد لكنّه بات أكثر وضوحًا هذه المرّة، بدا آتيًا من خلفه حين قال:

- من الآن لن تهنأ في هذه الحياة أبدًا.

ردّ «حمزة» على الفور وهو يتلفّت خلفه في ذُعر باحثًا عن مصدر الصّوت:

- مَن أنت؟!، وماذا تريد مني؟!.

رد الصّوت مجددًا بعدَ أن سمعه يأتيه عن يمينه:

- ملعون أنت في حياتك وفي مَماتك ملعون، لن تحكم العَشيرة أبدًا، أبتر أنت في هذه الدّنيا وسيكون الحُكم لذُرية مَن تقتل.

ازداد رُعبه وهلَعه وهو يُدير جسده جهة اليمين ويقول:

- ماذا تقول؟!، اكشف عن وجهك إنْ كنت رجلاً.

عاد الصّوت يقول بلهجة أكثر حدّة:

- أتظنّ أنّك ستفلت بفعلتك هذه من العِقاب؟!.

أجاب «حَمزة» بتردّد:

- عسى أنْ ترحمني السّماء أو تغفر لي.

أتاه الصّوت من جهة اليسار وهو يقول بنبرة متوعدة:

مكتبة عابث الالكترونية

- السّماء بالفعل غفورة رحيمة، لكن ليس بأمثالك.

صرخ «حَمْزة» بأعلى صوته:

- لكن هذا حرام، حرام.

جاءه الصَّوت هذه المرّة من جهة جسد الحكِيم المُسَجّى حينَ سمعه يقول:

- وهذا الذي فعلت، أليس حرامًا؟!.

إنهار «حَمْزة» تمامًا وألقي بجسده على الأرض بعدَ أن أيقن بهلاكِه ولعنته أبدَ الدهر.. تنتابه أحاسيس الحسرة والنّدامة، بدأ يفكر في طريقة يُكفّر بها عن تلك الخَطيئة التي لا يمكن أنْ تُغتفر.. حدّث نفسه بأنّه ينبغي عليه أنْ يُخبر «يَحْيَى» بما قد فعل، وليترك له الحكم والقَرار.. ولِمَ لا؟!، ألَمْ يُوكل له الحكِيم أمر العَشِيرة من بعده؟!..

- ماذا فعلت يا سيدي حَمْزة؟!.

أفاق من ذُهوله على صوت الخَادِم المُكلّف برعاية الحكِيم يقف مبهوتًا عند مَدخل الحُجْرة، بعدَ أَن قال عبارته الأخيرة.. لم يجد ما يردّ به عليه سِوى أنْ قال بنبرة مرتعشة ونظرة مرتبكة:

- لستُ أنا!، لم أفعل شيئًا.

مكتبة عابث الالكترونية

اتّسعت حَدَقتا الخَادِم من الذُّعر وهو يقول:

- لابدّ أنْ أبلغ سيدي يَحْيَى بما رأيت حتَّى يتصرف.

إنهار «حَمْزة» في مكانه وسالت دموعه بغزارة وهو يقول مُترجيًا:

- أرجوك، لا تفعل، توقف بحق السّماء.

كأنّه لم يسمع مقالته، تجاهل الخَادِم عبارته والتفت مُغادرًا الحُجرة.. إلا أنّ «حَمْزة» هبّ من مكانه واقفًا وانقضّ على الخَادِم من ظهره قبل أن يخرج مُغادرًا، كَمّم فمه بيسراه ثم بسرعة بالغة أعمل بيمينه نصل خنجره في رقبته.. ندّت عن الخَادِم المسكين حشرجة خفيفة، انتفض بعدها جسده بين ذراعي «حَمْزة» عدّة مرّات قبل أن يتهدّل ذراعاه بجوار جسده السّاكن دونَ حِراك بعدَ أن أسلم الروح..

كاد «حَمْزة» أن يفلت جسد الخَادِم، يسقطه أرضًا بعدَ أنْ خَارت قواه وتخدّلت ذراعاه، إلا أنّه تمالك نفسه سريعًا وأنامه على الأرض بهدوء بعدَ أن أصابه الذُّهول من منظر الدّماء الغزيرة وهي تَسيل من جرح رقبته.. كان لونها قانيًا داكنًا غريبًا، أخذت تقترب من مكانه شيئًا فشيئًا، تراجع إلى الوراء قليلاً لكنّها بدت مصرّة على الاقتراب منه، كلما حاول الابتعاد أكثر، كلما ازداد اقترابها أكثر.. فجأة بدأ جسده

مكتبة عابث الالكترونية

ارتعش بشدّة، غامت الدُّنيا أمام ناظريه، بعدَ أن فقد القدرة تمامًا على التّحكم في نفسه.. سمع أصواتًا كثيرة مُتداخلة تصمّ أذنيه، طنينًا حادًّا مُرتفعًا لَم يكن قادرًا على تمييز ما يقول، لكنّه كان يشعر أنّه يلعنه بكل أشكال اللعنات.. وضع كفّاه على أذنيه وهو يتلفّت حوله كالمجنون، أطلق لساقيه العَنان بعدَ أن استبدّ به الفزع وهو يركض عائدًا لحُجرته فارًّا من تلك الأصوات الملعونة..

طوال الطّريق إلى حجرته كان يجري كالرّيح المُرسلة، يلتفت خلفه بين كل فَينة وأُخرى، خوفًا من تلك الأصوات التي لم تتوقف عن مطاردته، كان يردّد صارخًا:

- لستُ أنا، لم أفعل شيئًا.

اندفع بقوة إلى داخل الحُجرة مخترقًا أستارها وهو يلهث بشدة، ألقى بجسده على الأرض في عنف، أخذ يخلع عنه درعه بعدَ أن ازداد تلطخه بالدّماء، كان يشعر بسخونة رهيبة تنبعث من هذا الدرع، كأنّ الدّماء السّاخنة التي أُريقت ولطّخته قد حولته لأتون مُستعر بنيران الجحيم.. رمى الخنجر بعيدًا عنه في ركن بعيد من الحُجرة وهو ينظر إليه في رُعب.. انتفضت «زينب» من على الفِراش واقفة بعدَ أن أذهلها رؤيته على هذا النّحو، اقتربت منه ببُطء وهي تُخاطبه بنَبرة حاولت أن تبثّ من خلالها الطّمأنينة إلى قلبه الملتَاع:

مكتبة عابث الالكترونية

- ما الأمر يا حبيبي؟!، هل انتهى كل شيء على ما يرام.

كأنّه لم يسمعها، تجاهلها تماماً، مضى يتلفّت حوله في ذُهول وفزع بعدَ أن اتّسعت حَدقتاه عن آخرهما. جثت «زينب» على ركبتيها بجواره على الأرض، احتضنته بشدّة، قالت وهي تمسح بيدها على رأسه الذي أخذ ينتفض تحت كفها:

- حَمْزة، حبيبي، لا تخف، اقصص عليَّ ما جَرى.

انتبه «حَمْزة» لها وبَدَت عيناه ذَاهلة تماماً حينَ قال بارتباك وذُعر:

- قتلته، رَبَتَ على يدي، ذلك الخَادِم، حَزت عنقه، ملعون أنا، لن أذق طعم الرّاحة أبداً.

احتضنته بقوة أكبر، طبعت على رأسه قُبلة حانية وهي تقول:

- هوّن عليك يا حبيبي، لقد سارت الأمور كما خطّطنا لها تماماً.

رفع رأسه صوبَ وجهها وقال بعدَ أنَ بلّلت عيناه الدّموع:

مكتبة عابث الالكترونية

كلا، صدقيني، لن تكون الأمور على ما يُرام مُنْذُ هذه اللّحظة.

أبعدَته عن دفء صدرها، نظرت إليه في قوة وقالت بنبرة صارمة:

ما بالك يا حَمْزة!!، تمالك نفسك، ليست هذه الفِعلة هي أول عهدك بالدّماء.

أشاح بوجهه بعيدًا عن نظراتها النّافذة ثم قال:

- لكنّها تختلف، في كل مرّة كان لدي الدّافع والواعز الذي يحرضني على إتمام الأمر، واعز أخلاقي يهدئ من ثورة نفسي، أما الآن فلا أرى سوى الدّناءة والحقارة تقطران من نفسي الدّميمة بمقدار كل نقطة دماء أراقها نَصل خنجري الملعون.

اقتربت منه مُجددًا، قالت وهي تمسح على خده:

- لا تقلق يا حبيبي، ستألَف نفسك ذلك، فقط في البداية يكون الحزن والبكاء ثم تجئ بعدَهما الأُلفة والاعتياد حينَ نجني الثّمار، تلك هي طبيعة البَشر.

التفت صوبَها، قال بنبرة حزينة:

مكتبة عابث الالكترونية

- عن أي بشر تحدثين!، ما فعلته أخرجني من عِداد البَشر.

انتفضتْ واقفةً في حدّة بعدَ أن أغضبتها عبارته الأخيرة، قالت بنبرة متُبرمة:

- وماذا كنت تحسب أنّك فاعل لإيقاف ما كان ينتويه هذا العجوز الخرِف؟!، إنّك لم تفعل سوى ما تطلبته الظّروف لتحقيق أحلامنا.

أطرق برأسه إلى الأرض ولم يُعقب، أكملت هي حديثها محاولةً التّسرية عن نفسه:

- دَعْ عنك تلك التُّرهات، أخبرني ما فعلت بالجثتين.

أجاب دونَ أنْ ينظر نحوها:

- لم أفعل شيئاً.

جن جنونها وصاحت فيه بحدة:

- ماذا؟!، هل تركتهما في الحُجرة دون أن تخفيهما؟!.

نظر لها بضيق وهو يقول:

- وماذا كنتِ تريدين مني أن افعل؟!.

أدارت جسدها بعيدًا عنه، وضعت كفيها على وجهها تندُب سُوء طَالعها وهي تقول:

مكتبة عابث الالكترونية

- مال لهذا الحظ التعس يُلاحقني في كل شيء؟!، لماذا لا تسير الأمور وفقًا لِما أريد؟!.

تجاهلها «حَمْزة» تمامًا كأنّها لا وجودَ لها، في حين أكملت هي حديثها مع نفسها، بدت كالمجنونة حينَ راحت تبرح الحُجْرةَ ذهابًا وإيابًا وهي تصرخ:

- لابدّ من أنّهم قد كشفوا أمرنا، لن يغفر لنا يَحْيَى ما فعلنا، سيقوم أهل العَشِيرة بإحراقنا أحياء.

ظلّ «حَمْزة» على حاله من الوُجُوم لا يتحرك من مجلسه، في حين اقتربت منه «زينب» ممسكة بتلابيبه في عنف، أوقفته على قدميه وهي تقول له في قسوة:

- يجب أن نتصرفَ سريعًا قبل أن ينفضح أمرنا، تلك هي فرصتنا الأخيرة لتحقيق حلمنا.

أجابها بضيق ونفاذ صبر:

- وماذا تظنّين أنّي فاعل؟!.

صمتت لِبُرهة ثم قالت بعدَ طول صمت بنبرة بدَت أنّها خارجة من قاعٍ سحيق:

- نقتل يَحْيَى.

****

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

(١٠)

.. يقظة ..

«حَمْزة، حَمْزة»..

تردّد صوت هامسٍ أخذ يُكرر هذا الاسم في أُذنيه لفترة طويلة حتّى استحوذ صداه على عقله فلم يعد يسمع شيئًا غيره، كان لوقعه أثر غريب على نفسه، أحاسيس عديدة متضاربة اختلجت بها مشاعره، محبة وكراهية، لين وغضب، تسامح وانتقام.. اختفى هذا الصّوت فجأة كما بدأ دون سابق إنذار، وساد صمت مطبق لفترة وجيزة.. بعدها ترامي لسمعه أصواتٍ كثيرة متداخلة، لم يتمكن من تحديدها بجلاء.. كانَ يشعر بضغط كبير يسبب له ألمًا حادًا في أذنيه، ثقل ضخم يجثم على صدره يوشك أنْ يهشم ضلوعه، بات غير قادر على التّنفس، يكاد أن يختنق..

أين الهواء!!..

مكتبة عابث الالكترونية

كان يتحرك في كل اتجاه محاولاً استنشاق أي قدر ولو ضئيلٍ من الهواء، لكن دون جدوى، فتح عينيه سريعًا محاولاً إبصار مكانه، شَهِق بحدّة من هول المفاجأة، كان قابعًا في قاع المَغْطَس الخشبي الكبير..

حاول السّباحة نحو سطح ماء المَغْطَس لكن محاولته باءت بالفشل، سرى في صدره ألم غاشم عصف به من جرّاء نقص الهواء.. تلفّت حوله في اضطراب بالغ بعدَ أن بدا له أنه لم يعد أمامه الكثير من الوقت، كان يحاول الوصول إلى جَدار المَغْطَس للتّشبث به كي يتمكن من تسلقه للأعلى، لكنّه لم ينجح في مَسعاه، بات الضّغط على رئتيه قويًا للغاية، أوشك صدره على الانفجار، جَحظت عيناه بشدّة وهو يحرك ذراعيه في عشوائية وهَلع كطفل صغير أصابه الذُّعر حينَ أوشك على الغَرق بعدَ أنْ سقط في الماء.. فتح فمه لا إراديًا بحثًا عن قدرٍ ضئيل من الهواء فاقتحم الماء جوفه بقوة، أغلقه سريعًا محاولاً الاحتفاظ بذلك القدر البسيط من الهواء في صدره أو على أقل تقدير لكسب المزيد من الوقت حتى يجد وسيلة للنجاة..

من بعيد وفي وسط عتمة المياه لاحَ له طيف يجلس في الأسفل، رابضًا على أرضية المَغْطَس، فتح عيناه بشدة محاولاً تَبيّن ملامحه، خَالجه شعور خَفي أنّه قد رآه من قبل، أنه يعرفه، حاول السّباحة نحوه فاستطاع، تملكته الدَهْشة من

مكتبة عابث الالكترونية

قدرته على السّباحة في اتجاه ذلك الطيف رغم عدم تمكنه من الصعود لسطح الماء.. تغلّب على دهشته سريعًا واقترب من الطيف قليلاً، كان رجلاً يماثله في الحجم تقريبًا، ينظر للناحية الأخرى فلم يتمكن من تحديد ملامحه.. دنا منه أكثر، مدّ كفه يمسك بكتفه، أخذ يهزّها بعنف طلبًا للمساعدة، التفت الرّجل صوبه فهاله ما رأى، تراجع سابحًا للخلف في حدّة بعد أن تملّك منه الفزع.. كأنّه كان ينظر إلى نفسه، كان هذا الطيف يشبهه تمامًا، له ذات الجسد ونفس الملامح، لكن شيئًا ما في عينيه بدا له مختلفًا، كانت نظراته هادئة غريبة غامضة.. لفترة بقي متسمّرًا في مكانه بلا حِراك بعد أن أعيته المفاجأة، تحوّلت نظرات الطّيف الهادئة إلى الغضب، بدا عليه غضب شديد عاصف مدمّر، أخذ يحرك شفتيه كأنّه يقول شيئًا لكن الماء حال دون سماعه لها.. هزّ رأسه يمنةً ويسارًا في أسف وهو يرميه بذات النّظرات المستعرة، ازدادت سرعة حركة رأسه وهو يشير بإبهامه إلى سطح المغطس ثم استكان جسده فجأة وشخصت عيناه إلى الأعلى..

أصاب الهلع «يحيَى» بعدَ أنْ شاهد طيفَه يموت أمامه، أخذ يحاول التحرك كالمجنون سابحًا نحو الأعلى في سرعة بالغة وهو يجاهد تلك الآلام الحارقة التي استحوذت على كيانه بعدَ أن اصطلت بها رئتاه، لكنّه كان كالمكبّل بأصفاد من صخر

مكتبة عابث الالكترونية

صلد.. بعدَ جهد جَهيد وقبل أن تخرج أنفاسه إلى الأبد تمكّن أخيرًا من التّحرك جهة السّطح، أخرج رأسه من الماء في قوة وهو يشهق بعنف.. سمع صوت «دليلة» تصرخ عاليًا «تماسك يا يحيى»..

- هل أنت بخير يا بني؟!، بني!!، استيقظ رجاءً!.

فتح «يَحْيَى» جفنيه المُتثاقلين بصعوبة شديدة، ألَمٌ فظيع يعصف بجسده كله، عظامه ثقيلة للغاية لا يقدر على تحريكها، زاد من ألمه تلك العتمة الحالِكة التي غرقت فيها عيناه حين فتحهما فلم يبصر بهما شيئًا.. فَاجأه وجعٌ رهيبٌ في مؤخرة رأسه، مد يده يتحسس موضعه، أحسّ دماءًا متجلّطة على جرح غائرٍ، تذكّر حينَ ضربه أحدهم على رأسه فانتفض في مكانه جالسًا وهو يفرد ذراعيه أمامه في خوف وهلع.. سمع صوتًا واهنًا يحدّثه قائلاً:

- هل أنت بخير يا بني؟!.

صرخ «يَحْيَى» بصوت مُرتفع:

- من أنت؟!، أين أنا؟!، أين دليلة؟!.

أجابه صاحب الصّوت الوَهِن:

- لا أعلم من أنت، لقد أتوا بك مُنْذُ ليلتين، كنت مغشيًا عليك طيلتهما، انتابتك حُمى من نوع غريب،

مكتبة عابث الالكترونية

أصابتك تشنّجات مُرعبة، كنت تهذي وتصرخ طوال تلك الفترة، تنادي باسم دليلة.

سأله «يَحْيَى» بحذر:

- وأين هي؟!.

أجابه الصَّوت الوَهِن:

- يا بُني، إنْ كنت أعلم لما تأخّرت عن إجابتك.

سأله مُجددًا وهو يتلفت حوله في هلع محاولاً استكشاف هذا المكان وسط الظَّلام الدَّامِس:

- أين نحن الآن؟!.

أجابه صاحبه الوَهِن بنبرة يائِسة:

- أظنّ أنّنا في إحدى زنزانات القَبْو.

امتقع وجه «يَحْيَى» رُعباً وقال بصوت مُرتعد:

- أتقصد أنّنا في القَلعَة؟!.

أجابه الصَّوت الوَهِن:

- نعم، مع الأسف نحن في أسوأ مكان فيها.

مكتبة عابث الالكترونية

حاول «يَحْيَى» الوقوف لكن دوارًا أصاب رأسه كاد أن يُوقعه جعله يتريث قليلاً قبل أن يُقدم على تلك الخطوة.. سأل صاحبه وهو يضع يده على مؤخرة رأسه في ألم:

- وما بال هذه الظُّلمة الحالِكة؟!.

أجابه بصوته الوَهِن:

- نحن في زِنزانة لا نافذة لها، ليس لها سوى باب معدني صَلب به كُوّة وحيدة، تفتح حينَ يطلبنا أحدهم أو في وقت الطّعام والشّراب، وحتّى إن فُتحت فنحن الآن في أيام الظّلام العشرة.

ساد الصّمت بينهما حتّى قطعه الرّجل ذو الصّوت الوَهِن:

- مَن أنت يا بُني؟!، أخبرني.

- لا أذكر شيئًا، فقط أعرف أن اسمي يَحْيَى.

أجابه «يَحْيَى» بنفاذ صبر، في حين سأله الرّجل من جديد:

- من أي العشَائِر أنت؟!.

تأفف «يَحْيَى» في ضَجر وهو يقول بضيق:

- قلتُ لك لا أذكر شيئًا عن ماضي، لكنّهم قالوا لي أنّني من عشيرة تُدعَى الوَسَطيين.

خرج صوت الرّجل قريبًا جدًا من أُذنه حينَ سأله مُجددًا:

مكتبة عابث الالكترونية

- وما بال تلك التّشنجات الّتي تصيبك؟!.

صاح به «يَحْيَى» في حدّة:

- وما بال تطفلك أنت فيما لا يعنيك أيها الثرثار اللّعين.

قطع حديثهما صوت وقْع خطوات تقترب من باب الزّنزَانة فالتزما الصّمت، بعدَها سمعا صوت صَرير كُوّة الباب تُفتح بقوة، اندفع من خلالها بَصيص بسيط من الضّوء كان بالنسبة لهما كأنّه وهج متألق، وضعا كفيهما أمام أعينهما وهما يحاولان في فضول معرفة ما يحدث، جاءهم صوت هامس من خلف الكوة:

- يَحْيَى، يَحْيَى، هل أنت هنا؟!.

انتفض «يَحْيَى» واقفًا حينَ تعرّف على صوت «خليل»، اقترب من الباب مُتلهفًا وقال بصوت خَفيض:

- خليل!، أجل أنا يَحْيَى.

ساد الصّمت بعدَها لفترة وجيزة، شقّ سمعهما صوت مفتاح يُدار في قفل الباب، تراجع «يَحْيَى» إلى الوراَء خطوتين ثم ما لبث أنْ لانت ملامحه عَقِب أنْ أضاءت الزّنزَانة بضوء بَاهت لشعلة كان يحملها «خليل» في يده.. ما أنْ رآه «يَحْيَى» حتّى احتضنه بقوة وهو يقول في قوة:

مكتبة عابث الالكترونية

- دليلة يا خليل، لا أعلم ما أصابها، لابُدّ أنْ أساعدها، أنا المُتسبب فيما جرى...

قاطعه «خليل» بنبرة هادئة:

- تمهّل يا صديقي، اهدأ كي نستطيع التدبر.

أنهى عبارته السّابقة ثم أدار وجهه صوبَ الرّجل صاحب الصَّوت الوَهِن، كان الرّجل قابعًا في رُكن بعيد من الزّنزَانة مُلتصقًا بجدارها في خَوف، يرمق «خليل» بنظرات عبّرت عمّا يجول في نفسه من مشاعر الكراهية والبُغض.. تجاهله «خليل» تمامًا وأكمل حديثه مع «يَحْيَى» الذي لم يلتفت قطّ صوب رفيقه في الزّنزَانة:

- لقد أرسلتني سَيّدةُ العَابِدات للقائك، تريد أنْ تعلم إنْ كنتَ على استعداد للتعاون معها من أجل دليلة أم ماذا؟!.

عقَد «يَحْيَى» حاجبيه في دَهْشَة وقال من فوره:

- ماذا!!، بالطّبع أنا رَهن إشارتها، سأكون خادمًا مطيعًا لها ما حَييت، فقط دَعها لا تُؤذي دليلة.

أومأ «خليل» برأسه ثم قال وهو يهمّ بالمُغادرة:

- اختيار موفق يا صديقي.

مكتبة عابث الالكترونية

أمسك «يَحْيَى» بذراعه وهو يسأله مُتلهفًا:

- أين تذهب؟!، لا تتركني هنا وحدي.

رَبَتَ «خليل» على كتفه وهو يقول:

- لا تقلق، سأُخبر سَيِّدةُ العَابِدات حتّى تعدّ التّرتيبات اللازمة.

حينَ غادر «خليل» الزّنزَانة، بقي «يَحْيَى» واقفًا في مكانه بعدَ أنْ استعاد جزءًا من حيويته، بدأ يستعد للمُغادرة كما وعده صديقه، كان يُمَنّي نفسه بلقاء «دليلة» حينَ أفزعه صوت الرّجل الوَهِن يقول:

- هل سألتك عن الصُحُف؟!.

التفت «يَحْيَى» نحو صوته بحدّة وقال في دَهْشَة:

- كيف علمت بهذا الأمر؟!.

ارتسمت على شفتي الرّجل ابتسامة باهتة لم يلاحظها «يَحْيَى» في ظلام الزّنزَانة الدّامِس، قال الرّجل بنبراته الوَهِنة:

- لأنّي مَنْ خَطّها.

تلهف «يَحْيَى» لمعرفة ما بتلك الصُحُف علّه يجد ما يُسِرّ سَيّدةُ العَابِدات فتفك أسره، تصفح عن «دليلة»، اقترب

مكتبة عابث الالكترونية

من مصدر صوت الرّجل الوَهِن وقال بنبرة تشجعه على مواصلة الحديث:

- ماذا خطّطت بها؟!.

هز الرّجل رأسه أسفًا بعدَ أن فَطِن لمُراد «يَحْيَى»، لكنّه لم يُبال وأكمل حديثه مُستطردًا:

- خطّطت فيها كل شيء كنت أعرفه، أفنيت سنوات طوال من عمري أدوّن بها ما تعلمته عمّا كان قبل الكارثة، ذكرت فيها أسباب انحدار البَشر ووصولهم لهذا المُستنقع الضحل الذي يحيون فيه، ذكرت فيه ما تعلمته سابقًا من علوم الأقدمين، كل ما عرفته عن الضّمير، عن الحق، عن الأديان، عن الإله.

تعجّب «يَحْيَى» كثيرًا من مَقَالة الرّجل، فسأله:

- عن أي شيء تتحدّث يا رجل؟!.

أطرق الرّجل برأسه إلى الأسفل وقال بنبراته الوَهِنة:

- أتحدث عن الخالِق المعبود الذي خلق البَشر فسوّاهم، ثم ميزهم عن غيرهم بميزة لم يختص بها سِواهم، الضمير.

مكتبة عابث الالكترونية

غمغم «يَحْيَى» في نبرات عبّرت عمّا يجول بذهنه من أحاسيس متضاربة:

- إله!!، ضمير!!، وما يهم سَيّدةُ العَابِدات بتلك الأمور التي لم نسمع عنها من قبل؟!، ولماذا لا يستطيع أحدٌ قراءة تلك الصُحف عداكَ أنتَ؟!.

تردّد في الزّنزَانة نبرات صوت الرّجل الوَهِن حينَ قال:

- لم يتمكن أحد من قراءتها لأنّها مكتوبة بلغة قديمة عَفا عليها الزّمان ومُحيت من الصّدور، لم تَعد تُستخدم مُنْذُ حلّت تلك الكارثة بأهل الأرض، أمّا ما يهم سيدتك فهو إحكام السّيطَرة على عقول أهل القَلْعَة.

زَفَر «يَحْيَى» في ضيق وقال في ضجر:

- يبدو عليك الخرف أيها الرّجل الوَهِن، عن أي لغة قديمة تتحدّث؟!، وسيدتي لا تحتاج لإحكام سيطرتها على أحد فهي بالفعل لها كلمة مُطاعة وسَطوة نافذة.

أجاب الرّجل في وَهَن:

- أتحدّث عن اللغة العربية.

هزّ «يَحْيَى» كتفيه في لامبالاة وهو يقول:

- هذه وحق السّماء لغة لم أسمع عنها من قبل.

مكتبة عابث الالكترونية

قال الرّجل بصوته الوَهِن:

- لكنّها كانت هي لغة أجدادك الأوائِل.

لم يمهلهما الوقت إكمال حديثهما، فتح باب الزّنزَانة وبرز واقفاً على مدخلها «خليل» برفقة أحد الحرّاس، أومأ برأسه إلى «يَحْيَ» أن يتبعه، استوقفه الرّجل الوَهِن وقال:

- تذكّر يا بني، ما بين اختيار واختيار يَكْمُن سرّ الاختبار.

نظر «يَحْيَ» نحوه نظراتٍ مَليئة بالدَهْشَة بعدَ أنْ تعجّب لعبارته لكنّه لم يتمكّن من تَبيّن ملامحه لظلام الزّنزَانة الدّامِس ، لم يعُقّب وتبع «خليل» صامتًا، كان جلّ همّه يتمثل في مغادرة تلك الزّنزانة اللعينة وهذا القَبْو البغيض، بل والقَلعة برُمّتها..

وصلا إلى المَعْبَد بعدَ فترة وجيزة، كان «يَحْيَ» طوال الطّريق يسأل «خليل» عن أحوال «دليله»، طمأنه أنّها حبيسة غرفتها في المَعبَد، غير مسموح لها بالتّحرك أو مغادرتها.. قاده «خليل» إلى غرفة سَيّدةُ العَابِدات، حينَ وَلجها رآها وقد اعْتَرت ملامحها علامات القَلق والتّوتر.. خرّ ساجدًا أسفل قدميها إلا أنّها بادرته بحدّة:

- لا وقت لدينا لتلك الأمور، هل حزمت أمرك؟.

مكتبة عابث الالكترونية

أومأ برأسه موافقًا وهو يقوم واقفًا على قدميه، رَمَقته سيّدةُ العَابِدات بنظرة مُتعالية وهي تقول في صَلف:

- عظيم، اختيار ذكي، هات ما عندك.

اعترته الحيرة والدَهْشَة، أخذ ينظر نحوها وصوبَ «خليل» يتلّمس منه العَون في الإجابة، لكن بلا جدوى، بعدَ فترة أجاب بنبرات مُضطربة:

- ليس عندي شيء.

ارتسم على ملامحها أمَارات الغضب بعدَ أنْ عَقدت حاجبيها، إزْدَرد «يَحْيَى» لُعابه في خوف وقال بنبرات مُرتعشة:

- وحقّ السّماء لا أقول إلا الصّدق، لقد أخبرني خليل برغبتك سيدتي في أنْ أكون مُخلصًا لخدمتك وقد فعلت، لا أدري ما هو مطلوبٌ مني بالفعل، فقط عليك أنْ تأمريني وسيكون عليّ واجب السّمع والطّاعة.

انفرجت أسَاريرها ولاَنت ملامح وجهها، التفتت صوبَ «خليل» وقالت له بلهجة آمِرَة:

- أحضر دليلة.

مكتبة عابث الالكترونية

ارتعشت شفتا «يحَيَي» وهو لا يعلم ماذا تقصد بتلك العبارة، التفت صوبها يرميها بنظرات مترجية، على حين بقيت هي ثابتة في وقفتها ترمقه بنظراتها النافذة المخيفة ثم قالت:

- ماذا أخبرك زميلك في الزنزانة؟!.

وَمَضَتْ عينا «يحَيَي» ببريق الفهم وقال على الفور:

- لعلّ سيدتي تسأل بشأن الصُحُف؟!.

أومأت سَيّدةُ العَابِدات برأسها، فتهلّلت أساريره وأكمل قائلاً:

- أخبرني أنه هو من خطّ تلك الصُحُف، بلُغة قديمة سمّاها العربية، علمت منه أنه قد دوّن بها كل أخبار الأقدمين من البَشر، وذكر بضع كلمات لم أفهم ماذا تعني.

لمعت عيناها بومِيض عجيب وهي تقول له في لَهفة:

- ماهي تلك الكلمات؟!.

هزّ «يحَيَي» كتفيه في لا مبالاة وهو يقول:

- أظنّه ذكر كلمة حق، علوم الأقدمين، تكلّم بخصوص شيء عمّا أسماه بالضمير، كذلك ذكر كلمة إله.

مكتبة عابث الالكترونية

اقتربت منه سَيّدةُ العَابِدات وقد تملكتها فرحة غامرة، رَبَتَت على كتفه مُشجعةً وقالت:

- رائع يا يَحْيَى، حسناً، لقد أثبت ولاءَك حتَّى الآن، استعدّ للمرحلة القادمة، أمّا هو فسيكون لي معه شأنٌ آخر حتَّى يفسر لي تلك الصُحُف بوضوح تام.

أنهت عبارتها الأخيرة ثم تركته وحده في غرفتها، لم يَدر ماذا يفعل؟!، كان التّعب والإرهاق قد استبدّ بجسده من جرّاء تلك اللّيلتين القاسيتين اللّتين أمضاهما في الزّنزَانة البغيضة، كان جسده قد اعتاد الحياة التّرفة المُنَعمة.. لم يجد حلاً لإراحة جسده المُتعب سوى افتراش أرض غرفة سيّدةُ العَابِدات.. انتبه على صوت باب الغُرفة يفتح في هدوء، من خلفه ظهرت «دليلة».. كان باديًا على وجهها آيات الإرهاق الشّديد، عيناها جاحظتان حمراوتان، وجهها شديد الشّحوب وقد اعتَلته صُفرة واضحة، شفتاها غدتا باهتتين مُشققتين.. انتفض واقفًا يتقدّم نحوها في لَهفة وشوق، احتضنها بين ذراعيه فانخرطت المسكينة في نَوبة بكاء مَرير، رَبَت على رأسها في حنَان حينَ سمعها تقول:

- كنت أتمنّى أنْ أقابلك بابتسامة ووجه حَبُور، لكن يبدو أن روحي قد نسيت الابتسام، اعتادت على الألم والحزن.

مكتبة عابث الالكترونية

رفع وجهها نحوه وقال مصوبًا نظرات الحُب نحو عينيها:

- خففي عنك يا حبيبتي، سيعود كل شيء كما كان.

فرّت بعينيها من نظراته وقالت في أسى:

- ومن أخبرك أنّي أريد ذلك، لقد تعبت روحي من العذاب، وَهَنت من الذّل والقهر، لقد قست الحياة عليَّ طويلاً ولم أعد أطيق المزيد.

غَمْغَم «يَحْيَى» بصوت خافِت:

- إنْ كان في يدي لحملتك بينَ ذراعي وحلّقنا سويًا خارج هذه الأسوار الخانِقة.

نظرت مباشرةً في عينيه وقالت:

- بلى تستطيع.

امتقع وجهه حينَ أدرك ما ترمي إليه فقال بصوتٍ خَافت بعدَ أنْ تلفّت حوله في ذُعر:

- أجُننت، لقد عقدت اتفاقاً مع سيدتنا سنعود بمُقتضاه إلى ما كنّا فيه من نعيم مُقيم.

دفعته بعيدًا عنها وقالت بنبرة حانِقة:

مكتبة عابث الالكترونية

- أحمقٌ أنتَ إنْ ظننّت أنّها ستكتفي بما طلبته منك، إنّما تلك حلقة مُفرغة، ما إنْ بدأتها فلن تستطيع الفِكاك منها أبدًا.

أطرقَ برأسه إلى الأرض ملتزمًا الصّمت في حين أكملَتْ هي مُستطّردة بنفس النبرة الحانِقة:

- إنّها لا تعدو أنْ تكون إحدى حلقات هذه الحياة المشؤمة، إنْ تناسيناها محاولين التّطهر من دَنس الماضي وآثامه، أَبَتْ هي أنْ تنسانا، رفضت أنْ تتركنا ننعم بالرّاحة والطّمأنينة، أَبَتْ إلّا أنْ تُذيقنا المَرار الذي يغلي في مَراجِلها التي تفيض بالأحقاد.

نظر نحوها وقد بدأ يلين مقتنعًا برأيها، لكنّه آثر الصّمت مجددًا، استطّردت هي تكمل حديثها:

- لم تحسبها تهتم بتلك الصُحُف؟!، أراك تُخَالها ترغب في إصلاح أحوال أهل القَلعَة!، كلّا وألف كلّا، إنّما تريد أن تحكم في أمورهم، تسيطر على مقدراتهم، ترغب في إزاحة الأمير عن طريقها نحو كرسي الحكم، تلك هي حياتهم التي ارتضوها وهم أدرى بها منا، أمّا نحن فلنا حياتنا التي لم نحياها بعد، دعنا نذهب ونبدأ من جديد في مكان آخر لا يعرفنا فيه أحد.

قال «يَحْيَى» بصوت خافت:

- ولكن كيف؟!.

تهلّلت أساريرها فرحًا حينَ أحسّت بأنّه قد مال لرأيها، طبعت قُبلة حَانية على خده وقالت في جَزل:

- لا تقلق، سأعقد اتفاقًا مع سَالُومي، هي ستقنع خليل، سنتظاهر بقبول ما ستطلبه منا تلك الشّريرة ثم نتحين الفرصة للهرب.

سألها «يَحْيَى» في قلق:

- هل تظنين أنهما...

لم تُمهله وقاطعته:

- لا تخف، دَعْ الأمرِ على عَاتِقي، فقط لا تحدث مع أحد في الأمر، حتّى خليل.

ما أنْ أنهت عبارتها الأخيرة حتّى اقتحمت سَيّدةُ العَابِدات الغُرفة ترْفُل في ثوبها الفضفاض، كان برفقتها كُلاً من «خليل» و»سَالُومي»، رمتهما بنظرات غَير عابِئة ثم قالت في لهجة آمِرّة تخاطب «يَحْيَى»:

- هل أنتَ مُستعد؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

أومأ «يَحْيَى» برأسه صامتًا، رمته بنظراتها النّافذة وهي تقول في صرامة:

- حسنًا، اللّيلة ستقتل الأمير.

خيّم الصّمت على الحضور جميعًا بعدَ سماعهم لِمقالة سَيّدةُ العَابِدات، قطعه «يَحْيِي» حينَ قال في ذُهول:

- ماذا؟!، ولكن كيف؟!.

استدارت سَيّدةُ العَابِدات تنظر نحوَ «خليل» وقالتْ باطمئنان:

- لا شأنَ لك بهذا، فقط عليك اتباع تعليمات خليل، سأرسل دليلة إلى مَخدع الأمير كطلبه، سيرتب لك خليلٍ دخولاً آمنًا إليه، عندها وحينَ يكون الأمير غافلاً غارقًا في ملذاته اقض عليه.

تبادل «يَحْيَى» نظرات الحِيرة مع «دليلة» التي سارعت تخاطب سَيّدةُ العَابِدات:

- مَعذرة سيدتي، كنتُ أرِى لو أرسلتِي معي سَالُومي كي تنقر على الدّف، حتّى تسير الأمور وفقًا لطبيعتها المعتادة.

مكتبة عابث الالكترونية

صوّبت «سَالومي» نظراتها بدَهْشَة في اتجاه «دليلة»، في حين صمتت سَيّدةُ العَابِدات قليلاً تفكر فيما قالته «دليلة»، بعدَ فترة وجيزة هزّت رأسها موافقة وقالتْ:

- حسنًا، نِعم الرأي، ليكن ما قلت، والآن اذهب يا يَحْيَ لغرفتك، استرح قليلاً حتّى يأتيك خليل ساعة التنفيذ، وأنتما أيتها الفتاتين اذهبا كي تستعدا للقاء الأمير.

صمتت قليلاً ثم ضحكت ضحكة جلجل صدَاها في أنحاء الغُرفة وهي تقول:

- لقاؤه الأخير.

غادَر «يَحْيَ» غرفتها بعدَ أنْ ودّع بنظراته الحائِرة «دليلة»، تركها برفقة «سَالومي» على حين رافق «خليل» سَيّدةُ العَابِدات.. حينَ وصل إلى غرفته كان كل شئ بالنسبة إليه مُختلفًا، تحوّلت إلى قيد يكبّل روحه ويكتم أنفاسه.. بقي واقفًا عند مدخلها بعدَ أن تردد في فضائها صوت أخذ يردد:

- ما بين اختيار واختيار يكْمُن سرّ الاختبار.

- ما بين اختيار واختيار يكْمُن سرّ الاختبار.

مكتبة عابث الالكترونية

وضع كفيه على أذنيه يمنعهما من الإنصات لهذا الصّوت، لكن بلا جدوى، صرخ بأعلى صوته:

- لعنة السّماء عليك أيتها الهواجس الملعونة، من أخبرك بأنّي حر الاختيار، كفي عن ذلك الصّوت البغيض، فلتحظ ببعض من نصيبي ولنرى ما سيكون اختيارك.

لم تتوقف تلك الأصوات عن مهاجمة عقله فجاب ببصره الغرفة الصّغيرة وهو يصرخ في حدّة:

- فليذهب ذلك الاختبار إلى قعر الجحيم، عن أي اختبار تحدثين، ذلك الذي أكون فيه مجبرا على الذّل والهوان، كفي هذيانك عن عقلي أيتها الأصوات البغيضة، فلتفارقيني إلى الأبد، أتظنين أنك بحديثك هذا تمنعين الخطيئة.

بعدَ أن أنهى عبارته الأخيرة دخل في نوبة من الضّحك الهيستيري ثم أكمل صراخه:

- أو تدرين ما الخطيئة حقًّا!!، الخطيئة الحق التي يبقى فيها المرء يتجرّع مرارة الذّل ثم مع مرور الوقت يعتاد مذاقها ويرضى هوانها.

ساد السّكون أرجاء الغرفة تمامًا، اختفى الصّوت كأنّه لم يكن له وجود، بقي «يَحيَى» منتظرًا عودته لكن انتظاره كان

مكتبة عابث الالكترونية

دون طائل، رفع رأسه إلى الأعلى كأنّه انتصر على شخص يحدّثه وقال:

- لِمَ الصّمت؟!، أين ذهبت؟!، أتراك جَبُنت عن استكمال الجدال؟!، الويل للجبناء.

أفاق من خيالاته على صوت طَرق خافت يأتي من جهة باب الغُرفة، تحرّك على أطراف أصابعه في خفة حتّى وصل خلفه، قال بصوت خفيض:

- من الطّارق؟!.

أتاه صوت «خليل» هامسًا:

- هيا، لقد حان الوقت.

****

مكتبة عابث الالكترونية

(١١)

.. خَمْزة ..

هَـالَةٌ غَرِيبَةٌ مِن المشاعر المُتضاربة تلك التي تَستحوذ على كيانك وتَأسِره قبلِ أنْ تَرتكب جُرمًا أو خطيئة، تُسيطرِ على مُجريات حياتك وتُشكّلها، قَبلها تُوجد حياتك الباهتة يُسيطر عليها لَون رَمادي شَاحب، بعدَها يوجد هذا الظّلام المُعتم البائِس ومعه لا يوجد سوى لون واحد، أسود دامس كَئيب يلون بريشته البالية لوحة حياتك المُهترئَة.. تحاول أن تحذرك مّما أنت مُقبِلٌ عَلى السّقوطِ فيه مِن هوّةٍ حَالِكَة سَحيقة، تظل عيناك تُحدّقان فيها برعب وفزع، حتّى إذا ما سَقطت فيها لن تجد من ظلامها مهرباً.. تشعر حينَ تنظر للسماء وقتها أنْ غضبها قد نزل إلى الأرض ليَقُضّ مَضجعك، يَقضي على سلامك الداخلي ويُذهب شعورك بالأمان والرّاحة إلى الأبد..

مكتبة عابث الالكترونية

إنْ كان للظلام قوة غامضة مُخيفة، تبث في أجساد البَشر برودة الموت ورهبته حينَ تحيط بهم المخاوف والشّكوك فتختنق معها أرواحهم، إلّا أنّ ظلام تلك الهُوّة اللعينة يختلف.. ظلام دامِس لا تعرف معه معنى الزّمن، فيه تسمع وتنصت بوضوح إلى صوت نبضات الدّماء حينَ تسري في عروقك.. يتحوّل بعدَها هذا الظّلام إلى شَرَك يحاصرك ما بين العَتْمة والسّواد، حالة من الضّياع التّام تبقى معها أسيرًا في تيه لا مَهرب منه، تُحبس روحك خلاله في عالم الظّلال، فعلى الرّغم من تيقنك بأنّك ما زلت حيًا إلا أنك تشعر بزوال كل معالم الحياة من روحك، تفقد معها كل أمل ولو ضئيل في النّجاة..

كان هذا هو حال «زينب» وشعورها حينَ نزل الظّلام عليها فجأة كأنّه العتمة في قلب القَبْور، حينَ بدأت أيام الظّلام العشر كانت تقف كعادتها خلف النّافذة الحجرية الضّخمة في حجرتها ترقُب عودة «حَمْزة» من مهمته البائسة.. لكن في هذه المرّة كان إحساسها بكلٍ شئ قد اختلف، كانت مشاعرها قد تبلّدت تمامًا، باتت موقنة أنّ ما دفعته لفعله سيكون فيه هلاكهما سويًا، لكنّها كانت تعلم أيضًا أنه لم يعد هناك سبيل إلى التّراجع أمامهما..

نشط هبوب الرياح في عتمة الظلمة لحمل معه لأذنيها أصوات صرير العواصف، لكنّها لم تكن كأي من تلك الأصوات التي اعتادتها من قبل، كانت تجهل طبيعة هذه الأصوات التي تسمعها، أهي أصوات نحيب؟!، أم تراها صرخات الموت تسعى خلف ضحاياها تطلب المزيد؟!، خيل إليها أنها سمعتها تصرخ ويعلو صوتها ناعقًا:

- هلمّوا إلى أحضاني البائسة يا مَن حان موعدكم، وأنتم يا مَن تظنّون أنكم خالدون، أفيقوا!، أفيقوا من سُباتكم، انهضوا من نومتكم الهائِمة، واستعدوا ليوم الحصاد.

هزّت رأسها في عُنف طاردةً عنها تلك الهواجس والوساوس التي ما فتِئت تطاردها، تتلاعب بعقلها مُنذُ أن أوعزت لـ «حمزة» بقتل «يحيي» وعائلته حتّى لا يكون لهما منافسًا وشريكًا في مُلك العشيرة.. تركت مكانها خلف النّافذة وتوجّهت صوب قنديلٍ زيتي أضاءت شُعلته ثم أمسكت بيدها ذلك الإنَاء النّحاسي البيضاوي، تتأمل صورتها.. على ضوء تلك الشّعلة الباهتة المُتراقصة بفعل الرياح العَاصفة خارج الغُرفة، بَدت صورتها المُنعكسة على صفحة الإناء باهتة مُتموجة مُخيفة.. بدا كأنّها وجه أحد تلك المخلوقات السُفلية الملعونة، أو أحد وحوش الجحيم بعدَ أنْ فكّ أسره

مكتبة عابث الالكترونية

وحلّ وثاقه.. ألقت الإناء من يدها بعنف وحدّة، حدثت نفسها بصوت مسموع وقالت:

- لِمَ تبدو أفعالي مَليئة بالشّرور لهذا الحدّ؟، ألأني أبحث عن حياة أفضل تعوضني عمّا عانيته وقاسيته في الماضي؟، ثم مَنِ الذي قال أنّ أفعالي شَريرة؟، حقّا قد تَسببت في مَقتل البعض وسيُقتل غيرهما آخرون، لكن تلك هي طبيعة الأمور، فالتّدافع والتّناحر في الحياة هما ما يعطيان للنصر طَعم ومذاق خاص.

تحرّكت من جديد صوبَ مكانها المُفضل خلف النّافذة الحجّرية، سرحت بنظراتها إلى السّماء الغَارقة في عتمتَها الحالكة، ازداد انقباض قلبها، وتوجّست خيفة على مصيرها وحبيبها بعدَ أنْ رعدت السّماء وبرقت.. ندّت عنها تَنهيدة وآهة، خاطبت السّماء بتوسل:

- أيتها السّماء العلية، أسألك الرأْفة بحالي وحَال حَبيبي، لم نرتكب جرمًا حينَ طالبنا بحقنا الذي حاول الحكيم سلبه، كنّا طوال حياتنا خاضعين لسلطانه خَانعين لسطوته دونَ أنْ نُبدِي أي تبرم أو ضيق، على الرّغم من أنّه كان يُذيقني وأمي سوء العَذاب ومُر المُعاملة دومًا، ماتت أُمي مما لاقته من صنوف المهانة، كدت أنْ ألقى ذات المَصير لولا وجود حَمزة في حياتي،

مكتبة عابث الالكترونية

أيتها السّماء، ليس الجُرم هو ما ارتكبناه، لكن الجُرم هو أنْ نحتمل ونبقى في هذه المَهانة دُون أن نُحاول حتّى الحفاظ على كرامتنا، ذلك هو الجُرم حقًّا.

أنهت حوارها ثم انخرطت في بكاء مرير بعدَ أنْ دفنتْ وجهها بين راحتيها.. انتبهت على صوت يأتي من جهة باب الحُجرة، التفتت صوبه في حدّة بعد أنْ اعتراها شيء من الخوف والقَلق، كان «حَمْزة» واقفًا على عتبة الحُجّرة مُمسكًا بسيفين ملطخين بالدّماء، ترنّح في وقفته قليلاً ولاحتْ عليه أمارات عدم الاتزان، ارتسمتْ على وجهه علامات الذُهول، بدَتْ عيناه شاردتان زائغتان تنظران صوبَ شيء مجهول لا يراه سواه..

جَرتْ نحوه مُسرعة، تحاول أنْ تعينه على الوقوف بعدَ أنْ بدا كأنّه سيسقط مغشيًا عليه، لم يلتفت نحوها وقال بصوت ساهم:

- أعينيني على خلع هذا الدرع المشئوم.

سقط السّيفان من يديه أرضًا بعدَ أن خَارت قواه، وبسط كفيه في ضعف ووهن، لاحتْ من «زينب» نظرة خاطفة نحوهما، كان أحدهما تعرفه حق المعرفة فقد كان سيفه المَحفور عليه حروف اسمه، أمّا الآخر فقد كان محفورًا

مكتبة عابث الالكترونية

على مَقبضه اسْم «يَحْيَى».. أعملت تركيزها معه بعدَ أنْ علمت أنّه قد نجح في مهمته، تناست سريعًا ما كان يعتريها من أحاسيس الخوف والنّدم، كان جلّ همّها أن يُكتب لمخططها النّجاح، أن تتمكن من إعلان موت الحكِيم و«يَحْيَى» سريعًا قبل أنْ يكتشف أحد قتلهما.. كانتْ قد رتبت في ذهنها حَبكة تقصها على أهل العَشِيرة.. شدّت على يد «حَمْزة» بقوة وهي تقول بنبرة مُشجعة:

- الآن يا حبيبي، بقيت لنا خَطوة واحدة قبل تتويجك ملكًا للعشيرة.

نظر صوبها بنظراته الزّائغة ولم يعقب في حين أكملت هي تستطرد حديثها:

- سنخرج الآن لأهل العَشِيرة، نخبرهم أن يَحْيَى قتل الحكِيم طمعًا في حكم العَشِيرة بعدَ أنْ علم بنيته في إسناد الأمر لك، وحينَ علمنا بذلك اقتصصت أنت منه، وأعدّت لميزان الحق نصابه.

بدا «حَمْزة» تائهًا فاقدًا للزمن، لم يكن يسمع شيئًا ممّا قالته، كان بين فترة وأُخرى ينظر ليديه ثم إلى السّيفين الملقيين جَانبًا على أرضية الحُجرة.. أمسكته من يده وهي تجره خارج الحُجرة وتقول:

مكتبة عابث الالكترونية

- هيا، لا وقت للخذلان الآن، حانَ وقتُ جَني الثمار.

أنهت عبارتها الأخيرة ثم سحبته من يده بقوة، تبعها صامتاً خانعاً كالمسلوبة إرادته حتّى وصلوا إلى السّاحة التي تتوسط غُرف العَشِيرة حينها صاحت بأعلى صوتها:

- يا أهل العَشِيرة، هلمّوا إليَّ، قد جئتكم بنبأ لو تعلمون عظيم.

شرع النّاسِ يخرجون من حجراتهم تَتْرَى حتّى اكتظت بهم السّاحة بعد بُرهة، كانوا يتعجبون ويتساءلون فيما بينهم عن سبب هذا النّداء العَجيب الغير متوقع، أخذوا يتبادلون نظرات الحيرة فيما بينهم والهَمْهمات المتسائلة، حينَ قطعت «زينب» حيرتهم بصياحها:

- ماذا تقولون فيمن لم يحفظ الجميل؟!، ماذا تقولون فيمن خَان الكلمة والأمانة؟!.

بدا على أوجه النّاس أمارات الامتعاض والضّيق من حديثها فلم يكن الوقت يسمح بتلك الأقوال الرّنانة الجوفاء، إلا أنّ «زينب» كانت تقصد تمامًا أن توصلهم لتلك الحالة من الضّيق والتّوتر والشّغف، كي يكونوا متأهبّين لتصديق ما ستلقيه عليهم الآن.. صاحتْ بملء فيها في وجوه الحاضرين:

مكتبة عابث الالكترونية

- ماذا تقولون إنْ قلتُ لكم أن حَمْزة على استعداد لقتال أي عدو لكم؟!، على استعداد للموت فداء لكم.

ارتفعت صيحات الاستحسان من المتجمعين في السّاحة وهم يشيرون بأكفهم نحو «حَمْزة»، ارتفع صوت أحدهم يقول:

- سيفعل وحق السّماء.

ارتسمتْ على شفتيها ابتسامة رضا بعدَ أنْ أيقنت أنّ الأمور تسير وفقًا لخطتها وأكملت:

- وماذا تقولون لو أنه أخبركم أن بينكم خائنًا؟!.

علت همهمات الحضور ولاحت على وجوههم أمارات الاستهجان حينَ انبرى أحدهم صَائِحًا في غضب:

- ولِمَ يُخبرنا؟!، أولى به أن يدق عنقه ثم يخبرنا بعدَها.

عندها أمسكت «زينب» بيد «حَمْزة» ترفعها عاليًا وهي تصرخ هاتفة:

- قَد فعل.

سَاد السّكون التّام أجواء ساحة العَشيرة بعدَ أنْ التزم الحضور الصّمت، تجهمت وجوههم واعتلاها الوجوم، فقط أخذوا يتبادلون نظرات الحَيرة والدّهشة لكنْ دُون أن ينبس

مكتبة عابث الالكترونية

أحدهم ببنت شفة، بعدَ أنْ ألجمتهم الصدمة.. مضت «زينب» تتفرّس في وجوههم برهة من الوقت ثم قالت صائحةً:

- لعلّ ما سأقصه عليكم الآن سيكون مؤلمًا للبعض منكم، لكنّه بالتأكيد كان أشدّ إيلامًا لنفسي منكم، فمن اعتبرناه أخ كريم لم يكن كذلك، بل كان خائنًا للمشيئة والكلمة، كان خائنًا لسيدنا الحكِيم.

صمتت قليلاً تتفحص الوجوه، تُتيح لكلماتها الفرصة أنْ تؤتي مفعولها في نفوسهم، ثم قالت بنبرات كساها الحزن:

- تعلمون أن سيدنا الحكِيم في مرضه الأخير كان قد أوصى بولاية حمزة من بعده، لذا فقد اصطحبه معه في مجلسه الأخير لتجديد العهد والصلح بينَ العشائر والطوائف، لم نكن نتصور أبدًا أنْ يضمر يحيَى السوء لنا، بل الأدهى من ذلك أنّه قد أضمر الشر لسيدنا الحكِيم بعدَ أنْ فقد المسكين بصره وصحته، استغلّ الملعون ذلك وانقضّ عليه في فراش الموت سالبًا منه ومنا أغلى ما نملك، روحه الغالية.

أنهت عبارتها الأخيرة ثم أجهشت في البكاء، ارتمت علي صدرِ «حمزة» تنتحب في صوت مسموع.. كانَ أداؤها متقنًا بارعًا، تأثرت بعض النسوة بما تصطنعه من حزن فشرعن

مكتبة عابث الالكترونية

يبكينَ ويولولنَ، كان «حَمْزة» لا يزال مشدوهًا بما يسمع مذهولاً ممّا جرى.. كفكفت دمعها سريعًا ثم التفتت صوب الحضور وقالت:

- لا يعلم حجم مصابنا إلا السّماء، التي نسألها أنْ تتقبل فقيدنا وحبيبنا سيدنا الحكِيم.

رفع الحضور أكفهم إلى السّماء دَاعين ومؤمنين على قولها، كانت ترقبهم بعين خفية لكي تطمئن على سير مخططها وفقًا لما حدّدت مسبقًا.. حينَ أنتهى النّاس من الدّعاء للحكيم وقفتْ «زينب» أمامهم في قوة وشموخ وقالت بنبرة واثقة:

- لم يكن حَمْزة ليرضى أبدًا عن ذلك الفعل الخَسيس، انبرى للقاتل الدنيء وحزّ عنقه ثم قتل امرأته.

عَلا صَوت أحدهم يقول مُتسائلاً:

- وأينَ ذهب ابنه الرّضيع؟!..

لم تحر «زينب» جَوابًا فالتفتت تنظر صوبَ «حَمْزة» تلتمس عونه، تأملها مَليًا ثم قال بعدَ طول صمت بنبرة حزينة:

- لقد مات، قتلته أُمّه خوفًا من بطشي.

سرت هَمْهَمات بين النّاس قطعتها «زينب» حينَ صرخت فيهم قائلةً:

مكتبة عابث الالكترونية

- هلمّوا يا أهل العَشِيرة، نفذوا آخر وصايا سيدنا الحكِيم، بايعوا حكيمكم الجديد، أدّوا البيعة لحَمزة الحكِيم.

شَرع النّاس يصطّفون في صفوف، يتقدّمون صوبَ «حَمْزة» ثم يُقبّلون يمينه مُبايعين إياه على السّمع والطّاعة في السّلمِ والحرب.. كان «حَمْزة» يقف مادًا يده شاردًا ذاهلاً عمّا يجري من حوله، بينما وقفت «زينب» بجواره منتشيّة تنتفخ أوداجها فخرًا بنجاح مخططها، تتلقى التّهاني من نسوة العَشِيرة ..

انتهت مراسم تتويج «حَمْزة الحكِيم» بعدَ أنْ أصبح هذا لقبه الجديد، كان طوال تلك المراسم صامتًا شاردًا يبدو للنّاظر إليه كأنّه ما بينَ اليقظة والمنام.. سحبته «زينب» من ذراعه حتى عادوا إلى حجرتهم، قبل أن يدخلاها سحب «حَمْزة» ذراعه من يدها ثم انتحى جانبًا من الحُجرة، سَلك طريقًا خلفها وغاب لفترة استبّد فيها القلق بـ «زينب» بعدَ أنْ بدأت تلاحظ ما به من شرود وحالة عجيبة، خرجت للبحث عنه لكنّه فاجأها حينَ ظهر أمامها حاملاً بين يديه لفافة من القماش ضمّها بحرص إلى صدره.. اقتربت منه في دَهشَة حينَ سمعت صوتًا خافتًا يصدر من اللفافة، وقالت متسائلة:

- ما هذه اللفافة؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

لم يجبها «حَمْزة»، اقترب باللفافة من وجهها ثم كشف الغطاء عمّا بداخلها.. اتسعت عينا «زينب» عن آخرهما هلعًا ورعبًا، تراجعت إلى الوراء بضعة خطوات وهي تضع كفاها على فمها لمنعه من الصراخِ خشية افتضاح أمرهما.. ما لبثت أنْ جذبته من ذراعه حتى دَخلا إلى الحُجّرة فصاحت في وجهه بحدّة:

- ما هذا الذي فعلت؟!، الويل كل الويل لك.

ارتسمتْ على وجه «حَمْزة» علامات الحُزن والشّقاء وهو يقول:

- لم أستطع، لم أقدر على قتله.

نظرت له في غضب ودَهْشَة ثم قالت في صوت خافت وهي تتلفّت حولها:

- ماذا؟!، وماذا تريد أنْ نفعل به؟!.

ناولها اللفافة متعجلاً كأنّه يهرب منها، أشاح ببصره بعيداً عن الصّغير وقال:

- بعدَ أن قتلت يَحْيَى وامرأته همت بقتله، لكنّه نظر إليّ، رأيت عينيه البريئتين، كانت نظرته رائقة لكنها نافذة، اخترقت روحي بقوة كخنجر مسنون، لا أعلم ما اعتراني حينها، أهو خوف أم ارتباك أم ندم،

مكتبة عابث الالكترونية

أحسست أن يَميني قَد شُلّت، لم أكن قادرًا على تحريكها نحوه، حينها شرع الصَّغير في البكاء، لم أدر بنفسي إلا وأنا أبكي وأنتحب بجواره.

كانت «زينب» في ذلك الوقت ذَاهلةً عمّا حولها تمامًا، لم تسمع حرفًا واحدًا ممّا قاله، كانت تنظر مَشدوهة لوجه الصّغير الملائكِي بعدَ أنْ أخذ ينظر نحوها مُبتسمًا، يُداعب أنفها بسبابته الصّغيرة.. انتبهت على دموعها تنهمر غزيرة على خديها، فجأة احتضنت الصّغير بقوة بعدَ أنْ شعرت أنّ السّماء قد عوضتها أخيرًا عمّا حرمتها منه طويلاً، أخذت تغمُر الطّفل الرضيع بوابل من القُبلات المُختلطة بدموعها المُنهمرة.. كان «حَمْزَة» يتأمل ما تفعل بتعجب شديد، كانت مُنذُ لحظات ترغب في قتله والتّخلص منه والآن باتت تغمُره بكل هذا الحنان الجارف!!..

فجأة شعر بألم حادّ يخترق صدره، بعدَ أنْ شعر بثقل هائل يجثم فوقه.. حاول نزع درعه لكنّه لم يتمكن فصاح في «زينب»:

– النّجدة، يكاد هذا الدّرع أن يكتم أنفاسي، أعينيني على نزعه.

مكتبة عابث الالكترونية

تنبّهت «زينب» لما يحدث له فوضعت الصّغير سريعًا فوق الفراش ثم أعانته على خلع الدّرع من فوق صدره بعناء، كان «حمزة» يلهث بشدة وهو يحاول التّنفس بصعوبة.. ساعدته حتّى استلقى نائمًا فوق الفراش لكنّه سُرعان ما انتفض جالسًا وهو يصرخ من هول الألم الفَظيع، وبدأ في خلع ملابسه حتّى أصبح عاريًا تمامًا، ثَنى ركبتيه بالقُرب من صدره متكومًا حول نفسه كجنين صغير لا يزال في أحشاء أمّه.. بدأ جسده يرتجف وينتفض بشدّة، أخذ يصرخ مُجددًا صرخات مزّقت السّكون المُخيم على العَشيرة في هذا الوقت.. حملت «زينب» الصّغير بين ذراعيها بعد أنْ خشت عليه من حَركات «حمزة» العَنيفة المُفاجئة حينَ سمعته يصرخ بحروف مُرتعشة، بدا صوته خارجًا من قَعر سَحيق حينَ قال:

- دثريني يا زينب، دثريني، أشعر ببرد قارص، تكاد أطرافي أن تتجمد.

أسرعتْ «زينب» وهي تحمل الصّغير على كتفها تفتش في الغُرفة عن غطاء تضعه فوق جسده العَاري بعدَ أنْ أفزعتها رؤيته في تلك الحال، وجدت غطاءًا ثقيلاً كانا يستخدمانه في أشدّ اللّيالي برودة، وضعته فوقه إلا أنّ جَسده لم يتوقف عن الارتجاف والرعدة، كانت تسمع بوضوح صوت اصطكاك

مكتبة عابث الالكترونية

أسنانه ببعضها حينَ نظر لها بوجه باهت، قال بنبرة واهنة وحروف مُقطعة:

- أشعر بقلبي يوشك أنْ يتوقف عن الخفَقان، عقلي ينْشَطر إلى نصفين.

انهارت مقاومتها حينَ سمعت عبارته الأخيرة فأجهشت بالبكاء ومعها أجهش الصَّغير في البكاء أيضًا، انهمرت دموعها غزيرة على خديها، جَثت على ركبتيها بجواره وهي تخاطبه باكية:

- ليتني لا أعيش حتَّى أرى ذلك اليوم المشئوم، روحي فداءًا لك يا حبيب الرّوح وعشق القلب.

أغمض جفناه في ألم وهو يقول:

- لا أشعر بنفسي، أحسّ أنّني شخص آخر، بعضي يُمزق بعضي، لا أعلم ما يعتريني، ساعديني يا زينب.

أخذت تتلفّت حولها في ذُعر وهي لا تدري ماذا تفعل بعدَ أنْ اشتد بكاء الصَّغير، كانت تبحث عن أي شيء قد يُعينها على إنقاذ «حَمْزة».. لكنّها لم تجد.. هداها فكرها إلى أنْ تتجرّد من ثيابها تمامًا ففعلت، نامت على الفراش مُلاصقة لظهره بعدَ أنْ وضعت ذراعها الأيمن أسفل رأسه، تمنحه من دفء جسدها ما يُعينه على مواجهة تلك الحالة الغريبة التي لم

مكتبة عابث الالكترونية

تعهدها من قبل أبدًا، على حين وضعت الصّغير على ذراعها الأيسر بالقرب من صدرها..

مرّت فترة من الزّمن لا يعلمان مداها وهما على نفس تلك الحال، جسده مُمدّد على الفِراش يرتجف وهي تمِدّه بالدفء اللازم من جسدها، والصّغير يمسك بكفه الصّغير نهدها محاولاً التقامه في فمه الذي علا صراخه من شدّة الجوع..

كان «حَمْزة» قد أصابته غفوة فذهب في غياهبها، حينها قامت هي مسرعة تحاول أنْ تجدَ حلًّا لسد رمق هذا الصّغير الذي ازداد صراخه وبكائه، كان قد أُيقن بجفاف صدرها بعدَ أنْ نجح في التقامه أكثر من مرّة، أخذ يمتصه في إصرار دونَ أنْ يتحصل منه على شيء.. ارتدت ثوبها على عَجَل ثم مضت تبرح الحجرة حاملة الصّغير تُهدّهده علّه يهدأ ويستكين، كانت تتمنّى أنْ ترى في عينيه تلك النّظرة البريئة مرّة أخرى لكن الصّغير أبى أنْ يمنحها ذلك الضّحك النّوراني من جديد..

كان عقلها يعمل في سرعة محاولة التّوصل لطريقة إطعام هذا الصّغير، تذكّرت تلك الشّاة الموثقة خلف الحُجرة، كان «حَمْزة» يحب حليبها، هرعت إليها مسرعةً تحلب من ضَرعها ما تيسّر لها من حليب دافئ وضعته في قِدر خَشبي صغير.. افترشت أرضية الحجرة ووضعت الرّضيع في حجرها مقربةً رأسه الصّغير من صدرها، أخذت تضع أناملها في القِدر الخَشبي،

مكتبة عابث الالكترونية

تبلّلهم بالحليب ثم تضعهم برفق فوق شفتيه الرّقيقتين، تقطر له الحليب في فمه، كان الصّغير عنيدًا للغاية رافضًا لتلك الطّريقة، لكن شيئًا فشيئًا استكان بين ذراعيها وأخرج لسانه يتذوق ما تقطره له أناملها، شرب من الحليب قطرات يسيرة حتّى شبع، بدأت قسماته تلين وتهدأ، صدرت عن فمه أصوات غمغمة غريبة لم تعتدها أذنيها، لكنّها كانت أحب لنفسها من أي صوت سمعته من قبل.. أخيرًا نظر لها تلك النّظرة التي كانت في انتظارها على أحر من الجمر بعد أن إفتر ثغره عن ابتسامة رائعة أضاء لها وجهه بأكمله وهو يلهو بكفه الصّغير في نهدها.. ابتسمت «زينب» في جذل ثم سالت دموعها تنهمر على خديها وهي تقف حاملة الصّغير على كتفها، مضت تسير في الحجرة حتّى أصابه النّعاس فسكن جسده الصّغير بين ذراعيها.. أخذت تتأمل تفاصيل وجهه الرائقة الدّقيقة وهي تبكي، حدثته قائلة:

- سامحني أيها الصّغير، لم يكن أمامنا طريق آخر، أعدك أنْ أعوضك عن أي شيء تسببت في حرمانك منه.

انتبهت من نوبة هيامها في حب الصّغير على صوت صرخات «حمزة» مجددًا، كان يصرخ بعنف ملوحًا بيديه كأنه يقاتل أشباحًا تتراءى متجسدة أمام ناظريه، استمر على

مكتبة عابث الالكترونية

تلك الحال فترة، يصرخ ويتصارع مع أشباحه وخيالاته، ثم ما لبث أن خارت قواه وسقط في غفوته من جديد..

أعدّت له «زينب» قِدرًا به بعض الماء السّاخن، تصب منه مقدارًا بسيطًا في جوفه وتمسح ببعضه على جبينه في رفق وحنان، لكن حالته لم تكن تحسن على الإطلاق.. بعد حين انتفض من جديد صائحًا، يصرخ وينادي على «يحْيَى» و«إبْرَاهِيم الحكِيم» حتّى كادت أحباله الصّوتية أنْ تتقطع ثم ما لبث أنْ صمت فجأة، تساقط جفناه ليسقط معهما في ظلمات الموت الأصغر..

بقيت «زينب» طوال تلك الفترة مُستيقظة، بعدَ أن نهش قلبها القَلق واستبدّ بعقلها التوتر حتّى كادت أنْ تُجَنّ، توشك روحها أن تتمزق ما بينَ خوفها على «حَمْزة» وشغفها بذلك الوافد النّوراني الجديد.. لم تجد من سَلوى في ذلك الوقت سوى الوقوف خلف نافذتها الحجرية والنّظر إلى السّماء، تدعوها وتسألها العفو والشّفاء لـ «حَمْزة»، تشكرها على تلك الهبة التي طال انتظارها لها حتّى يئست..

حتّى كان ذلك اليوم الذي أتى بعدَ طول مُعاناة، بعدَ أن شارفت أيام الظّلام العشر على الانتهاء، في هذا اليوم فتح «حَمْزة» جفنيه ناظرًا حوله في ذهول.. كأنّه لا يتعرف

مكتبة عابث الالكترونية

على أي شيء مما حوله.. اقتربت «زينب» من وجهه لكنّه ابتعد عنها متراجعًا في الفِراش إلى الخلف، بدت على وجهه علامات الذُّعر والخوف.. اقتربت منه مُجددًا وهي تربت على ذراعه بهدوء وتقول:

- لا تخف يا حبيبي، لقد أصبح كل شيء على ما يرام.

نظر لها بقلق ظاهر وقال:

- ما الذي أصابني؟!.

ابتسمت «زينب» في وجهه ثم قالت:

- لا شيء، فقط بعض الحمّى، لكن نشكر السّماء على شفائك.

هزّ رأسه نافيًا وهو يقول:

- لا أقصد ذلك، لكن أسأل كم غبت؟.

قرنت «زينب» حاجبيها دَهْشَة وهي تقول:

- لم تغِب يا حبيبي، قد كنت بجواري على هذا الفِراش حتّى برئت من تلك الحمّى.

ظهرت على ملامحه آيات العِناد وهو يقول بصوت مرتفع:

- كاذبة، لقد كنت مع يَحْيَى وامرأته وولده.

مكتبة عابث الالكترونية

لم ترد «زينب» أنْ تذكّره بما يكره اشفاقًا بحاله فقالت له بابتسامة زائفة:

- صحيح، يبدو أنّني قد نسيت، لقد كنت معهم بالفعل.

فجأة، ندّت عن فمه حشرجة مُخيفة وشحُب وجهه بشدّة، بات شاحبًا كالموتى، بدأ جسده العَاري يتصبّب عرقًا بغزارة شديدة، تقلّصت عضلات وجهه في حدّة بالغة.. بدأ جسده يتلوّى وينقبض في حركات هيستيرية مُرعبة، أخذ فمه يَزبد ويرغي بعدَ أن شخصت عيناه إلى السّماء.. انتفض جسده من فوق الفِراش مطروحًا على الأرض بقوة.. ابتعدت «زينب» عنه بعدَ أن فزعت من هول المشهد، لكنّها سُرعان ما اندفعت نحوه تحتضنه بقوة بعدَ أن أخذ جسده يهتزّ هزّات متوالية مُخيفة، كان فمه يطلق صيحات مُرعبة كأنّ شياطين الجحيم تَصليه مُرّ العذاب وأقساه.. فتح فمه عن آخره بينما ما يزال جسده مستمر في الاهتزاز والانتفاض العَنيف.. لمحت «زينب» لسانه يتشنّج بشدّة، ملتويًا داخل فمه في اتجاه حنجرته، مدّت يدها سريعًا تعدّل من وضعه خوفًا من أن يختنق.. تركت جسده مطروحًا على الأرض ثم مضت تفتش كالمجنونة عن شيء تضعه في فمه، لم تجد سوى الخنجرِ المَعدني، وضعت مقبضه في فمه فعضّ عليه في قوة بالغة حتّى كادت أسنانه أنْ تتحطم، استمرت تلك الحالة فترة من الزّمن

مكتبة عابث الالكترونية

ظنّت خلالها «زينب» أنّها النّهاية، ثم أخيرًا اضتكان جسده وهدأ كالميت..

أراحت رأسه على الأرض بهدوء ثم وضعت فوق جسده العاري الغطاء الذي كان يلتحف به، مسحت ببعض ثوبها العرق الغزير الذي غطّى وجهه.. قبّلت جبينه في حُزن وأسى ثم دفنت وجهها في صدره، تبكي من الحسرة والألم على ما أصابه من مرض مجهول لا تعلم كُنهه.. أفاقت من حزنها على صوت بكاء الصّغير يصرخ عاليًا، هرعت إليه من فورها تحمله، أسرعت تقطر في فمه بأناملها من قطرات حليب الشّاة حتّى هدأت سريرته واستكانت ملامحه.. مضت تتأمّل قسماته البريئة بعينين باكيتين، أطالت النّظر إليها، تلتمس فيها ومنها الغفران والخلاص..

****

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

(١٢)

.. يحيى ..

وقتٌ طويل مُزعج هو ذاك الذي أمضاه «يحيَى» كامنًا في مخبأه داخل جناح الأمير، ينتظر الإشارة المتفق عليها مع «خليل» لبدء التنفيذ.. كان الزّمن يمر عليه بطيئًا للغاية مسببًا إحساسًا شديدًا بالضّيق، زاد منه ذلك العرق الغزير الذي أخذ يتصبّب من جسده وضربات قلبه التي باتت ترتعش دون سبب واضح.. كان يجاهد نفسه للسيطرة على صوت أنفاسه اللاهثة المضطّربة وتلك الارتجافة الشّديدة التي اعترت جسده المُضطّرب، بات يخشى أنْ تعاوده إحدى تلك النّوبات الملعونة فينكشف المستور، ينفضح أمره فيصبح نسيًا منسيًا.. حاول إلهاء نفسه وتجاهل خطورة الأمر، شغل نفسه بأشياء كثيرة تبتعد عمّا هو مُقدِم عليه، لكن دون جَدوى.. كان ما يُقلق باله حقًّا هو ذلك الشّعور البغيض

مكتبة عابث الالكترونية

الذي سيطر على عقله، إحساس مَقيت بالعجز، كان يشعر بأنه مُكبّل، ليس بأصفاد أو أغلال بل قيدٌ من نوع آخر أشد صَلابة ومتانة، كان يشعر أنّ جسده هو محَبسه الأليم.. تذكّر آلامه وشقائه وقت أنْ كان حبيس تلك الزّنزَانة المشؤمة، بعدَها حدّث نفسه أنّ كل ذلك الألم والشّقاء أمر طبيعي، لكن ما لا يمكن تحمله حقًّا هو ما يتجرّعه الآن من آلام سجنه الذّاتي..

كان يُفكر مُنذُ غادر غرفته برفقة «خليل» بعدَ أنْ أبلغه بالتحرك، أنْ كل شيء في هذه الحياة له مُقابل، الحرية لها ثمن، الحُب له ثمن، الكراهية، النّفوذ.. لا يوجد شيء بالمجان.. حتّى حُبه الوحيد لـ «دليله» ها هو ذا يدفع مقابله..

كانتْ رؤيته للأشياء قد تغيّرت بعدَ أنْ أخبرته سَيّدَة العَابِدات بما يتوجّب عليه فعله، أصبحت باهتة شاحبة، بل مُظلمة مُعتمة كتلك الظُّلمة التي تُحيط بأجواء القَلعَة وأهلها في هذا الوقت..

في عتمة ذلك المَخبأ الحالِكة ومع مَشقة طول الانتظار داعبته الآمال عَنْوة، خففت عنه عبء سنوات عمره المُكبّلة التي يئِن بحملها فوق كاهله، حلّقت به في فَضاءات رحبة فسيحة.. خُيلت له حياته مع «دليلة» بعد أنْ ينجح في إتمام فعلته، صورت له ظنونه غرفة صغيرة لسكناه معها، تتوسط

مكتبة عابث الالكترونية

حديقة غنّاء، تحوطها الأشجار السّامقة من كل جانب..
شاهد بعين خياله «دليلة» تعدو وتمرح في ظِلال تلك الأشجار الوارفة، ترتدي ثوبًا قصيرًا يكشف عن مفاتنها، تلوّح له بيدها ليدنو منها، يفتر ثغرها الوضّاء عن ابتسامة تُوارى الشمس خجلاً أمام ضيائها، يُمسك يدها الأخرى طفلٌ صغير آية في الجمال، تنضح ملامحه بالبراءة، يضحك معها بصوت رقص له قلبه.. لابد أنه ابنه!!، هكذا حدّثه نفسه حينَ أخذ يقترب منهما في سعادة بالغة..

انتبه من شروده وأحلامه على صوت ضوضاء صادرة من جهة مدخل جناح الأمير، كانت «دليلة» و«سَالُومي» قد حضرتا مرافقتين للأمير الذي كان يترنح في مشيته، بدا عليه التأثر الواضح مما عبّ في جوفه من خمر.. عبروا من أمام مكْمَنه دون أن يلحظوا ترصده، تعجب كثيرًا من عدم وجود أي حراسة حول الأمير على خلاف ما ألفوه عنه من اهتمامه البالغ بالحرّاسة المُشددة، تجاهل تلك الخاَطرة العَابرة وأعمل ذهنه في التركيز على تنفيذ ما حضر من أجله، لا وقت الآن للتراجع أو التّفكير..

أفاق على صوت أنامل «سَالُومي» تدقُّ برقّة على الدُّف، في حين لمح جسد «دليلة» يتحرك في ليونة وانسيابية مُتسقًا ومتلاحمًا مع إيقاع تلك الدّقات المُنغمة..

مكتبة عابث الالكترونية

اندفعت في عروقه دماء الغضب حين تأججت في عقله هواجس ونيران الغيرة بعد أن رأى الأمير يتحلل من ثيابه ويستلقي عاريًا على فراشه الوثير، هم أن يخرج من مكمنه ويطعنه بذلك الخنجر الذي أعطاه إيّاه «خليل»، لكنّه تمالك نفسه في النّهاية بعد أن صبّرها بنيل مرادها في القريب..

أخذ الأمير يفرغ كؤوسًا من الخمر في جوفه بغير حساب، حتّى تحوّلت عيناه إلى ما يشبه كأسين ممتلئين عن آخرهما بالدّماء.. حينما سمع نقرًا خفيفًا على باب جناح الأمير، خرج من مكمنه زاحفًا حتّى وصله، كانت تلك هي الإشارة المتفق عليها مع «خليل»، أدار مقبض الباب في هدوء وحرص، دلف «خليل» إلى الجناح سريعًا، هم «يحيي» أن يغلق الباب من خلفه لكن «خليل» أشار إليه بتركه مفتوحًا، تعجب «يحيي» من رغبته الغريبة، لكن إشارة غاضبة من يد «خليل» ألزمته الصّمت..

بهدوء وصمت تحركا سويًا في خفة قط ودهاء أفعى صوب مخدع الأمير، لمحتهما «سالومي» من طرف خفي فدقت بيدها على الدف دقات كانت ذات مغزى، فهمت «دليله» إشارة صاحبتها فتوقفت عن الرّقص وخلعت ثوبها ثم توجهت صوب فراش الأمير الذي رفع رأسه المثقل بنشوة السكر في دهشة، نظر ببلاهة نحو جمالها القهار الذي يتهادى

صوبَ أحضانه بعدَ أنْ فقد إحساسه وعمي بصره عن كل شيء من حوله..

تحرّك «يَحْيَى» في اتّجاه الأمير بعدَ أن تيقن بانشغاله عمّا يجري حوله، استلّ خنجره بعدَ أنْ دَنا من الفِراش والأميرُ ما يزال غافلاً لاهياً يتمرّغ بين أُحضان جمال «دليله» الفاتِن، غارقًا في سيل من القُبلات والأنفاسِ الحارّة التي غمرته بها.. رفع «يحْيى» يده عاليًا في الهواء شارعًا أنْ يطعنه تلك الطّعنة التي تخمد أنفاسه، لكنّه شعر بنَصل حادّ ينغزه أسفل ظهره من الخلف، تسمّر في مكانه حينَ سمع صوتًا غليظًا يصيح في صرامة:

- توقفوا جميعاً.

انتفض الأمير مُفيقًا من غفلته مذعورًا في حين أخذت «دليله» تحاول مواراة جسدها بثوبها في اضطراب واضح، تلفّت «يَحْيَى» حوله في ذُهول بعدَ أن جمّدت الصّدمة أطرافه.. كان قائد حرس الأمير واقفًا في جانب الغُرفة يرمق الجميع بنظرات مُستعِرة حازمة ومن حوله اصطفّ باقي الحرس وقد شرعوا رماحهم وأشهروا سيوفهم.. جَال ببصرِه في المكان بحثًا عن «خليل»، كان واقفًا خلفه ينغز ظهره بنصل خنجر حادّ، انتبه من ذُهوله على صوت «خليل» يقول مستهزءًا:

مكتبة عابث الالكترونية

- لا تتعجب يا صديقي، لقد تعبت من شَظف العيش وضيق الحياة، حَان الوقت كي أستريح، أتنعّم قليلا مثلما فعلت أنت.

لم يصدق «يَحْيَ» ما سمعته أُذناه وجزّ على أسنانه في غضب، كانت «سالومي» تنظر نحوَ «خليل» وقد اتّسعت عيناها من الذهول، رمته «دليلة» بنظرات الاحتقار حين عَلا صوت قائِد الحرس صائِحًا:

- تريدون اغتيال مولانا الأمير، يا لكم من رِعاع،

همّ «يَحْيَ» بالحديث لكن صفعة قوية على وجهه، تلقاها من أحد الحرس، عاجلته فأسقطته أرضا.. حاولت «دليلة» أن تقترب منه غيرَ أنّ حارسًا آخر أمسكها من شعرها في قوة، سَحبها على الأرض عَارية حتّى ألقاها أسفل قَدمي قَائد الحَرس، حاول «يَحْيَ» التّدخل إلا أنّ ركلة هائِلة من قَدم أحدهم أصابت وجهه فانفجرت الدّماء منه بغزارة، تكوّم على الأرض يئِن من شدة الألم..

تحرّك الأمير من فراشه وهو يتلفّت حوله باحثًا عن ثيابه، قال بلهجة آمرة:

- أحسنت صنعًا أيها القائِد الهُمام، تخلص من هؤلاء الحُثالة على الفور،

مكتبة عابث الالكترونية

ارتسمت على شفتي قائد الحرس ابتسامة غامضة، أحنى رأسه قليلاً إلى الأسفل ، قال وهو يقترب من الأمير:

- أوامرك مُطاعة مولانا الأمير.

أنهى عبارته الأخيرة ثم أخرج من نطاقه خنجراً لجأة، غرس نصله في صدر الأمير بقوة.. كان وقع المفاجأة مدوياً، لم يتمكّن الأمير من إصدار ولو صيحة واحدة، أمسك صدره بقوة وتقلصت ملامحه في ألم بعدَ أنْ سحب القائد خنجره من موضع الطّعنة في عنف، جحظت عينا الأمير وسقط يتلوى على الأرض كشاةٍ ذبيحة، انتفض جسده عدّة مرّات ثم سكن تمامًا وخمدتْ حركته..

ندّت عن «سَالُومي» صرخة فزع أسكتتها ضربة قوية من قبضة «خليل» سالت لها الدّماء من جانب فمها، نظرت بعدَها نحوه في رُعب وهَلع، لا تُصدق ما حدث له، لا تستوعب ما جرى منه..

تحرّك قائد الحرس نحوَ «دليله» في صَلف وكبر، اتكأ على ركبته حينَ جلس مُقرفصًا قُرب رأسها، جَذب شعرها في قسوة وهو يتأمّل جسدها العَاري، قال بنبرة مُتعالية:

- وأنتِ أيتها الحقيرة، كيف واتتك الجرُأة أنْ ترفضي لقائِي في ذلك اليوم؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

ندّت عنها صيحة ألم إلا أنّها صمتت ولم ترد على الرّغم من تلك الآلام الفظيعة التي استعرت في رأسها، كانت منشغلة في مداراة ما تستطيع من جسدها بكفيها وذراعيها، حاول «يحيى» التحرك والتدخل لحمايتها لكنّه لم يستطع، بعد أن أوقفه حارسان قويان بعنف وقيدا ذراعيه خلف ظهره، حاول التخلص من قبضتيهما الفولاذيتين، لكن دون جدوى..

أكمل قائد الحرس بنبرة مستفزة يخاطب «دليلة»:

- أنتِ أيّتها الغانية، تتعالين على قائد حرس القلعة، الويل لكِ.

تدخلتْ «سالومي» في الحديث محاولة إنقاذ «دليلة»:

- سيدي القائد، دعها أرجوك، فأمرها يهم سيّدة العابدات وستقو...

لم تكمل حديثها بعدَ أنْ اقتحم المكان نفرٌ من الحرس، أدّوا تحية الاحترام لقائدهم ثم ألقى أحدهم برأسٍ تدحرجت حتّى استقرت عند قدميه، ندت عن «سالومي» صرخة مدوية بعدَ أنْ شاهدت رأس سيّدةُ العابدات وقد فصلت عن عنقها، التفت القائد نحوها وقال:

- أتلك من كنت تقصدين يا عابدة؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

أخذت «سَالُومي» ترتجف في صمت، ظلّ جسدها ينتفض بعدَ أن تسمّرت في مكانها كالمشلولة من شدّة الخوف.. أكمل قَائِد الحرس حديثه مُستطردًا في سخرية:

- ظنّت الشمطاء أنّ القَلعَة قد خَلَت من الرّجال، حسِبت أنّها ستملك زِمام الأمر كله، لم يكفها أنْ تكون سَيّدةُ العَابِدات، صور لها جشعها أنّها يُمكن أنْ تكون سَيّدةُ القَلعَة بأكملها.

صمت قليلاً وهو يمسح دماءَ الأمير عن نَصل خنجره في هدوء مُفزع ثم قال بنبرة متوعدّة:

- إنّ لهذه القَلعَة حُراسًا، هُم أسيادها، والويل كلّ الويل لمن يظن نفسه قادرا على تغيير ذلك.

تنحنح «خليل» في هدوء وهو يقول في مُدَاهنة فاقعة:

- بالطّبع سَيدي القَائِد، كلنا نعلم مَن أسياد القَلعَة.

رماه القَائِد بنظرة مُتفحصة ثم قال بعدَ فترة وَجيزة:

- أنت رجلٌ مخلص يا خليل، ونحن لا ننَسى من يدين لنا بالولاء، ستكون من المقربين.

أحنى «خليل» رأسه ومعها انحنى جذعه إلى أقصى حدّ وقال:

مكتبة عابث الالكترونية

- أدامت السّماء لنا عِزك ومجدَك سيدي القَائِد.

ارتسمت على شفتي القَائِد ابتسامة رضا، ثم التف صوبَ الباقين وقال بصَلف:

- أمّا أنتم أيها الملاعين فسيكون لكم جزاء الخيانة.

تحرّك «خليل» مقتربًا من القَائِد في هدوء ثم خاطبه في نبرة مُداهنة:

- أظنُّ يا سيدي القَائد أنّنا سنحتاج «يَحْيَى» لبعض الوقت، مازلنا لم نفك طَلاسم تلك الصحف، والقَلعَة لابدّ لها من سِيدةُ عابدات جَديدة، وأحسب أنْ سَالُومي خير مَن يصلح لهذا الشّأن.

أطرق قَائِد الحرس برأسه قليلاً مُفكرًا ثم قال في لامبالاة:

- حسنًا يا خليل، ستكون مسئولاً عن أفعالهما أمامي.

تهلّل وجه «خليل» فرحًا وأخذ لسانه يلهج بعبارات المدح والثناء لقَائِد الحرس، كان «يَحْيَى» في تلك الأثناء يرميه بنظرات الاحتقار والغل، تجاهلها «خليل» تماماً في حين عاود القَائِد حديثه مع «دليلة» وقال بصوت له دلالة خَفية:

مكتبة عابث الالكترونية

- وأنتِ يا جميلة الجميلات، يبدو أنّه لا حاجة لنا بكِ بعدَ الآن فماذا سيكون موقفك؟!، هل أنتِ معنا؟!، أم علينا؟!.

لم تُجب «دليله» وإنْ كانت عيناها قد لمعت فيهما نظرات الاحتقار والبُغض، ابتسم القَائِد حينَ فهم ما نطقت به عيناها ثم قال ببرود وهو ينظر لجسدها في شَبق:

- حسنًا، سأكون رحيمًا معك وأمنحك حق الاختيار، بإمكانك أن تكفري عمّا ارتكبتِ من خطأ لا يُغتفر في تلك اللّيلة البائسة، بوسعك أنْ تهبي لي نفسك الآن، على هذا الفِراش، أمام صاحبك المجذوب هذا، إنْ فعلت، سأمنحك عفوي ورضاي، سأجعلك من خاصة نِسائي.

أنهى عبارته ثم أمسكها من شعرها، جذبها قريبًا من وجهه، أخذ ينظر في عينيها التي كانت قد أغمضتهما من شدة الألم.. حين فتحت جفنيها، نظرت نحوه طويلاً ثم رمت بصرها نحوَ «يحيى» الذي أخذ يهزّ رأسه في عنف وهو يصيح فيها:

- كلّا، لا تفعلي.

مكتبة عابث الالكترونية

فجأة، بصقت على وجه قائد الحرس ثم رسمت على وجهها ابتسامة متحدية.. ساد الصمت بعدها فترة قطعه قائد الحرس حين رمى رأسها بقسوة فارتطم بالأرض في قوة، انتصب واقفًا يعدل من هندامه، في هدوء مقيت مسح لعابها من على وجهه، جال ببصره بين الحضور ثم التفت نحو «خليل» وقال بعدم اكتراث:

- حسناً، اقتلها.

اتسعت عينا «يحيى» في ذهول غير مصدق لما نطقت به شفتا قائد الحرس، بهتت الرؤية أمامه فجأة، أصبحت الصور تتحرك أمام ناظريه في بطء شديد، رأى «خليل» يومئ برأسه نحو القائد ثم يطيع أمره متحركًا نحو «دليلة» التي أوقفها حارسين على قدميها قسرًا، كانت تقف في هدوء تام واستسلام لمصيرها المحتوم، سمع صوت «سالومي»، بدا له مكتومًا كأنه يأتي من مكان بعيد، التفت نحوها، كانت ترجو «خليل» ألا يفعل، انتبه على صوت صرخة مكتومة، حين التفت نحو مصدرها، كانت «دليلة» تضغط بكفيها على موضع في بطنها تنزف منه الدماء بغزارة، كانت عيناها تعكسان إحساسًا فظيعًا بالألم، لكن فمها مازال يحمل تلك الابتسامة الرائقة التي طالما عشقها، نظرت نحوه ثم تحركت شفتاها تتمتم في صعوبة بالغة بحروف كلمة: «أحبك».. سقط

مكتبة عابث الالكترونية

جسدها مُرتطمًا بالأرض في قوة بعدَ أن لفظت أنفاسها وشخصت عيناها،.

أطلق صرخة مدوية في المكان وهو يتحرك كالممسوس، يحاول التخلص من الحَارِسين لكن ركلة قوية من قدمِ «خليل» أصابته بين فخذيه فانهارت مقاومته، سقط متكوّمًا على الأرض.. كان يقاوم تلك الرّجفة العنيفة التي بدأت تصيب جسده في صعوبة بالغة، رفع رأسه بعينين دامعتين نحوَ «خليل»، تأمّل وجهه البغيض طويلاً ثم خرجت الكلمات من بين أسنانه المُصطكّة باردة برودة الموت، على الرغم من ذلك كان فيها من الغلّ والغضب ما يكفي لإحراق القَلعة ومن فيها أجمعين:

- سأقتلك يا خليل، سأقتلك.

أنهى «يحْيَى» ما قاله ثم استحوذت عليه تلك النّوبات الفظيعة من جديد، بات جسده ينتفض ويهتزّ بقوة، وشَخصت عيناه إلى الأعلى..

تجاهله «خليل» ولم يُعره انتباهًا، التفت صوبَ قَائد الحرس الذي كان يتأمّل المشهد في تأفّف ونفور، قال:

- ماذا سنفعل به سيدي القَائِد؟

مكتبة عابث الالكترونية

- ضعه في تلك الزّنزانة مع ذلك العَجوزِ الخَرِف، حتّى يتمكّن من فك طلاسم ورموز تلك الصُحف.

أجابه قائِد الحرس في عدم اكتراث ثم التفتَ صوبَ معاونيه يُملي عليهم أوامره وتعليماته لضمان نجاح فعلتهم، أخبرهم بضرورة الدّعوة لاجتماع عاجل مع الكُبَراء، لطمأنتهم على أموالهم وتجارتهم، إخبارهم أنّ كل شيء سيبقى على حاله، لن يتغير شيء على الإطلاق..

أنهى حديثه معهم ثم التفَّ صوبَ «خليل»، قال وهو يهمّ بمغادرة الغُرفة:

- وأنت يا خليل عليك دور هام، يجب أنْ تخبر أقرانك من العمال والبُسطاء أنّ هؤلاء الملاعين كانوا يخططون للاستيلاء على أمور القَلعَة، قتلوا الأمير وسَيّدةُ العَابِدات، لكن الحرَس المُخلصون وقَائِدهم تمكنّوا من إفشال محاولتهم البائِسة.

أومأ «خليل» برأسه مُتفهمًا وهو يحيي القَائِد تحية الاحترام، اقتربت «سَالُومِي» منه بعدَ انصراف القَائِد وبعض أعوانه، وقالت بصوت مُرتجف:

- وأنا ماذا سيحلّ بي؟

أجابها «خليل» بتأفف:

مكتبة عابث الالكترونية

- لا شيء، ستصبحين سَيّدةُ العَابِدات.

نظرت في عينيه مباشرة وقالت:

- أقصد أنا وأنت، ماذا سيحدث؟

أجابها بضيق وهو يرى الاهتزازات العنيفة تكاد تفتك بجسد «يَحْيَى»:

- هاتي ما عندك سريعًا، لا وقت عندي أضيعه.

نظرت في عينيه مباشرة ثم قالت:

- أنا حبلى.

ضاقت حدقتاه بعدَ أن صوب نظره نحوها وهو يقول ببرود:

- وما شأني بذلك؟!

أجابته بأعين ترفرق فيها الدّمع:

- تلك البذرة التي تنمو في أَحشائِي هي لك، إنّه طفلك.

ضحك «خليل» ضحكةً مَقيتة وهو يقول:

- طفلي!!، وما أدراني أنّه طفلي؟!، إنك اعتدت مُعاشرة أي رجل كانت تلك البغيضة تأمرك أنْ تعاشريه، أم تراكِ قد طمعت فيما وصلت إليه من نفوذ؟!..

مكتبة عابث الالكترونية

صمتَ قليلاً ثم قال لها بحسم:

- لا تحاولي أنْ تحصلِي على مكاسب أكثر ممّا تستحقين، فلتحمدي السماء على أنّك ما زلت على قيد الحياة، بفضلي أنا، لولاي لكنت الآن ترقدين بجوار صاحبتيك، فلتعملي عقلك جيدًا وإلا فمصيرك معلوم..

رسمت شبح ابتسامة على وجهها وقالت بنبرة هادئة:

- سمعًا وطَاعة يا سيدي.

حَدَجها «خليل» بنظراتٍ مُرتابة ثم قال يخاطب الحَارِسين المَذهولين مما يحدث لـ «يحْيى»:

- خذاه إلى القَبو، احبسوه مع ذلك العجوز الخرِف حتى يفيق..

أنهى عبارته ثم التفت صوبَها مُجددًا وقال بعدَ أنْ لمعت عيناه بومِيض مُخيف:

- وأنت تعالي نُجرِب الغَرام فوقَ فِراش الأمير، نستمتع سويًا لمرّة أخيرة، فبعدَ اليوم لن أتمكّن من معاشرة سَيّدةُ العَابِدات.

مكتبة عابث الالكترونية

أعقب قوله بضحكة بغيضة ثم توجّه صَوبَ الفِراش مُستلقيًا فوقه في حين تبعته «سَالُومي» صَاغِرةً.. بينما كان «خليل» يتحرك أعلاها في إيقاع لاهثٍ صعودًا وهبوطًا، كان ذهن «سَالُومي» مُنشغلاً بما جرى لسيدتها وما سيكون حالها بعدَ أنْ تغيّر الحال بين عَشيةٍ وضُحاها، وهذا الفحل البغيض الذي يستبيح جسدها وفي نهاية الأمر يتبرأ من نطفته.. أفاقت من شرودها حينَ شعرت بسخونة ماءه تنساب داخلها فأغمضت عيناها في ألمٍ، جزّت على أسنانها ثم تمتّمِت في غلٍ وهي تُزيحه من فوقها:

- أحسنت أيّها الفحل، لعلّها تكون الأخيرة بالفعل.

بعدَ مُضي فترة على ما جرى، لم يحصها «يَحْيَى»، حينَ فتح جفناه صدمته العتمة من جديد، كان في غفوته تلك لم يحلم بكابوس، على خلاف ما اعتاده وقت إصابته بتلك النّوبات، بل على العكس من ذلك رافقته في تلك الغَفوة أحلامًا رائقة صافية، كان يرى فيها نفسه يمرح ويلهو مع «دليلة»، انتبه من شروده على ذلك الصوت الوَهِن يقول في هدوء:

- هل أفقت من تلك النّوبة؟!.

تجاهل الرّد عليه تمامًا، استطرد الصّوت الوَهِن حديثه وقال:

مكتبة عابث الالكترونية

- لقد أصبحت تلك النّوبات أشدّ قوة وضراوة عمّا سبق.

أدار وجهه في الظّلام صوبَ صاحب الصّوت، لكنّه لم يبصره، كان الغضب قد تملك من نفسه فصاح به قائلاً في حدّة:

- ما بالك تحدثني كأنّك تعرفني يا رجل؟!.

أجابه صاحب الصّوت الوَهِن في هدوء شديد:

- بالطّبع أنا أعرفك.

صرّ «يَحْيَى» أسنانه في غيظ وقال في حدّة:

- إنْ كنت تعرفني حقًّا فلم لم تُنبئني بخبر تلك الصُّحُف وما فيها بوضوح من قبل؟!، لعلّني تمكنت من منعهم من قتل «دليلة».

أجابه الصّوت الوَهِن بذات الهدوء المُستفِز:

- كانوا سيقتلونها على أيّة حال.

صرخ فيه «يَحْيَى» بعنف:

- ماذا؟!، فلتذهب إلى الجحيم أيّها العجوز الخرِف كما يلقبونك.

مكتبة عابث الالكترونية

سادَ الصَّمت فترة وجيزة حتَّى قطعه صاحب الصَّوت الوَهِن قائلاً:

- كانوا سيقتلونها لانعدام الضَّمير في قلوبهم الخاوية.

تذكَّر «يَحْيَى» ما فعله «خليل» فجزّ على أسنانه وقال بصوت خَفيض:

- ذلك الملعون «خليل»، سأقتله.

- لا تخش أبدًا من عدو شريف فهو لا يعرف الغَدر، أدِرْ له ظهرك آمنًا، فقط عليك أنْ تحمي صدرك من صديق مُخادع، فهو يعشق الخيانة.

تجاهل «يَحْيَى» ما قاله العجوز صاحب الصَّوت الوَهِن وإنْ ندّت عنه همْهمات سِباب ولِعنات صَبّها على رأس «خليل»، في حين أكمل العجوز مُستطردًا:

- إنَّ البَشر يا بُني إذا ما فقدوا ضمائرهم فلن يغنهم عنها شيء أبدًا، سيصبحون كَمَن يسير في درب مُظلم دامس، تِيه شديد التّشابك من العتمة الحالكة، يظنّون حينها أنّهم يبصرون طريقهم ويعلمون نهايته، لكنّهم في واقع الأمر سيجدون أنفسهم وقد عادوا من حيث بدأوا.

مكتبة عابث الالكترونية

ندّت عن «يَحْيَى» تنهيدة طويلة، زَفَر بعدَها في حدّة وهو يقول بصوت خَفيض:

- ومالي أنا بتلك الأمور؟!، إنّ عقلي يكاد يتمزّق ما بينَ هواجس وشكوك، تساؤلات كثيرة تتنازع داخله، لا أجد إجابة لأيها؟.

قال العجوز بنبراته الوَهِنة:

- يا بُني، السّؤال قائِم على الشّك، ومَن لم يشك لم ينظر، ومَن لم ينظر لم يبصر، ومَن لم يبصر يبقى دوما في مَتاهات العمى.

أطرق «يَحْيَى» برأسه لوهلة ثم قال في تعب:

- لكنّني تعبت، أصبحت روحي ساحة قتال مُحتدم، ما بين نفسيِ الحائِرة الآن، ونفسي الماضِية التي لا أعلم عنها شيئًا، ونفسي في الغد التي بتُّ أخشى ما ستكون عليه.

صمت العجوز قليلاً ثم قال في هدوء:

- تلك هي الحياة، رحلة مُضنية ما بين أسئلة لا نهاية لها وأجوبة لا يقين فيها، لابدّ أنْ تفرح بما أنت فيه، فذلك دليل على أنّ نفسك مازالت حيّة، فإنْ ظننت يومًا أنّك قد ملكت الإجابات وتوقفتْ نفسك

مكتبة عابث الالكترونية

عن طرح الأسئلة فاعلم أنّك ميت، فالإجابة نهاية، والنّهاية سكون، والسّكون يا بُني هو الموت.

قال «يَحْيَى» مُستسلمًا:

- ولكن كيف الخلاص من كل هذا الشّقاء؟.

أجابه الرّجل ذو الصَّوت الوَهِن:

- العقل، المعرفة، الضّمير.

احتدّ «يَحْيَى» صائحًا:

- عن أي شيء تتحدث يا رجل؟!، ألا تَرى أين نحن الآن؟!، نحن في زنزانة مُظلمة وفي الخارج أيضًا ظَلام دامِس يجتث منا كل أمل ولو طَفيف في النّجاة، نحن لحيا في ظَلام الجهل والفَقر، لا لسنا أحيَاء بل نحن نموت من أجل أن يحيَا مَن بيده القوة، القوة المُطلقة الغَاشمة التي لا يقف في سبيلها شيء ولا يمنعها رادع، أي عقل وأي ضمير أو معرفة تقدر على تغيير تلك الحقيقة؟!.

صمت الرّجل قليلاً ثم قال بنبراته الوَهِنة:

- إنّما كنت أتحدث عن خلاصك أنت.

زفر «يَحْيَى» في حدّة وقال بضيق:

مكتبة عابث الالكترونية

- ما بالك تتحدّث بالأحَاجِي والكلام المُلْغِز أيُّها الرّجل؟!.

قال الرّجل بصوته الوَهِن مُستطردًا:

- يبدأ الخَلاص فرديًا بصدق، ثم بعدَ حين يكون جماعيًا بحق.

سأل «يَحْيَى» في دَهْشَة:

- ماذا تعني بذلك؟!.

أجاب الرّجل بهدوء:

- المُخَلِص هو مَن يُخَلِص نفسه، فسنّة التّغيير في هذه الحياة لا تعمل إلا حينَ يُغير المرء ما يشوب نفسه من نقص وعَوار، حينَ يفعل ذلك بصدق فسيأتي التغيير حتمًا.

قال «يَحْيَى» بضيق:

- ومالي أنا بكل ذلك؟!، إن أنا إلا رجل بسيط، لم أبتغِ شيئًا من عرض هذه الحياة، أردت فقط أنْ أحيا سعيدًا مع مَن أحببت.

سأله الصّوت الوَهِن:

- وما السّعادة يا بُني؟!.

مكتبة عابث الالكترونية

صمت «يَحْيَى» ولم يعقب، فأكمل صاحب الصَّوت الوَهِن قائلاً:

- السّعادة هي مفتاح وسرّ هذه الحياة التي يُفني كثير من البَشر أعمارهم في سبيل الوصول إليها، لكنّهم في غالب الأمر لا ينجحون، مع أنّها تكون أمامهم وفي متناولهم طوال الوقت.

سأله «يَحْيَى» مُتعجبًا:

- وكيف ذلك؟!.

قال الرّجل بنبراته الوَهِنة:

- السّعادة تجدها في تصالحك مع نفسك والعمل على إصلاحها، الرّضى بما هو مُقدر لك، تحمّلك للآلام بابتسامة رائقة، قُربك دومًا ممّن يجعلك سعيدًا، وقُربك أكثر ممّن لا يكون سعيدًا إلا بوجودك.

عَقّب «يَحْيَى» في استهجان:

- إنّ ما تقول لَهُو المستحيل بذاته، كيف تطلب مني أنْ أفعل ما لا أُطيق؟!.

- وكيف تطلب أنت الخَلاص؟!.

- ماذا تقصد؟!

مكتبة عابث الالكترونية

سأله «يَحْيَى» وقد اعترته الدَهْشَة المُمتزجة بالغضب مما قاله الرّجل، الذي أجاب بنبراته الوَهِنة:

- لكل امرؤ منا ضمير، هو أقوى ما خلق القَدير فينا، يهدينا دوماً إلى الخير، لكنّه قد يضطّرب وتصيبه الحيرة أحيانًا عندما تَعرض له أمور الحياة، يكون لِزامًا علينا في ذلك الوقت أنْ نختار بين أمرين لكليهما وجه من الحق والحقيقة.

قال «يَحْيَى» بنفاذ صبر:

- ها قد عُدْنا لتلك الأحاجي مُجدداً؟!، حدثني حديثًا أفقهه، ما كل هذا الحديث عن السّعادة والضّمير والقَدير وهذه التُرهات التي لا أعي منها شيئًا.

سأله صاحب الصَّوت الوَهِن في هدوء:

- أتظنَّ أنْ تلك الحياة قد نشأت من العَدم؟!، أم تراك تحسبها عَبثًا؟!.

صاح به «يَحْيَى»:

- ومالي أنا بكل هذه الأشياء؟!، يكفيني ما أنا فيه.

أجابه صاحب الصَّوت الوَهِن:

مكتبة عابث الالكترونية

- حينَ كنت في مثلِ عمرِكَ، كنت أتصوّر الأمور مثل ما تفعل، آثرت العزلة بعيدًا عن البَشر حتّى لا يُصيبني ما يُصيبهم من شرور، تركت عشيرتي وارتحلت بعيدًا عنهم، جبت بِقاعًا كثيرة من الأرض باحثًا عن الحقيقة، أجمع نبأ الأولين وتاريخهم، أتلمّس فيه العِظة والأمثلة، ثم بِتُّ كافرًا بكل ما جمعت بعدَ ما وجدت فيه من ضعف، أصبحت أشك في كل شيء حولِي، لم أعدْ أثق سوى بعقلي وما يهيئه لِي تفكيري من توقعات لما يُمكن أنْ يكون الحال في الغد، لكنّني اليوم وبعدَ أنْ وَهَن مني العَظم واشتعل رأسي شيبًا أصبحتُ أجدُ التّاريخ على ما به من ضعف أهدى إلى الصَواب من ظنون العقل، فمثلها يستحيل أنْ يقوم على صحتها دليل، إنّما فقط نزهو ونفتخر بعقولنا التي يبين ذكاؤها مصاحبًا لتلك الظّنون.

قال «يَحيَى» وقد خفت الحدّة من نبرات صوته:

- إذن وما السّبيل إلى صَواب الفعل؟!.

أجابه الصّوت الوَهِن:

مكتبة عابث الالكترونية

- لا سبيل أمامك إنْ كان عقلك فقط هو دليلك، احتكم إلى ضميرك فهو وحده من سيهديك خلال رحلتك في طريق المعرفة.

قال «يَحْيَى» بنبرة هادئة:

- لكنّني قد أُخطئ، قد أظلم أحداً، قد....

قاطعه الصّوت الوَهِن:

- لا يهم، ما يهم أن تُراجع حساباتك كل حين، أنْ تُكفّر عن أخطائِكَ متى استطعت.

سأل «يَحْيَى»:

- وما الضّمير؟!

أجابه الرّجل بنبرات مُتهدّجة:

- هو تلك النّفخة السّامية التي نفخها القَدير في البَشر، ميّزهم بها عن سائرِ خلقه، منحهم بها القدرة على التّفرقة بين الصّواب والخطأ.

قال «يَحْيَى» بصوت خافت:

- كلامك له وَقْعٌ مُريح على نفسي أيّها الرّجل، ليتني قابلتك من قبل، أظنّ أنّ اختياراتي كانت ستُصبح مُغايرة.

مكتبة عابث الالكترونية

قاطعهما صوت طَرق خَافت على باب الزّنزَانة، انتفض «يَحْيَى» واقفًا، تحرّك صوبَ الباب يتلمّس طريقه في عتمة الظُلمة، حينَ اقترب منه سمع صوت «سَالُومي» يقول بنبرة خافِتة:

- يَحْيَى، يَحْيَى.

تهلّلت أَسَاريره وهو يردُ صَائحًا:

- هذا أنا يا سَالُومي.

أتاه صوتها أقرب إلى الهَمس:

- أخفض صوتكَ، لا أريدُ أنْ يسمعنا أحد، جهّز نفسك والعجوز برفقتك، حينَ يأتي الوقت المُلائِم سأحضر لك صُحُفك، سأهربكما مِن هذا المكان.

قال «يَحْيَى» بتعَجب:

- صُحُفي؟!، عن أي شيء تحدثين؟!، وكيف سنهرب؟!.

قالت «سَالُومي» بنفس النبرة الهَامسة:

- لا وقتَ لدي الآن للتوضيح، فقط كُنْ على استعداد.

أنهت عبارتها الأخيرة ثم غَاب صوتها كما ظهر فجأة، أخذ عقلِ «يَحْيَى» يعمل مُفكرًا في معنى ما قالته له، عاد إلى مكانه يتحسس طريقه في الظّلام قال مُحدثًا نفسه بصوت مُرتفع:

مكتبة عابث الالكترونية

- ماذا تعني سَالُومي بهروبنا؟!، وماذا قصدَتْ بأنّ تلك الصُحُف تخُصني؟!.

أتاه صوت الرّجل الوَهِن يقول في هدوء شديد:

- لأنّك لست يَحْيَى.

****

مكتبة عابث الالكترونية

(١٣)

.. حمزة ..

قُبيل انبلاج الصّبح بقليلٍ، وقبل انتهاء أيام الظّلام العشر بسويعات قليلة، قرّر «حمزة» مغادرة حجرته ومفارقة «زينب»، قرّر الرّحيل عن العَشيرة بأكملها.. فبعدَ مرور عام كامل على تنصيبه ملكًا وحكيمًا للعشيرة لم تحسن حالته أبدًا، بل على العكس ازدادت سوءًا، لم تتوقف نوبات التّشنج والهياج الملعونة عن مهاجمته دون رحمة، حتى بات يشعر بالغربة والوحشة في أوقات إفاقته منها.. كانت تلك النّوبات قد ازدادت قسوتها في الآونة الأخيرة إلى حدّ لم يسمح له بمُباشرة مهام حكم العَشيرة، أصبحتْ «زينب» هي المُتحكمة الفعلية في مقدّرات أهل العَشيرة، وإنْ كانت تحكم باسمه..

كان في فترات إفاقته يخلُد إلى الانزواء والوحدة، ساعيًا وباحثًا بشتّى الطُّرق والسُّبل عن الراحة والسّكينة، باغيًا

مكتبة عابث الالكترونية

الوصول إلى تحقيق السّلام مع ذاته، غير أنّ نفسه أبت إلا أنْ تجلده وتُذيقه أقسى العَذاب.. أصبح التّأمل مُحبباً إليه أكثر من أي شيء آخر، حينَ يجُالِس نفسه في الخلاء خارج حُجرته سارحاً ببصره في ملكوت السّماء، كان يراها واديا أزرقًا كبيرًا، كثيرًا ما تخيّل أنّ روحه تعدو فيه حرّة طليقة، تجُوب أرجائه تركض في سعادة غامرّة، تلوح له في أُفق ذلك الوادي من بعيد جنّة خضراء غنّاء، يرى عندها أناس كُثر مُجتمعين، أناس عرفَهم فيما مضى، يرغب بشدّة في لقائِهم، فها هو سيده «إبْراهِيم الحكِيم» يلوح له بيده مُحيياً، وها هو رفيقه «يحَيي» يشير له ضاحكًا.. إلا أنّه سرعان ما يفيق من خيالاته الحالمة وأوهامه المَريضة على واقعه الأليم، لم ينجح أبدًا في نسيان ما جرى، بات عقله يُكرر أمامه تفصيلات ما حدث في كل ليلة، أصبحت الكوابيس وأضغاث الأحلام رفيقه الذي لا يفارقه قط..

مع مرور الوقت ازدادت نقمته على نفسه وضيقه بها، تحوّلت إلى غُربة ووحشة حتّى أصبح في كثير من الأحيان يتحدّث معها كأنّه يحُادث غريبًا لا يعرفه، ازدادت تلك الحالة من الاغتراب الدّاخلي حتّى شملت كل ما حوله.. حتّى «زينب» أصبح يشعر بغربتها عنه، بات يحس بنفور غامض نحوها.. أصبح ينظر لمعالم حُجرته بشكل غريب، مُخالف لما

اعتاده طوال حياته السّابقة.. حوائطها، بابها ونافذتها.. حتّى فِراشه المُفضل بات لا يرى فيه معنى السّكينة والأُلفة، أصبح يسمع منه صرخات البؤس وصيحات الألم..

ابتعد عن «زينب» شيئًا فشيئًا وهي تحاول التّقرب منه والتودّد إليه، حتّى كان ذلك الصّباح الذي التقى فيه وجهاهما، رأت في وجهه نظرة لوم وعتاب، بل كان في تلك النّظرة ما هو أكبر من ذلك، كان فيها شيء من البُغض والاحتقار، في حين كانت عيناه تبحثان في وجهها عن ذلك الوجه الذي عشق تفصيلاته، عن تلك البسمة التي طالما تمنّى رؤيتها، عن تلك الشفتان التي دائمًا ما كان يحلم بتقبيلهما، لكنّه لم يرَ سوى وجه قاسي الملامح رسم تفصيلاته روح شريرة لها طموح جامح لا يوقفه أو يردعه رادع..

في ذلك الصّباح التّعس، ماتت بينهما كل مشاعر الودّ والحُب، تبدّلت واختفت، حلّت محلها مشاعر مُختلفة، خليط ما بين الكراهية والحنق.. نفثت «زينب» عن غضبها وضيقها منه بالانشغال في إدارة أمور العَشيرة، كما اهتمت برعاية وتنشئة هبة السّماء إليها «إسماعيل» بعدَ أن بدّلت اسمه..

كان ذهنها قد تفتق عن فكرة جهنمية حينَ أرسلت لها السّماء «حَمْزة» مُنذُ عام مضى يحمل «إسماعيل» وقت أنْ كان رضيعًا أسماه أبواه «إبرَاهِيم»، توارت عن أعين أهل العَشيرة

مكتبة عابث الالكترونية

لعدّة أشهر، أخبرتهم أنها أصبحت حبلى بعدَ أن حلّت عليها بركات السّماء لصنيع «حَمْزة» بأخذه ثأر الحكيم واقتصاصه مِن «يَحْيَى»، كانت تبلغهم خلال تلك الفترة بتعليمات «حمْزة» من خلف أستار حجرتها.. حتّى جاء يوم أعلنت لهم أنها قد وضعت حملها فتهلّل النّاس واستبشروا بالخبر خيرًا، أقيمت الولائم ونصبت الزينات تيمنًا بمولد ابن الحكيم، تعجّب «حَمْزة» يومها من جهالة أهل العَشِيرة وسذاجتهم لتصديقهم إياها في أكاذيبها الواهية.. إلا أنّها تبسمت في وجهه آنذاك وهي تقول:

- النّاس تصدّق ما يرغبون في الاعتقاد أنّه الحقيقة.

رَمقها شَزرًا حينَ قال:

- وما الحقيقة فيما تلقيه على أسماعهم من أكاذيب مهترئة تلوكها ألسنتهم كأنّهم حمر مستنفِرة.

رمته يومها بنظرة ذات مَغزى وقالت:

- الحقيقة أنّهم لا يريدون أنْ يصدقوا أنّ حكيمهم أبتر، مقطوع الذرية، تمامًا كما لا يصدقون أنه فقَد عقله.

يومها بات «حَمْزة» ليلته ساهرًا خارج الحُجْرة يفكر فيما دفعته «زينب» إلى ارتكابه، فكّر في قتلها والتّخلص من

مكتبة عابث الالكترونية

شرورها، لكن نفسه ردعته وأوقفته عن ارتكاب المزيد من الشّرور والخطايا.. في تلك الليلة قرّر أنه يتوجب عليه الرّحيل، يتعينَ عليه أن يفارقها إلى الأبد..

كان ذلك ما يدور في عقله حينَ علّق سيف «يَحْيَ» على كتفه ووقف علِى باب الحُجرة يلْقي عليها نظرة وداع أخيرة قبل مُغادرتها دون رجعة، حانت منه التفاتة صوب «إسماعيل»، ذلك الصَّغير الذي كان غارقًا في سُبات عَميق، مستلقيًا في وَدَاعة وعذوبة في أحضان «زينب» التي أحاطته بذراعيها كأنّها تخشِي أنْ تفقده بعدَ أنْ طال أمد انتظارها له.. هزّ رأسه في حزن وأسى ثم التفت مُغادرًا الحُجْرة في صمت..

امتطى فرسه ومضى في طريق مجهول لا يعلم وجهته، كان فقط يرغب بشدّة في الرّحيل عن هذا المكان الملعون، كان يبحث عن الخلَاص، يفتش عن حقيقة نفسه التي بات مُوقنًا أنّه لا يعرفها.. حينَ وصل إلى حدود العَشيرة حانت منه التفاته لا إرادية صوبَها، اعترته انقباضة غريبة لم يفهم سببها، مضتْ عيناه تجوبان كل أنحائِها، حُجراتها، أرضها وأشجارها.. وقع بصره على حجرة سيّده «إبْرَاهِيم الحَكِيم» فأطرق برأسه إلى الأرض، رفعها فرأى حُجرة «يحيي».. لم تقو نفسه على احتمال ذلك فدمعت عيناه وشعر بغصة عنيفة تجتاح حَلْقه، ثُقل هائِل كالطّود يجثِمُ على أنفاسه..

مكتبة عابث الالكترونية

- ما الأمر يا سيدي حَمْزة؟!.

انتبه من شُروده على تلك العبارة، كان صاحبها أحد تابعيه الثقات يقف على مَقربة منه يستفهم سبب وقفته الغريبة في هذا الوقت المُتأخر، لم يجبه «حَمْزة» ووكز فرسه يحثّه على المضي قدمًا، اقترب منه التابع عَدْوًا حتّى أمسك بِلجام الفرس، رفع رأسه صوبَ وجهه وقال:

- أين تذهب سيدي؟!.

نظر له «حَمْزة» بعينين دامعتين ثم وكز الفرس بعنف وهو يَصيح به، انطلق الفَرس يعْدو مُسرعًا مثيرًا خلفه عاصفة من الغُبار، اختفت معها وغابت فيها كل معالم وآثار العَشِيرة..

مَضى «حَمْزة» في طريقه على غير هُدى لا يعلم سَبيلاً إلى الخَلاص، كانت نفسه قد ضاقت عليها الأرض بما رَحبت حتّى بات لا يجد مكانًا يسعه عليها، أصبح يتمنّى الموت عِوضًا عن تلك الحياة المَريرة، عسى أن يتمكّن من لقاء أحبابه..

كان يمضي في طريقه هائمًا شاردًا، لكنّه حاول قدر المُستطاع الابتعاد في طريقه عن المسارات والدّروب المعروفة من قبل عشيرته، وأي درب قد يقوده للاقتراب من عشيرتَي المشارقة أو المغاربة.. لم يكن في استطاعته التّوجه صوب

مكتبة عابث الالكترونية

الجنوب لكونه معلومًا لعشيرتهم، لِذا لم يجد أمامه من طريق سوى الاتجاه نحوَ الشّمال..

بعدَ فترة تراءت له من بعيد ديار عشيرة المغاربة، أوقف فرسه على تلك الرّبوة المُرتفعة ينظر نحوَ ما بقي من غُرفها في صمت وسكون، كانت أُذناه قد ضربهما صوت صُراخ وصِياح عنيف، ذكّراه بذلك اليوم الأليم الذي فتك فيه برجال المغاربة وسفك دمائهم، أحرق غُرفهم.. أشاح ببصره بعيدًا بعدَ أنْ أغمض عينيه في ألم وحزن، أدار لِجام الفرس يحثّه على السّير في اتجاه آخر لعلّه ينجح في التّخلص من تلك الذكرى المؤلمة..

فجأة أصابته تلك النّوبة الملعونة من جديد، انتفض جسده بعنف فسقط عن صهوة فرسه مُرتطمًا بالأرض، أخذ جسده يهتز وينتفض بشدة، استمر على تلك الحال فترة ثم سكن وهدأ بعدَ أن أُغشي عليه..

لم يعلم كم بقي مَغشيًا عليه، حينَ أفاق حاول فتح جفنيه لكنّه لم يستطع، كان يشعر بآلام مُبرحة في كل عِظام جسده، كأنّه قد خرج من صراع هائِل مع وحش أسطوري مُخيف.. تحامل على نفسه وفتح عينيه حين سمع فرسه يصهل عاليًا، تلفّت حوله في قلق باحثًا عنه، إلا أنه تراجع إلى الخلف بحدّة بعدَ أن أبصر أمامه رجلين يرميانه بنظرات مُحمّلة

مكتبة عابث الالكترونية

بعدَائية واضحة.. اقترب منه أحدهما بحذر فتراجع هو إلى الخلف أكثر في خوف، سمع صوت صَهيل فرسه من جديد حينَ رآه يرحل بعيدًا بعدَ أن امتطي صَهوته رجل غريب.. كان لا يزال جالسًا على الأرض، مد يمينه يفتش عن السّيف في حين ثبّت نظراته على الرّجلين أمامه..

صاح أحدهما قائِلاً بسُخرية:

- أهذا ما تبحث عنه؟!.

أنْهَى عبارته ثم رفع يده مُمسكًا بسيف «يَحْيَى».. امتقع وجه «حَمْزة» حينَ علِم أنهما قد جرّداه من سيفه، لكنّه تمالك نفسه سريعًا وهو يخاطبهما:

- انصرفا بسلام، فلن تجدا حاجة لكما عندي، يكفيكما ما أخذتماه من غنيمة،

قال عبارته الأخيرة وهو يُشير بيده صوبَ فرسه المسلوبة.. هزّ الرّجل الآخر رأسه وهو يبتسم ابتسامة لَزِجة، قال بنبرة مُتشفية:

- ومَن قال أنّنا نبحث عن غنائم، يا حَمْزة.

ضاقت حدقتا «حَمْزة» بعدَ أنْ علِم أنّهما يقصدانه، يضمران له الشّر والأذى، توترت أعصابه وتحفزّت عضلاته للتحرك في أي وقت حين بدأ يحاول النّهوض واقفًا.. إلا

مكتبة عابث الالكترونية

أحدهما بادره على الفور بضربة من مقبض سيفه على مُؤخرة رأسه نخرّ ساقطًا على وجهه، أنهضاه بعدَ أنْ جَذبه أحدهما من شعره في قسوة بالغة، قيّده الآخر بذراعيه من خلف ظهره في حين أخذ الأول ينظر في وجهه بنظرات التّشفي والغل.. رفع «حَمْزة» رأسه في وَهن وهو يقول:

- بحق السّماء أنا لم أفعل شيئًا، خذوا ما شئتم وأتركوني لحال سبيلي، لا أرغب في قِتال أحد.

صَفعه الرّجل المواجه له صفعة قوية على وجهه سالت لها الدّماء من جانب فه، رَمقه بغيظ وهو يقول:

- وَيْحك، يالك من مُتكبر مَغرور، أتظن أنّك قادر على قتالنا بحالك تلك، لقد رأيناك مُنذُ بُرهة تتلوّى على الأرض كحيّة قطعت رأسها.

نظر له «حَمْزة» وقال راجيًا:

- أرجوك، دعني وشأني.

صفعه الرّجل من خلفه على مؤخرة رأسه وهو يقول:

- وأنت لماذا لم تتركنا وشأننا؟، لقد قتلت آباءنا ورمّلت نسائنا ويتمت صغارنا، أحرقت ديارنا، كلّا وحق السّماء، لن نتركك أبدًا حتّى تَعجز وحوش الصحراء عن اكتشاف ما سيبقى من جيفتك.

مكتبة عابث الالكترونية

اقترب الرّجل أمامه من وجهه وهو يقول بنبرة باردة:

- لن نقتلك سريعًا، بل سنلهو بجسدك ما استطعنا، ستتمنّى الموت عِوضًا عمّا سنفعله بـ...

لم يُمهله «حَمْزة» إكمال عبارته بعدَ أنْ عاجله بضربة قوية من جبهته أصابت أنفه، كانت الضّربة من القوة بحيث هشمت أنف الرّجل تمامًا فانفجرت الدّماء منها بغزارة، ثم أعاد رأسه إلى الخلف بقوة وسرعة خاطفة، ضاربًا بها وجه الرّجل من خلفه فتأوّه في ألم شَديد بعدَ أنْ ترك ذراعا «حَمْزة» اللتان كان يمسك بهما.. تدحرج «حَمْزة» بجسده على الأرض سريعًا حتّى وصل إلى مكان سيف «يحيى» الذي كان قد سقط من يد الرّجل الذي تهشّمت أنفه، مد يمينه في سرعة شديدة مُمسكًا به حينَ سمع صوت حركة من خلفه.. سريعًا استدار واقفًا، كان الرّجل الآخر قد استل سيفه ورفعه يهمّ أنْ ينزل به على رأسه، فاداه «حَمْزة» بأن تحرّك جانبًا في خفة ورشاقة من اعتاد على تلك المُبارزات لكن نصله خدش ذراعه اليسرى، تجاهل «حَمْزة» إصابته الطفيفة وانقضّ على الرّجل غارزًا نصل سيفه في صدره.. صدرت عن الرّجل صيحة هائلة، جحظت عيناه وهو ينظر صوبَ وجه «حَمْزة» في ألم بالغ، الذي التفت خلفه حين سمع خطوات تأتي مُسرعة من خلفه، ثم أدار السّيف وهو ما

مكتبة عابث الالكترونية

يزال مغروزًا في صدر الرّجل، مُستخدمًا جسده كدرع واقٍ..
أصاب سيف صاحب الأنف المُهشّم جسد رفيقه، لم يُمهله «حمزة» ودفع بالدّرع الجسدي نحوه بقوة فطرحه أرضًا.. وانقضّ عليه في شراسة النمر، أمسك عُنقه بيديه وبدأ يضغط عليه بشدة، أخذ الرّجل يقاوم بضراوة بالغة غيرَ أنّ «حَمْزَة» زاد من ضغط قبضتيه على العنق.. تلوّن وجه الرّجلِ وأَرْبَدَ حتّى بدأ يتحوّل إلى اللون الأزرق، صدرت عنه حشرجة خفيفة بعدَ أنْ انتشرت العروق في وجهه وانتفخت.. أمسك بكفيه في وجه «حَمْزَة» وأخذ يَخمشه بأظافره، بدأ جسده ينتفض بشدّة ثم أخيرًا هدأ واستكان للأبد..

ألقى «حَمْزَة» جسده بجوار جسدي الرّجلين وهو يلهث بشدّة، أخذ يحاول استرداد أنفاسه المُتقطّعة حتّى نجح في ذلك بصعوبة، نظر بعدَها صوبَ الجسدين المُمدين بلا حِراك ثم نظر نحو كفيه وهو يصرخ عاليًا:

- لماذا؟!، لماذا؟!.

دفن وجهه بين راحتيه وهو ينتحب ويقول صائحًا:

- لم كُتب عليّ سفك الدّماء؟!، لا أرغب في مواصلة هذه الحياة البائسة.

مكتبة عابث الالكترونية

رفع رأسه صوبَ السّماء بعدَ أن وقف فاردًا ذراعيه إلى أعلى، أخذ يصيح:

- يا من تسكن هذه السّماء، أعلم أنك تسمعني جيدًا، اقبضني إليك، فلا حاجة لي بتلك الحياة، بِتّ أكره نفسي، أمقتها، أحتقرها.

ظلّ على تلك الحال فترة من الزّمن طالت حتّى ظنّها أبد الدّهر، خارت قواه ووهنت، علم أنه لا مُجيب لندائه.. لمح على مقربة منه فرسين كانا يخصان الرّجلين المطروحين أرضًا، همّ بالتوجه صوبهما لكنّه توقف وعاد إلى الرّجلين، تفحّص جسديهما جيدًا ثم أخذ منهما ما كان معهما من زاد قليل، بحث معهما عن بعض الماء لكنّه لم يجد، أخذ وِشاحًا كان يلفه أحدهما حول رأسه، وضعه يُخفي به وجهه بعدَ أنْ تيَقن من خطورة إكماله الطّريق حاسر الرأس مكشوف الوجه.. ثم توجّه صوبَ الفرسين فامتطى صهوة أحدهما وأمسك بلِجام الآخر في يده، ومضى مُستكملاً رحلته بعدَ أن تيَقن من ضياعه إلى الأبد..

بعدَ أنْ علم بخطورة الطّريق واحتمالية تعقّبه من أفراد عشيرة المغاربة طلبًا للثأر، بات إكماله للرحلة بنفس خط سيرها دربًا من دُروب المستحيل، لم يعد أمامه سوى الولُوج

مكتبة عابث الالكترونية

في ذلك الطّريق المهجور مُنْذُ زمن بعيد، التّيه الكبير.. كان قد سمع من سيده «إبْرَاهِيم الحكِيم» أنْ ذلك التيه الكبير كان مأهولاً بالمارّة والعابرين فيما مضى، كانت تسلكه قوافل التّجارة بين الشّمال والجنوب لقصر مسافته مقارنة بالطّرق المُستخدمة حاليًا، غير أنّ وعِرِيته وبُعده عن كل الطّرق المأهولة وامتلائه بقاطِعي الطّرق والوحوش الضّارية حوّلاه مع مرور الوقت إلى طريق مهجور، فمكانه المحصور بين الجبلين الكبيرين أهّلاه للفوز بمكانة الهجر بعدَ أنْ مات وفني كل من يعرف دروبه وشِعابه..

كان قراره بالخوض في ذلك التّيه الكبير غريبًا حقًّا، فلم يكن بحوزته أي طعام أو شراب سوى بضع تمرات يابسات وقليل من الماء وضعه في قِربة جلدية باليه علقها في نِطاقه..

أمسك بلِجام الفرس الذي يمتطيه جيدًا في حين شدّ لِجام الفرس الآخر ليتبعه مُخترقًا ظلي الجبلين الهائلين.. طال به الزّمان تائهًا في التيه دون أنْ يصل لشيْء، انتابته تلك النّوبات كثيرًا حتّى أصبح أكثر خبرة في التّعامل مع تشنجاتها وهزاتها.. كان كلّما أحس بدنو موعدها نزل عن فرسه واستلقى نائمًا على الأرض واضعًا مقبض سيفه في فِمه، يذهب في تلك الغفوة التي لا يعلم مُدّتها ثم يفيق بعدها يتأمل الطّريق من حوله في ذهول.. فني زاده القليل من التّمر بعدَ حين ونفد

مكتبة عابث الالكترونية

ماؤه، لم يعد أمامه سوى التّغذي على أوراق نبات الصّبار الخَشِن بعدَ أن يمتّص ما بها من ماء.. هزل جسده وضعفت بُنيته، طالت لحيته وظهرت عظام وجهه بعدَ أنْ جحظت عيناه، كان في حقيقة الأمر لا يرغب في النّجاة، كان يسعى وراء الموت سعياً حثيثاً، لكنّه كان يطلب موتاً بطيئاً..

تطوّرت تلك النّوبات التي تعصف بكيانه وتزلزله، ومعها ساءت حالته حتّى أصبح يرى «إبْراهِيم الحكِيم» و«يحيَى» رؤيا العين، أصبحا يرافقانه دائماً، كان دوماً يتحدّث معهما ويشركهما في اختياراته وقراراته.. كان يجد في ذلك نوعاً من السّلوان والأنس في تلك الرحلة المُقفرة الطّويلة التي لا يعلم لها نهاية.. حتّى جاء وقت لم يعودا يظهران له، اختفيا بغير رجعة، جنّ جنونه واستشاط غضبه، بات يحدّث نفسه ويصرخ فيها لائماً، أخذ يسبُّها بأقذع الألفاظ وأحطّ العبارات..

في أحد تلك الأيام النّحسات التي طالت حتّى بات لا يعرف عدّتها قرّر أنْ ينهي حياته بيده، حدّث نفسه بسخرية وهو يفترش الأرض جالساً على ركبتيه:

- ولم لا أفعل وأنا البطل الشّجاع، يكفيني ما رأيته من أهوال ومآسي.

مكتبة عابث الالكترونية

أمسك السّيف بكلتا يديه بعدَ أن وضع نَصْله عند بطنه، همّ بغرس النّصل إلّا أنّ تركيزه في تلك المحاولة الفاشلة للموت لم يعطه الفرصة كي ينتبه إلى تلك النّوبة الهائلة من التّشنجات التي توشك أنْ تعصف بعقله وجسده.. فجأة؛ تراخت قبضتاه عن السّيف فسقط بجواره أرضًا، أخذ جسده ينتفض ويهتز بشدّة هزّات عنيفة متتالية، كان ينظر إلى فرسه حين رآه يهتز أمام ناظريه بشدّة بالغة، ثم فجأة اختفى كل شئ تمامًا، أظلمت الدّنيا وسقط في غفوة عميقة..

حينَ أفاق من غشيته كان كل شئ من حوله مُختلفًا تمامًا، كانت السّماء مُصفرة مكفهرّة، تضربها العواصف والزوابع، كان للرياح صَريرًا مُخيفًا، تحمل مع هوائها رمال الصّحراء تلفح الوجوه مُسببةً آلامًا حارقة.. أحكم لفّ الوِشاح حول وجهه، أخذ يتلفّت حوله باحثًا عن الفرسين، كانا على مقربة منه يصهلان بشدّة، يدقّان بحوافرهما على الرّمال من الرّعب والفزع.. اقترب منهما بهدوء، أخذ يربت على عنقيهما ثم مضى سائرًا وهو يسحب لجامهما من خلفه.. كان يسير بصعوبة جمّة بعدَ أن اشتدت سرعة الريح أمامه، بدا له أنّ في استكمال المَسير استحالة بالغة، جال بعينيه في المكان يفتش عن مأوى يركن إليه، يختبئ فيه حتّى تنتهي تلك العاصفة..

مكتبة عابث الالكترونية

من بعيد رأى شَبحًا لرجل يتحرك ببطء في خِضم تلك الرّيح العاتِية، أخذ يُنادي عليه بأعلى صوته، لكنه لم يستجب، حدثته نفسه أن الرّياح ربما تكون حملت كلماته بعيدًا عن الرّجل، سحب الفرسين خلفه حينَ قرّر التّحرك لمقابلته، فمواجهة عاصفة كتلك تكون أفضل برفقة أحدهم عوضًا عن الخوض فيها وحيدًا..

مضى يجدّ في سيره حتّى وصل إلى المكان الذي ظنّ أنه رأى الرّجل يتحرّك عنده، لكنّه لم يجده، جال ببصره مخترقًا تلال الرّمال الحارقة التي تلسع جفنيه، رأى على تلٍ قريب أسفل كتلة صخرية هائلة في الجبل الأيمن بقايا وأطلال حجرة، تقف وحيدة في وسط هذا المكان المُوحِش.. لم يفكر طويلاً حينَ تحرّك صوبها، بدا له الطّريق إليها أطول بكثير ممّا هيأه له نظره، بلغها بصعوبة شديدة، ربط الفرسين بالقُرب من بابها الخشبي الذي كان يرتجّ بشدّة تحت وطأة عصف الرياح..

مضى ينظر متفحصًا المكان من حوله في حَذر بعدَ أن ظنّه مهجورًا، كان المكان بقية من بناء تهدّم معظمه ولم يعد باقيًا منه سوى القليل، كان هذا القليل يشكّل بناء الحُجرة ذات الباب الخَشبي التي وقع بصره عليها.. اقترب من الباب ودقّه بقبضة قوية تناسب صوت الرّياح العاتِية التي كانت تصفر وتعصف بقوة، لكن كانت طرقاته بلا مجيب.. وقف

مكتبة عابث الالكترونية

يتلفت حوله متعجبًا من أمر هذا الرّجل الذي لمحه مُنْذُ قليل، يستحيل أن يكون قد ذهب لمكان بخلاف هذه الحُجرة المتهدمة.. بعد فترة طال زمنها كاد معها أن يخلع الباب ويقتحم الحُجرة، سمع صوت مِزلاج الباب يتحرك مُصدرًا صريرًا كان واضحًا للغاية وسط كل تلك الأصوات العاصفة.. فتح الباب عن آخره، لكن دون أن يظهر أحد خلفه.. كان لا يرى شيئًا في داخل الحُجرة فقد كان الظّلام حالكًا.. ظلّ متسمرًا في مكانه فترة حتّى أعيته الرّمال التي أخذت تلسع وجهه وجفنيه فقرّر دخول الحُجرة أيًا كانت النّتيجة.. مد رأسه بحذر إلى داخلها محاولاً رؤية أي شئ، لكنّه لم يتمكّن.. لجأة سمع صوتًا واهنًا ضعيفًا يقول في هدوء بالغ:

- مرحبًا بك، ادخل في سلام، أو انصرف من حيث أتيت،

سَرت برودة مُخيفة في أعماق نفسه بعدَ أن تجمّدت أطرافه منِ الذعرِ، بقي فترة مُلازمًا مكانه لا يتحرّك.. بعدَ حين أتاه الصوت الوهِن من جديد وهو يقول:

- أما زلتَ موجودًا؟!، تفضّل أو ارحل، لن أترك الباب مفتوحًا أكثر من ذلك.

مكتبة عابث الالكترونية

أخفى توتر قلبه بين ضلوعه وخطا داخلاً إلى الحجرة المتهدّمة، تنحنح بصوت مسموع محاولاً بثّ الطّمأنينة في نفسه، كان يحسّ بضآلة عجيبة على الرغم من بنيانه الطّويل، اتسعت حدقتاه عن آخرهما حتّى يتمكّن من الرؤية، كانت عيناه مازالتا لا تبصران، لم تعتادا بعد على ظلام الحجّرة.. التفت خلفه بحدّة حين سمع صوت إغلاق مزلاج الباب الخشبي، حاول أن يتبيّن ملامح الرّجل لكنّه فشل في ظل هذا الظّلام الدّامس.. سمعه يتحرّك بجواره ويقول بصوته الوهن:

- اتبعني رجاءًا.

تبعه في صمت بعد أنْ مدّ ذراعيه عن آخرهما أمامه محاولاً تلمس الطّرق، تفاديًا للاصطدام بأي شيء قد لا تبصره عيناه العليلتان بالظلمة.. إلا أنّ الأمر لم يسلم من تعثره بشئ صلب على أرضية الحجّرة حتّى كاد أن يسقط على وجهه، إلا أنّ يدًا قوية أمسكت بمرفقه وهي تعينه على التّماسك، سمع الصّوت الوهن من جديد يقول:

- انتبه لخطواتك يا بني.

تعجب كثيرًا من تلك اليد القوية التي يملكها هذا الرّجل، كانت لا تتناسب البتة مع نبرات صوته الوهنة الضّعيفة، انتبه أيضًا لأنّه لا يسمع لوقع خطواته على الأرض صوتًا،

مكتبة عابث الالكترونية

..ساءل في خوف كيف يعرف طريقه في وسط هذه العتمة الحالكة؟!..

من بعيد لاح أمام عينيه بقعة صغيرة ضعيفة من الضّوء، بدت صادرة من دَرج حجري يقود إلى أسفل، رأى صاحب الصوت الوَهِن على هدي من ذلك الضّوء الشّاحب.. كان الرّجل ضئيل الجسم، نحيفًا للغاية كأنّه جسد خالي من اللحم، فقط عظم يكسوه جلد، تبرز من الخلف عظام جمجمته واضحة للعيان أسفل جلد رأسه الحَليق تمامًا.. التفت الرّجل نحوه وهو يشير في اتجاه الدَرَج الحَجَري قائلاً:

- حاذر لخطواتك، سنهبط الدَرَج.

حين التفت نحوه رأى وجهه واضحًا على نحو ما، حليق الوجه تمامًا كحال رأسه، حادّ القسمات والأنف، رفيع الفم كأنّ شفتاه قد شُقتا بسكين رفيع حاد، بارز عِظام الوجنتين، عيناه بدتا كأنّهما مدفونتان أسفل حاجبيه الرفيعين، وإنْ كانتا تلمعان ببريق له وهج عجيب..

هبط من بعده الدَرَج صامتًا تمامًا، وإنْ كان قد شدّ من قبضته على مقبض السيف في جانبه تحسبًا لحدوث أي طارئ.. قادها الدَرَج إلى حجرة فسيحة صخرية، بدا للوهلة الأولى أنّها محفورة في باطن صخور الجبل، خالية من أي شيء

مكتبة عابث الالكترونية

ما عدا فِراشٍ بسيط في جانبها الأيمن من الخيش الخَشِن، قنديل قديم معُلق على جانبها الأيسر، على ضوئه الباهت أصبحت الرؤية مُمكنة، في نهاية الحُجرة يوجد ما ظنّه «حَمْزة» فتحة بئر أو شيء من هذا القبيل، لم تسعفه تلك النّظرة الخاطفة من التأكد..

انتبه على صوت الرّجل يقول:

- تفضل بالجلوس.

افترش الأرض مثلما رأى الرّجل يفعل، شعر بارتباك شديد بعدَ أنْ أخذ الرّجل يتمعّن في ملامحه، قطع ارتباكه صوت الرّجل حينَ قال:

- من أين أتيت؟.

همّ بالإجابة غير أنّ الرّجل استطرد قائلاً:

- لا يبدو على بشرتك سَمار أهل الجنوب، ولا على هيئتك لين أهل الشمال، والمشارقة والمغاربة يخشون المرور من هذا الطّريق لأنّهم يعدونه ملعونًا.

صمت قليلاً يتفرّس في ملامح «حَمْزة» الذي أصابه الوجوم من فراسة الرّجل وفطنته، ثم لمعت عيناه ببريق غريب وهو يقول:

مكتبة عابث الالكترونية

لا بدّ أنك من عشيرة الوَسَطيين.

انتفض «حَمْزة» واقفًا في فزع، استلّ سيفه وهو يصيح في وجهه:

من أنت؟!، وماذا تريد مني؟!.

افتر ثغر العجوز عن ابتسامة واسعة وهو يقول بصوته الوهِن:

كيف حال إبْرَاهِيم الحكِيم؟.

رمقه «حَمْزة» بنظرات غلفت بالشّك وهو يقول في توجس:

- لقد فَارق هذه الحياة.

هزّ الرّجل رأسه في أسى وهو يقول:

- ومن منّا لن يفارقها.

ساد الصّمت بينهما ثم قطعه الرّجل حينَ قال:

- مؤكّد أنّك جائع.

أومأ «حَمْزة» برأسه موافقًا دونَ أن يرد وهو يضع سيفه في غِمده، قام الرّجل على أثر إيماءته وأحضر بعضا من ثمار التّين وحبات الزيتون، وضعها أمام «حَمْزة» ثم افترش الأرض مُجددًا.. انقضّ «حَمْزة» على الثمار يلتهمها بعدَ أنْ

مكتبة عابث الالكترونية

كادت أمعاؤه تتمزّق بفعل أوراق الصّبار الجافّة، انتبه على يد الرّجل تمتد أمامه بكوب خَشبي به بعض الماء، اجترعه «حَمْزة» دفعة واحدة بعد أن تسرب بعضه على جانبي فمه مُغرقًا لحيته وصدره.. كان الرّجل يتأمّل تصرفاته كأنّه يدرسه أو يفحصه، حين تجشأ «حَمْزة» بعدَ أن امتلأ جوفه هدأت أمعاؤه فأخذ يجول ببصره في أرجاء المكان حينَ رأى في طرف قُصي من الحُجرة صُحُفًا كثيرة من الجلد، قال:

- ماذا تفعل بكل هذه الصُحُف؟!.

رمقه الرّجل بتوجس لكنّه قال بنبرة هادئة:

- أدوّن فيها ما شئت.

رفع «حَمْزة» كتفيه في لا مبالاة، على حين خاطبه الرّجل بنبراته الوَهِنة:

- بإمكانك أنْ تقرأ ما فيها، إنْ شئت.

نظر فيها «حَمْزة» مَليًا فاعترته الدَهْشَة لتلك الكتابة التي لا يفقَه من رموزها شيئًا ثم قال:

- ما أنا بقارئ لتلك النّقوش الغريبة.

رَمقه الرّجل بتلك النَّظَرات النّافذة مجددًا، آثار ذلك حفيظته فقال وهو يمط شفتيه:

مكتبة عابث الالكترونية

ما الذي يدفع عجوز مثلك للبقاء في مثل هذا المكان المُقفر؟!، ألا تَخشى على نفسك.

رماه الرّجل بنظرة شعر معها أن روحه ترتجّ، ثم قال:

وما الذي يدفع بشاب مِثلك أنْ يمضي وحده في هذا الطّريق المُوحش حتّى قادته قدماه إلى مكاني المُقفر؟!.

أطرق «حَمْزَة» برأسه إلى الأسفل وهو يقول في حزن:

- لعلها تصاريف السّماء.

رماه الرّجل بنظراته النّافذة وهو يقول:

- بل هي مشيئة القدر.

تعجب «حَمْزَة» من إجابته الغامضة فتساءل:

- وهل هناك فارق بينهما؟!.

تفرّس الرّجل في ملامحه مَليًا ولم يعقب، اكتفى بأنْ هزّ رأسه وهو يقول في هدوء:

- يبدو أنّه سيكون لنا حديثًا طويلاً، لا تزال العَاصفة على أشدّها في الخارج، فلتَنل قِسطًا من الراحة الآن، وحين تنجلي تلك الغُمّة سيكون أمامنا فسحة من الوقت.

مكتبة عابث الالكترونية

أومأ «حَمْزة» برأسه موافقًا، صمت قليلاً ثم قال:

- لكنّي لم أتشرف بعدَ بمعرفة اسمك سيدي الكريم.

ابتسم الرّجل ابتسامة هادئة وهو يقول بصوته الوَهِن:

- اسمي سمعان.

****

مكتبة عابث الالكترونية

(١٤)

.. يَخْنَهْ ..

- ألْن تخبرني بحقيقة الأمر؟!.

هكذا حدّث «يَحْيَى» رفيقه في الزّنزَانة، ذو الصَّوت الوهِن، بعدَ أنْ صدمه بقوله أنه ليس بـ «يَحْيَى»، ساد الصَّمت بينهما فترة وجيزة قال بعدَها الرّجل بنبراته الوَهِنة:

- إنْ كنت تريد حقيقة ثابتة فابحث عنها في غير هذه الحياة، عندَ غير البَشر فلا أحد فيهم يمتلك ناصيتها.

حاول «يَحْيَى» أن يستطلع بعينيه هيئة محدثه، لكن بِلا جدوى بعدَ أنْ أعاقه الظّلام الدّامِس المُسيطر على أجواء الزّنزَانة فقال بنبرة مُستسلمة:

- أرجوك، لن أحتمل المزيد من تلك الأحَاجي والأقاويل الغامضة.

مكتبة عابث الالكترونية

قال صاحب الصَّوت الوَهِن في نبرة هادئة:

- كنت قد سألتني عمّا إذا كنت قد عرفتك فيما مضى، والإجابة هي نعم.

صمت قليلاً ثم زفر في حدَة وهو يكمل مُستطرداً:

- كنتُ قد تعجبت من أنّهم في هذا المكان يعتبرون أنّ الصُحُف تخُصك، والإجابة هي أنّني أنا الذي أعطيتك تلك الصُحُف قبل عشر سنوات مضت.

قال «يَحْيَى» بنبرة مُتلهفة:

- ولكن كيف؟!.

قال الصَّوت الوَهِن:

- أما عن الكيفية فلها قصة طويلة، سأحاول أنْ أختصرها لك ما استطعت.

اتّسعت حدَقتا «يَحْيَى» عن آخرهما وهو يحاول إبصار ما لا يستطيع رؤيته في الظّلام، سمع الرّجل يقول بنبراته الوَهِنة الضّعيفة:

- كنتُ فيما مضى أقطن ديار عشيرة الوَسَطيين، كنّا نحن الجيل الثالث من البَشر بعدَ أولئك الذين نجوا من أهوال تلك الكارثة التي ضربت الأرض فأهلكت

مكتبة عابث الالكترونية

حضارة الأقدمين، كنت آنذاك شابًا في العقد الثالث من العمر، بالطّبع لم أر بعيني تلك الكارثة لكنّني عاصرت بعض من بقي حيًا من النّاجين الأوائل، كانت حياتنا شديدة الصّعوبة، كان البقاء فيها للأقوى، الغريزة هي التي تتحكم في مقدراتنا، ولعلّك أصبحت تعلم أنّ غريزة البقاء هي أقوى غرائز البَشر. في تلك الآونة كان في عشيرتنا شبابًا كثر، معظمهم يجيدون مهارات متعددة تمكننا من التّفوق على أقراننا من العشائر الأخرى، برز من بينهم شابان، إبْرَاهِيم وأنا، كنّا في الأصل شديدي القُرب والصّلة حتّى إذا ما تضاربت المصالح بيننا وظنّ أنني أرغب في الاستيلاء على مُلك العشيرة بمفردي، قام بإبعادي عنها، منعني من العودة إلى دياري إلى الأبد، كان إبْرَاهِيم مؤمنًا بمبدأ القوة المطلقة، كان يرى أنْ كبير العشيرة وحده هو صاحب الحق في إصدار القرارات بينما يتوجب على باقي أهل العَشيرة طاعته دون أدنى معارضة، بينما كنت أنا مؤمنًا بأهمية الشّورى بين البَشر، كنت أرى أنه لا يوجد فرد واحد تجتمع فيه كل الفضائل، لذا لابدّ من التّشاور حتّى يتم التّوصل لما فيه صالح العَشيرة.

مكتبة عابث الالكترونية

قاطعه «يَحْيَ» وقال:

- معذرة، لكن من هو إبْرَاهِيم هذا؟!،

استطّرد الصّوت الوَهِن بهدوء كأنّه لم يسمعه:

- حينَ نفاني إبْرَاهِيم خارج الدّيار لم أعترض وامتثلت لأمره، لم أحاول إشعال فتنة بين قومي، كنت أخشى عليهم التّشتّت والتّشرذم، لكني بعدَها أصبحت ساخطًا عليهم، كارهًا لكل ما تعلمته من قيم ومُثل عليا، أخذت أجوب بِقاع الأرض بحثا عمن بقي حيًا من النّاجين الأوائل، التقيت منهم ما قدر لي أن أقابل، تقصيت منهم أخبار وتاريخ الحضارةِ البَشرية البائدة محاولاً التّعلم منها والاعتبار بها، حتّى وجدت أنّ ذلك لم يجب على ذاك السّؤال الذي كان يضرب رأسي كمسمار حادّ، «لماذا نحن على هذه الأرض؟!، ما الجدوى من كل هذا القتل والدّمار؟!»،. تحوّل سؤالي إلى شك كبير ثم بات هذا الشّك كُفرًا بكل شيء، كان بعض النّاجين الأوائل قد أخبروني عن ديانات قديمة كانوا يؤمنون بها ويقدسونها لكنهم لا يذكرون منها شيء بعدَ أن انشغل بالهم وانحصرت اهتماماتهم بضرورة البقاء، والمحافظة على جنس البَشر، تعلّمت من أحدهم لغة

مكتبة عابث الالكترونية

قديمة كانت قد اندثرت وطواها سجل النّسيان، هي تلك اللغة التي بها دوّنت صُحُفي، اللغة العربية.

قاطعه «يَحْيَى» مجدداً:

- ولكن ما فائدة ذلك إنْ لم يعلمها غيرك؟!.

قال الصّوت الوَهِن:

- لقد علمتها لغيري كي تعيد إحياءها من جَديد، لقد علمتها لك أنت يا حَمْزة.

ساد الصّمت برهة ثم قطعه «يَحْيَى» قائلاً:

- حَمْزة؟!، مَن يكون حَمْزة؟!، يبدو أنّك قد خَرِف عقلك بالفعل أيّها الرّجل.

قال الصّوت الوَهِن بهدوء:

- تلك هي الحقيقة التي كنت تطلبها وتسعى وراء معرفتها.

صاح به «يَحْيَى» في غضب:

- ماذا تقول يا رجل؟!، أنا لا أعرف هذا الحَمْزة، اسمي يَحْيَى.

صمت الرّجل برهة ثم قال بنبراته الوَهِنة:

مكتبة عابث الالكترونية

- لقد قابلتك لأول مرّة مُنْذُ عشر سنوات مضت، حينَ وجدتك تطرق باب حجرتي المُتهالكة في أحد تلك الأيام العاصفة، كان الضّعف والهزال باديين على محياك، كانت أمعائك تتضور من الجوع، ضيفتك عندي لعام كامل، كنت حينها تعاني من بدايات تلك النّوبات التي مازالت تعصف بكيانك كله، تهذي بأمور كثيرة غريبة، في بعضِ الأحيان تكون حَمْزة وفي البعض الآخر تصبح يَحْيَى، حتَى أنني وقعت في حيرة من أمري لبعض الوقت أيهم أنت؟!، حتّى أخبرتني باسمك، كنت أبيت إلى جوارك ليال طوال، أحاول أن أخفف عنك من وطأة تلك النّوبات، أخبرتني حينها عن أفعال رهيبة اقترفتها، لم أبال فقد كنت أراك أفضل مني، فعلى الرغم من خطاياك الفَادحة إلا أنّ ضميرك لم يتخلِ منها أو يتنكّر لها بل على العكس بات يسبب لك عذابا مريرا، لم يمنحك ضميرك العفو والغفران اللذان كنت تبحث عنهما، في حين اخترت أنا الفرار من المواجهة وآثرت الانعزال في صمت. في تلك الآونة وجدت فيك ضالتي المنشودة، علمتك اللغة العربية، أئتمنتك على الصُحف كي تأخذها إلى ديار الوَسَطيين، كنت

مكتبة عابث الالكترونية

أجد في ذلك عزاءًا لي عمّا احتفظت به لنفسي فترة طويلة من علوم وأسرار، كنت أتمنى أنْ تصل تلك الصُحف لأهلي، كنت آمل أن يتعلّم منها الوسطيّون ما يعيدهم إلى جادّة الصّواب».

هزّ «يَحْيَى» رأسه غير مُصدق لما يقول الرّجل ثم قال:

لا أصدق حرفًا واحدًا ممّا نطقت، كل ما تقوله لا يعدو أن يكون محض هراء، وكيف عرفت بوجودي في القَلعَة إنْ كنتَ تقطن في مكان آخر لا تخرج منه أبدًا كما تزعم؟!».

أجابه الرّجل بنبرات صوته الوَهِنة:

بعدَ أن أمضيت معي في حجرتي عامًا كاملاً، أتقنت خلاله العربية، بتّ ملمًا بكل ما دونته في الصُحُف، اتفقنا على أن تعودِ للديار، ترجع لعشيرة الوَسَطيين، تعلّمهم ما في الصُحُف من علوم وأخبار، غادرتني على وعدٍ بأنْ تعودني كل فترة نتدبر فيها سويًا ما قد يجد من أمور نرى إضافتها لتلك الصُحُف، لكن مرّت سنوات دون أنْ يَصلني منك أي خبر، قرّرت أن أتقصّى أنا أخبارك، غادرت الغُرفة بعدَ أكثر من أربعين سنة قضيتها أسير العزلة والوحدة، لم أجرؤ

مكتبة عابث الالكترونية

على العودة لديار الوَسَطيين، لكنّني علمت أنّك لم تعد إليهم، بدأت أطوف في العشائر الأخرى بحثًا عنك، حتّى قابلت شخصًا من عشيرة المَشارقة أخبرني أنّه شاهدك في حفل تنصيب أمير قلعة الشّمال، لم أتردد لوَهْلَة، قدمت إلى هنا من فوري أخبرتهم أنّي أبحث عن حَمزة فلم يَعرني أحدهم بالاً، أخبرتهم أنّي أبحث عن صاحب الصحف فاقتادوني إلى تلك المرأة الملعونة التي يطلقون عليها سَيّدةُ العَابِدات، أخذت تسألني عمّا هو مدوّن فيها، لم أجبها بالطّبع، حبسوني هنا وعذبوني حتّى التقيتك.

صمت «يَحْيَى» تمامًا بعدَ مقالة الرّجل الأخيرة، بعدَ فترة وجيزة قال بصوت مُضطَرب:

- هلاّ تحكي لي ما أخبرتك به حين التقينا؟.

سكت الرّجل قليلاً ثم بدأ في حكي كل ما كان «حَمْزَة» قد أخبره به مُنذ عشر سنوات مَضت، كان «يَحْيَى» يستمع إليه في انصات شديد، لا يصدّق ما يصل إلى أذنيه، كأنه يسمعه لأول مرّة، بين حين وآخر تعتريه رعدة ورجفة ثم تدمع عيناه في صمت..

مكتبة عابث الالكترونية

بعدَ حين وعندما فرغ الرّجلَ من حكيه، كان «يَحْيَى» منزويًا في ركن قصي من أركان الزّنزانة، يلتصق بجسده في جدارها الرطب، يبكي وينتحب في صوت مُرتفع، حاول الرّجل الوَهِن أنْ يقترب منه ليواسيه لكنّه لم يستطع فقال:

- هوّن عليك يا بني.

أجابه «يَحْيَى» بصوت اختنقت نبراته بالعبرات:

- ليتني ما سألت، ليتني ما عرفت، بتّ موقنًا أنّ جهلي كان نعمة ونسياني كان منحة، الويل لي، ماذا أفعل بكل تلك الدّماء التي لطخت يداي بها؟!.

قال الرّجل بنبرات متأثرة:

- لقد أخطأتْ حقًا يا بُني، لكن مَن منّا لم يخطئ، أظنّ أنّ فقدانك لذاكرتك هذا هو نوع من التكفير عن خطاياك، أنت الآن كما أرى إنسان صالح ترفض كل هذه الشّرور، تمالك نفسك فربما يوجد طريق للغفران.

قال «يَحْيَى» بصوت تخالطه دموعه الغزيرة:

- الآن فقط فهمت معنى تلك الأحلام السّيئة والكوابيس المريعة التي كانت تنتابني دومًا، لقد قتلت من كفلني وعلمني، قتلت أعزّ أصدقائي

مكتبة عابث الالكترونية

وامرأته، حرمت ابنهما الرّضيع من حنانهما، خذلت أبناء عشيرتي، خنت أمانة نفسي، عن أي غفران تتحدث!.

صمت الرّجل قليلاً ثم قال بنبراته الوَهِنة:

- كانت لدي قناعة فيما مَضى أنّ الخير والشّر واضحان وضوحًا لا ريب فيه، يفصل بينهما حدّ قاطع، كنت أظنهما لا يختلطان أبدًا، لكنّني بعدَ حديثي معك في هذه الزّنزَانة بتُّ لا أتبينهما واضحين، بل أصبحت أراهما باهتين شاحبين يصعب عليَّ أنْ أفرق بينهما. لعلّ انغماسنا في حكايتك هو الذي يمنعنا أنْ نَرى أحقّ هي أم باطل؟!، لكن ربما إذا ابتعدنا عنها مسافة كافية أمكننا حينها أنْ نحكم بوضوح، فكم من أفعال ارتكبت في الماضي كان يحسبها معاصروها شرًا لكنَّا اليوم بِتنا نعدّها خيرًا. على أيّة حال أظنّ أنّ ما بك من مرض وعلّة ربما يكون منحة علوية، فرصة أخرى يمنحك إياها القدر لتصلح ما قد أفسدته فيما سبق.

قال «يَحْيَى» بنبرات باكية:

- لكنّي لا أستحق تلك الفرصة الثانية.

مكتبة عابث الالكترونية

صمت فجأة واتسعت عيناه من الخوف حين شقّ سمعه صوت زلزل أرجاء نفسه المتزعزعة، كان صوتًا يعرفه جيدًا تذكّره على الفور كأنه لم يفارق ذاكرته أبدًا، كان صوت «إبراهيم الحكيم» يخاطبه بنبرة تردد صداها مدويًا في كل جنبات الزنزانة:

- اعلم أنك إن أكملت هذا الطريق فلن تذق طعم الراحة أبدًا، لن يغمض لك جفن، سيفارقك النوم إلى الأبد.

تلفت حوله في هلع وذعر باحثًا عن «إبراهيم الحكيم»، لكن بلا جدوى، أفاق من أوهامه على صوت الرجل الوهن يقول في هدوء شديد:

- تلك هي الحكمة العلوية التي لا معقب لحكمها ولا رادّ لقضائها.

تجاهله وكأنه لم يقل شيئًا، أخذ يرهف السمع محاولاً الإنصات لصوت «إبراهيم الحكيم»، كان متأكدًا من سماعه لصوته، فجأة خاطبه الصوت مجددًا:

- أما عني فقد سامحتك، لكن لتكن الأقدار رحيمة بك، فمنذ تلك الساعة لن تعرف للراحة سبيلاً، لن تجد لك السعادة طريقًا.

مكتبة عابث الالكترونية

أخذ يبكي وينتحب في حرقة وهو يصيح مخاطبًا ذلك الصَّوت، أو «إبْرَاهِيم الحكِيم»:

- سامحتني!، كيف؟!، لابدّ أنْ تقتصّ مني، أرجوك، اضربني، سُبَّني أو حتّى أقتلني، صدقني أنا لا أخاف الموت، فالحياة بمثل هذا الإحساس الفظيع بالذّنب ليست بحياة بل هي ألم شديد وعذاب مقيم.

سأله صاحب الصَّوت الوَهِن بعدَ أنْ اعتراه القلق من حديثه مع شخص غير موجود:

- من تُحَدِّث يا بني؟!، هوّن عليك.

مسح «يَحْيَى» عيناه بكفيه وقال بصوت خافت:

- أنا لا أستحق أنْ تسامحني، بل أستحق الموت ألف مرّة، لا أمانع إنْ متّ في سبيل الحصول على الخلَاص والغُفران، لم أعدّ أحتمل المزيد، كأنّني حينَ هويت على أجسادهم بسيفي لم أقتلهم بل أرحتهم، الحقيقة أنّي كنت أقتل نفسي، حتّى أدركني الموت وأنا ما زلت حيًا.

قال صاحب الصَّوت الوَهِن في نبرة متأثرة:

مكتبة عابث الالكترونية

- يا بُني إنّ ما تفعله من جلد لذاتك لن يفيدك في شيء، عليك بشيء من الصّبر حتّى تمكن من استكمال دربك ورحلتك.

قال «يحيى» في قنوط:

- لقد انتهى طريقي عند هذا الحدّ، تلهّفت كثيرًا لمعرفة ذاتي الماضية التي كنت لا أذكر عنها شيئًا، لكنّي حين عرفتها وجدتني أمقت ذكراها وأتمنى لو بقيت نسياً منسياً، بات استكمالي لرحلتي درب من العبث والخبال، لا أرغب في مواصلة هذا العذاب، ربما كنت سأجد بعض الراحة إنْ كانت العتمة قد حلّت عليّ، وربما كنت قد حظيت بشيء من الغُفران إنْ كان الضّياء قد أشرق على روحي، لكن ذلك التّيه البغيض الملعون ما بين العتمة والضّياء لا أقدر على تحمّل عذابه، أصبحت كالأعمى لا أرى شيئًا، تورمت قدماي من طول الطّريق، روحي قد امتلأت وفاضت بالحزن، لَمْ أعد أحسّ بأي شيء، من خلفي طريق طويل قطعته محمّلاً بالخطايا والآثام، ومن أمامي درب معتم ضيق مفروش بأشواك النّدم وصخور الأحزان.

قال صاحب الصّوت الوَهِن بنبرة هادئة:

مكتبة عابث الالكترونية

- إياك والنّدم على ما فات من عمرك، فرُب يوم سي، يكسبك حِنكة وصَلابة.

انخرط «يَحْيَى» في نوبة بكاء جديدة ثم قال بنبرة مُتهدّجة:

- لا أدري ماذا أفعل الآن بعدَ أن علمت ما قد كان؟!.

قال الرّجل ذو النبرات الوَهِنة:

- وإنْ عرفت؟!، أتطيع؟!.

لمعت عينا «يَحْيَى» في ظُلمة الزّنْزَانة الحالِكة، قال وهو يمسح بكفيه دمعه:

- سأطيع، ولن أحيدَ عن الجادّة أبدًا.

صمت الصّوت الوَهِن برهة ثم قال بنبرة هادئة:

- ربما يكون ما أنت فيه الآن فرصة أُخرى قد وهبها لك القدير، تُصلح فيها ما أفسدت وقت أنْ كنت حَمْزة، لا أدرى حقًا!!، لكن ما أنا مُتيقن منه أنه يوجب عليك فعل شيء واحد.

ردّ «يَحْيَى» متلهفًا:

- ما هو ذلك الشيء؟!، أرجوك، دلّني عليه.

أجاب الرّجل في وهَن:

مكتبة عابث الالكترونية

خفّف عنك حملك يا بُنَي، لقد نَاء بكاهلِك ووهن ظهرك من عبء ما يحملان.

قال «يَحْيَى» متسائِلاً:

- فسر لي قولك رجاءً، لا طاقة بي لأحاجيك.

لم يرِد الرّجل ذو الصّوت الوَهِنِ، طالت فترة صمته حتّى ظنّ «يَحْيَى» أنه قد نعس، قطعها بعدَ حين صوت زحف على أرضية الزّنزَانة، انكمش «يَحْيَى» في ركنه القَصي الذي يقبع فيه وازدِاد التصاقه بالجدار بعدَ أن اعتراه خوف من جراء ذلك الصّوت الزاحف، انتفض جسده رعبًا حين أحسّ بيد باردة تُمسك بذراعه، سمع صوت الرّجل الوَهِن يأتيه مُجددًا قائلاً:

- ساعدني يا بُني على الاقتراب منك.

لم يجد «يَحْيَى» بُدًّا من سحبه من يده حتّى اقترب منه وتلامس جسديهما، لم يحس لجسد العجوز حرارة بل كان باردًا شديد البرودة، على الرغم من خوفه إلا إحساسًا غريبًا بالشّفقة تجاه الرّجل انتابه، شقّ سمعه صوت الرّجل يقول بنبراته الوَهِنة التي باتت مألوفة لديه ومُحبّبة إلى أذنيه:

- لم أجد فيك نزوعًا إلى الخَطيئَة بفطرتك، لكنّه فقط طموحك الجامح وأنانيتك المُفرطة اللتان لم يقيدهما

مكتبة عابث الالكترونية

ضميرك آنذاك، ذلك الطموح هو ما دفعك لتأديب عشيرة المغاربة حرصًا على تحقيق آمالك، أما ما تلي ذلك من خطايا فهي لا تعدو أن تكون خوفًا ناجمًا عن ذلك الشّعور المقيت بالذّنب.

سأله «يَحْيَى» بنبرات حاول أنْ تكون هادئة على الرّغم من الآلام الفظيعة التي استعرت في داخله ودموعه التي انهمرت على خديه في هدوء:

- لم لا تقو على الحركة يا صديقي؟!.

تجاهله الرّجل تمامًا وقال بنبراته الوَهِنة بعدَ أن اضطّرب صوت أنفاسه وتلاحقت:

- لا ذنب لزينب فيما ارتكبت، أظنّها كانت تحاول حمايتك ممّا ظنّته خطرًا على طموحك في ذلك الوقت، زينب أحبتك كما لم يحبك شخص آخر، قلّما يجد المرء امرأة تكون على استعداد للقتل من أجله.

قال «يَحْيَى» متعجبًا:

- لكنّك أخبرتني أنّها مَن دفعني لقتل يحي وامرأته؟!.

أجاب الرّجل بصوته الوَهِن:

مكتبة عابث الالكترونية

- بل أنت من قتلت يَحْيَى وامرأته، كنت تخشاه لأن مجرد وجوده على قيد الحياة وذلك الصّفاء الذي يشع من نفسه يمثلان إدانة صريحة لك بعدَما لطخت الدّماء يديك، كنت تتمّنى أن يخلصك قتل يَحْيَى من ذلك الشّعور المُنغص بالإدانة والإحساس المقيت بالذّنب، لكن ما حدث كان على العكس من ذلك تمامًا، فقد ضمن قتلك لِيَحْيَى دوام شعورك بالذّنب إلى الأبد، ناءت نفسك بحمل هذا الذنب فانهارت واختارت الانزواء في طي النّسيان.

قال «يَحْيَى» بصوت شارد:

- يبدو أن مصيري في هذه الحياة هو الحزن العظيم.

شعر بيد الرّجل المُرتعشة تربت على خده ثم سمع صوته الوَهِن يقول في ضعف:

- خُذ فرصتك الثّانية يا بني، لا زال أمامك وقت يكفي، لو أنّ باب الصّفح كان مُغلقًا أمامك ما كنّا قد جلسنا الآن أو حتّى تلاقينا مجددًا، حينَ تأتيك تلك المرأة بالصُحف، خذها واهرب بعيدًا عن ذلك المكان، عُدْ إلى حجرتي، هناك ستجد صحيفة دوّنت فيها ما يعينك على تعلم العربية من جديد، أظنّك

مكتبة عابث الالكترونية

ستتقنها سريعًا كما فعلت أول مرّة، حينَ تفعل عُدْ إلى ديارنا وعلّمهم ما غفِلَ عنهم، فبدون تلك الصحف لن تقوم لهم قائمِة أبدًا.

هزّ «يَحْيَى» رأسه موافقًا ثم قال:

- صدقت يا صديقي، سنهرب من هذا المكان، ثم نذهب لحجرتك، تعلّمني تلك اللّغة ثم نعود إلى ديارنا.

شقّ سمعه صوت ضحكة واهِنة ندّت عن فم الرّجل ثم قال بعدَها:

- كلا يا يَحْيَى، لن أصحبك في تلك الرّحلة، ستكون فيها وحدك، فإنّ رحلتي قد انتهت عند هذا الحدّ.

قال «يَحْيَى» مُتعجبًا:

- ماذا؟!، وكيف سأصل لحجرتك يا رجل؟!.

ضحك الرّجل الوَهِن مجددًا ثم قال في ضعف شَديد:

- كنت قد سألتني عمّا يعوقني عن الحركة، لقد عذبني أتباع سَيّدةُ العابِدات حتى أحدثهِم عمّا هو مخطوط في تلك الصُحف، لقد هشموا ساقي وحطّموا ركبتي تمامًا، أصبحت قعيدًا لا أقو على الحِراك أبدًا.

صاح «يَحْيَى» في غضب:

مكتبة عابث الالكترونية

- هؤلاء المَلاعين، لابدّ أن ينالوا جزاءهم.

تجاهله الرّجل ذو الصَّوت الوَهِن واستطّرد قائلاً:

- أمّا عن الطّريق لحجرتِي، فبعدَ قليلٍ سأرتاح مفارقًا هذه الحياة بعدَ أن أدّيت ما عليّ، سيكون عليك أن تشقّ أسفل ذلك الثوب الذي يستر جسدي، ستجد طريقًا قد رسمته بدمائِي التي سالت وقت تعذيبي على أيديهم، اتبعه بدقّة تصل إلى حجرتِي، هناك ستجد كل شيء..

قال «يَحْيَى» في نبرة حادّة:

- محال، لا يمكن أنْ أتركك هنا وحدك بعدَ كل ما تكبّدته من مشقة للعثور عليّ، ثم إنّني لا أستطيع أن أفعل ما طلبت دونَ معاونتك، لقد أرسلك القَدر إليَّ لتنير تلك العتمة البغيضة التي استحوذت على روحي، لا يمكن أن أدعك أبدًا، حينَ نصل لحجرتك سنجد حلاً في تلك الصُحُف لِما أصابك، أليس كذلك؟!، ألم تدوّن فيها علوم الأقدمين؟!، مؤكد أنه كان لديهم دواءٌ لِما بك، لا تقلق يا صديقي، لازال أمامك عمر مَديد نتحاكى فيه عمّا جرى معنا، سنتذكر فيه تلك الأوقات ونضحك ساخرين ممّا حدث.

مكتبة عابث الالكترونية

ساد الصّمت التّام أرجاء الزّنزانة ولم يعد يسمع فيها سوى صوت أنفاس «يَحْيَ»، قال بصوت حاول أن يكون مرحًا:

- لم الصّمت يا صديقي؟!، أتراكَ كنتَ تحدثني عن الأمل وقلبك خالٍ منه؟!..

لم يجدِ جوابًا لسؤاله وبقي السّكون المُطّبق هو الجواب. مسح بيدٍ مُرتجفة على وجه الرّجل ذو الصّوت الوَهِن بجانبه، لكن بلاً جدوى، لم تأته إجابة، هزّ كتفه برفق فمالت رأس الرّجل على كتفه.. تسمّر «يَحْيَ» في مكانه للحظات بعدَ أن أيقن بموت الرّجل، علم برحيل صديقه ونديمه الوحيد في تلك العتمة الحالكة، أخذت شفتاه ترتعشان رغمًا عنه ثم فجأة انخرط في نوبة بكاء مَريرة، أنام رأس الرّجل على فخذه وأخذ يربت على رأسه، كان يكتم صرخاته المُلتاعة ويخرج بَدلاً عنها زفرات حادّة مُؤلمة، أخذ يحدّث جسد الرّجل:

- لماذا؟!، لماذا رحلت؟!، لم تركتني وحدي مجددًا؟!، يا...

صمت برهة حينَ اكتشف أنّه حتّى لم يعرفه حقًّا، لا يذكر شيئًا سوى ما أخبره به فقال باكيًا:

- يا مُعلمي ومُرشدي، ستبقى خالدًا في روحي، ضياءً أهتدي به وقت العتمة.

مكتبة عابث الالكترونية

مكثَ في مكانه وظلّ على حاله تلك فترة ظنّها طالت أبد الدّهر، حتّى غشاه نُعاس ثقيل لا يقل ثقلاً عن ذلك الحزن الغاشِم الذي اكتوى به صدره، أفاق على صوت باب الزّنزَانة يفتح بهدوء مُصدرًا صَريرًا خَافتًا، وضع كفيه أمام عينيه من شدة الضوء، بعدَ فترة وجيزة لاحت أمامه «سَالُومي» واقفة تحمل بيدها مشعلاً، تمسك في يدها الأُخرى صندوقًا خَشبيًا متوسط الحجم.. أشارت له بالنّهوض وقالت بصوت هامس:

- هيا، تحركا، لا وقت أمامنا.

على ضوء لهب المَشعل في يد «سَالُومي»، حانت نظرة حَزينة من «يَحيَى» صوبَ وجه صاحبه ذي الصّوت الوَهن، رأى وجهه واضحًا على نحو ما، كان حليق الوجه والرأس تمامًا، حادّ القَسَمات والأنف، رفيع الفم كأنّ شفتاه قد شقتا بسكين رفيع حادّ، بارز عظام الوجنتين، كانت عيناه مفتوحتان عن آخرهما أسفل حاجبيه الرفيعين، وإنْ كانتا فيهما نظرة ارتياح وسعادة.. سقطت دموع «يَحيَى» على خديه وهو يقبل جبين الرّجل، قام من جلسته بصعوبة بعد أنْ تيبّست قدماه من طول فترة جلوسه، حمل الرّجل على كتفه ثم التفت صوبَ «سَالُومي» وقال:

- هيا بنا.

مكتبة عابث الالكترونية

رمته «سَالُومِي» بنظرات الاستغراب وقالت:

- ما هذا؟!، أهو ميت؟!.

أومأ «يَحْيَى» برأسه في صمت، في حين قالت «سَالُومِي» في حدّة:

- وماذا تظنّ نفسك فاعل بجسده؟!.

قال «يَحْيَى» في إصرار:

- لن أتركه هنا، سأحمله معي حتَّى أواري جسده في ثرى حجرته.

لم تجادل «سَالُومِي» طويلاً معه لضيق الوقت، أشارت له أن يتبعها في صمت، حينَ غادرا الزّنزَانة انتفض جسده ومعه جسد الرّجل السّاكن على كتفه، وجد أمامه حارسان من حرس الأمير، تذكّرهما على الفور، كانا هُما مَن أوصلاه إلى المَعبَد وقت أنْ طلبته سَيّدةُ العَابِدات، تسمّر في مكانه بعدَ أن ألجمته المفاجأة، جذبته «سَالُومِي» من ذراعه في حدّة وقالت بغضب:

- لا تضع مزيدًا من الوقت، لا تخف منهما، إنّهما معنا.

قال في شك وهو يرمق الحَارِسين خِلسة:

مكتبة عابث الالكترونية

- ولكن كيف؟!.

أجابت «سَالُومي» بنفاذ صبر:

- الكثير من أهل القَلعَة لم يعجبهما ما صارت إليه الأمور من قتل قائد الحرس لسَيّدةُ العَابِدات واستيلائه على أمور القَلعَة، هاذان الخَارِسان منهما، هيا لا تضع المزيد من الوقت، فقد قاربت الظلمة أن تنقشع، وباتت أيام الضّياء العشر توشك على الانبلاج.

تبعهم «يَحْيَى» صامتًا حتّى خرجوا من باب القَبْو، كان السّكون مخيمًا على أرجاء السّاحة الكبرى في هذا الوقت بعدَ أنْ خلد غالب أهل القَلعَة في سُبات عميق، مضوا يسيرون متخفين في محاذاة الحوائط الجانبية للسّاحة حتّى وصلوا إلى البوابة الغربية، دقّت عليها «سَالُومي» بيدها دقّات خافِتة بإيقاع مِعين، فتح جزء ضئيل منها يِسمح بمرور شخص واحد فقط، مَرقوا مِن خلاله متابعين حتّى غادروا القَلعَة وسمعوا من خلفهم صَريرًا خافِتًا نبأهم بإغلاق بابها الغَربي من خلفهم.. مضوا يجدون في سيرهم حتّى واراتهم تلك الأشجار السّامقة بالقُرب من حديقة المَعبد فأشارت «سَالُومي» إلى الخَارِسين بيدها، أحضرا فرسًا قويًا علقوا في سِرجه ما يحتاج إليه «يَحيي» من طعام وشراب في رحلته..

مكتبة عابث الالكترونية

كان «يَحْيَى» في تلك الأثناء قد أراح جسد صاحبه على الأرض بعدَ أنْ نال منه التعب مأربه، انتبه على يد «سَالُومي» تربتُ على كتفه وتقول:

- الآن يمكنك الرّحيل حيث تشاء، ستجد في هذا الصّندوق تلك الصحف التي كانت تريدها سيدتي، أرجو أن تجدَ أنت فيها ما ينفعك.

صمتت قليلاً ثم استطردت:

- وينفع البَشر أجمعين.

كانت الشمس قد وصلت بالكاد إلى مكانهم حيث يقفون، تُشرق على استحياء بعدَ أن استبدّ الظّلام بالأرض لفترة طالت حتى كاد الخلق أنْ ييئسوا من انبلاج نور الصّبح، تخلل أشعتها في خجل أفرع وأوراق الأشجار الوارِفة المحيطة بهم، رفع «يحيَى» نظره إلى السّماء يتأمّل تلك الأشعة التي اخترقت أفرعِ الأشجار مشكّلةً ظِلالاً وألوانًا رائِعة ثم رمى بصره صوبَ «سالُومي» وقال متعجبًا:

- ولكن لِمَ المساعدة؟!.

هزت «سَالُومي» كتفيها وقالت بنبرة هادئة:

- لا أظنّ أنّ ما جرى هنا كان صوابًا.

مكتبة عابث الالكترونية

ثم مدّت يدها بغمد جلدى يسكن فيه سيف صَلد وقالت:

- وهذا سيفك الذي منه عرفنا اسمك، كانت سيدتي تحتفظ به عندها.

ارتعشت أنامله وهو يمدّ كفّه ليمسك السّيف، وجد على مقبضه نقشًا بارزًا لحروف واضحة شكّلت اسم «يَحْيَى».. فرّت دمعة خائنة من عينه لم يعرها بالاً ثم التفت صوب «سَالُومي» وقال:

- وأنتِ، ألن تأتي معنا؟!.

هزّت «سَالُومِي» رأسها في حزن وانهمرت الدّموع من عينيها، أومأ «يحيى» برأسه متفهمًا ثم توجه صوب جسد صاحبه، رفع ثوبه من الأسفل، ارتسمت على شفتيه ابتسامة حزينة حين رأى ما خطّه بدمائه على ذلك الجزء السفلي، مزّقه بيده ثم أمسك به جيدًا وامتطى صَهوة الفرس بعد أن أنام جسد صاحبه خلفه على ظهر الفرس، انطلق متجهًا جهة الجنوب، انطلق عائدًا إلى حجرة صاحبه..

****

مكتبة عابث الالكترونية

مكتبة عابث الالكترونية

(١٥)

.. زينب وإسماعيل ..

«لم أره بعدَ أنْ غادر حجرتنا مُنْذُ أكثر من ثلاثين عامًا سِوى مرّة وحيدة»..

انتبه «إسماعيل» على صوت «زينب» تَسعُل بشدّة بعدَ أن نطقت بعبارتها السّابقة، رفع رأسه الوَهِنة من فوق الصُحُف أمامه ببطء شديد، كانت عيناه حمراوتان متورمتان وانتفخ جفناه من كثرة البكاء، لم يتلفّت نحوها بعدَ أن اضطربت مشاعِره وتصارعت بداخله الظّنُون.. أكملت «زينب» حديثها وهي مُمدّدة على الفِراش الخشِن كأنّها تحدّث نفسها بصوت مسموع:

- ما زلت أذكر ذلك الصّباح البائِس حينَ استيقظت ولَم أجده بجواري، كأنّه كان بالأمس القَريب على الرغم من فوات ثلاثون سنة، حدّثت نفسي حينها

مكتبة عابث الالكترونية

أنه قد يكون خرج مبكرًا لأمر ما بعدَ أنْ أصبحت أفعاله تستعصي على فهمي، غامضة لا أجد لها تفسيرًا، لكن جانبًا خفيًا في نفسي حدّثني أنه قد ذهب بغير رجعة، أنّه قد فارقني إلى الأبد، أمضيت طيلة هذا الصّباح في انتظاره حتى يئست من عودته، خرجت أبحث عنه في كل مكان في ديار العشيرة، لكن بلا جدوى، مكثت أبكي أيامًا طويلة على فقده حتى جفّت الدّموع في عيني، لم يخرجني من تلك الحالة البائسة إلا شيء واحد، صوت بكائك أنت يا صغيري، علمت أنك أنت من ستمنحني الصّبر على خسارتي الفادحة لحب حياتي.

كان «إسماعيل» ما يزال على حاله من الاضطّراب والتزعزع، لا يعلم كيف السّبيل إلى التّصرف حيال ما عرفه من حقائق، انقلبت معها كل ثوابت حياته رأسًا على عقب، استمرّت «زينب» في حديثها مع نفسها بصوت مسموع:

- حتّى كان هذا اليوم من عشرين عامًا، كنت أنت حينها في العاشرة من عمرك، ترقد نائمًا في فراشك، تنعم بأحلامك الهادئة، لا تُلقي بالاً لما يجري من حولك، وكنت أنا أنوء بحمل مشقة أمور العشيرة، ومسئولية تربيتك، في ذلك اليوم سمعت حركة بسيطة

مكتبة عابث الالكترونية

بالقُرب من مدخل الحُجرة، توجّست نفسي خيفة فقد بات الخوف مسيطراً على كل مَجريات حياتي، ينغصّ بمرارته مَذاق كل شيء حلو فيها، أصبحت أفضل أن تنطبق السماء على الأرض بدلاً أن يغشاني هذا الخوف اللعين كلما انفردت إلى نفسي، باتت الأحلام المُزعجة والكوابيس اللعينة هي رفيقي الدائم في كل ليلة، أصبحت أفضّل أنْ أكون مع الموتى الذين تسببت في قتلهم، بل تمنيت أن أكون مكانهم بدلاً من أن يظل عقلي في عذابه وقلقه.

صمتتْ قليلاً لتستردّ أنفاسها اللاهثة من أثر انفعالها الزائد ونوبة السّعال التي داهمتها مجدداً، سَرت في قلب «إسماعيل» رجفة قوية سببها إحساساً قوياً بالشّفقة اعترى نفسه، لكنّه قاومه بشدّة ولم يدنو من مرقدها، بعدَ فترة وجيزة أكملت «زينب» حديثها بصوت متقطّع لاهث:

- حينَ اقتربت من مدخل الحُجرة ورفعت أستاره، تسمّرت في مكاني من هول المفاجأة، رأيته كما عرفته، لم يتغيّر فيه شيء، كأنّه غادرني بالأمس، فقط قليل من الشّعر الأبيض غزا فَوْديه على استحياء، لكن ملامحه كانت كما أحفظها بالضبط، بقيت على حالي

مكتبة عابث الالكترونية

متسمِّرة لفترة ثم فجأة نسيت كل شيء، بل تناسيت كل ما كان منه، لم أشعر بشيء سوى أنّني أحبه.

أصابتها غَصة قوية في حلقها حينَ تذكّرت ما حدث، اختنقت كلماتها وسالت من عينيها العَبرات وهي تقول بنبرات حَزينة:

- أوحشني لقاءه، افتقدت دفء أحضانه، نسيت تمامًا تلك الليال الطّويلة التي أرقني فيها السُّهد من الوحدة وآلمني فيها البكاء من الغياب، اكتشفت أنّني قد سامحته، غفرت له ما سببه لي من أذى وجراح، لا أعلم تحديدًا كيف حدّث، لم أزد على أنْ نظرت في عينيه ثم قلت «لقد أوحشتني»..

كان «إسماعيل» ينظر نحوها في تلك الأثناء مُتعجبًا لما تقول، لم يخطر على باله أبدًا أن تكون تلك السَّيّدةُ القوية المسئولة عن تسيير أمور عشيرة بأكملها تسكن داخلها كل تلك المشاعر والأحاسيس المرهفة، على حين أكملت هي بعدَ أنْ لمعت عيناها ببريق غريب:

- لم يرد على قولي، بل لم يُبد عليه أنه قد شعر بما تختلج به نفسي، فقط اكتفى بأنْ مدّ كفه لمصالحتي في هدوء، طعن كبريائي في مقتل وأهان كرامتي إهانة

مكتبة عابث الالكترونية

لا تُغْتَفر، إلا أنني تمالكت حينها نفسي المُضطربة بصعوبة بالغة، دعوته للدخول إلى الحُجْرة لكنّه رفض فافترشنا الأرض أمام مدخلها والتّحفنا برداء من الصّمت، بعد فترة وجيزة شرع يحكي ما جرى معه مُنْذُ أنْ غادرني، وحكيت له ما كان أثناء غيبته، أعطاني تلك الصُحف الجلدية التي أحملها في ذلك الصّندوق الخَشبي الذي لا يفارقني أبدًا ومعها صحيفة أُخرى لفك طَلاسم تلك اللغة التي خطّت بها، طلبت منه أن يمكث معنا في الدّيار لكنّه رفض، أخبرني أنه وجد ذاته أخيرًا في هذه الحُجْرة المُتهدّمة، رجوته أن نحاول مرّة أخرى لكنّه رماني حينها بتلك النّظرة التي مازالت محفورة في ذهني لم تفارقه لحظة واحدة وقال بنبرة حزينة «لقد فات الأوان يا زينب، أنا لم أعد حَمْزة الذي عرفت، أنا الآن يَحْيَى».. كانت ذلك هو آخر حديث لي معه، غادرني دون أنْ يودعني.. كانت تلك هي المرّة الأخيرة التي رأيته فيها.

أنهت حديثها ثم أجهشت في البكاء وانخرطت في نوبة مريرة من الحزن البائِس، اقترب منها «إسماعيل» بخطوات مُترددة ثم جلس إلى جوار الفِراش الذي تمدّد عليه ومدّ كفّه المُرتجفة يمسح الدّموع عن عينيها، فتحت جفناها في

مكتبة عابث الالكترونية

ومَن ثم وضعت كفها على وجهه، كان يرتعش بشدّة حين قالت:

- ساحمني يا بُني، لم أقصد أنْ أسبب لك سوءًا قط، لم أطلب منك شيئًا من قبل لكنّي الآن أسألك المغفرة.

ربت «إسماعيل» على كفها المُرتعش البارد في شفقة ولم يعقب، أغمضت «زينب» عيناها في ألمٍ وقالت بنبرة خافتة اختلطت بسعالها الذي خفت حدّته قليلاً:

- لي عندك طلب أخير.

أجابها «إسماعيل» بصوت خافت خالط دموعه:

- لك ما تشائين.

انتبهت لكونه لم يُكنيها بلقب «أم إسماعيل» كما كان قد تعوّد طيلة عمره، سالت دمعة حزينة على خدّها وهي تقول بصوت باك:

- أريد أن أدفن هنا، بجوار حَمْزة.

لم يجادلها «إسماعيل» في طلبها رغم غرابته، كانت حدّة سعالها كفيلة بأنْ تمنعه من الجِدال، اكتفى بأنْ أومأ برأسه إيماءة خفيفة ثم قام من جوارها يُلَمِلم تلك الصحف المُبعثرة،

مكتبة عابث الالكترونية

التي تحكي قصة «حَمْزة» و«يَحْيَى»، ما أنْ فرغ حتَّى التفت نحوها وقال:

- أظنّ أنّنا يجب أنْ نستعد للتحرّك الآن، لقد بقينا في تلك الحُجرة ليلتين طويلتين.

لم تجبه «زينب»، كانت ملامحها قد استكانت وتلوّنت بشرتها بزُرقة خفيفة، سَرت رعدة قوية في جسد «إسماعيل»، أحسّ بقلبه يعتصر في عنف، حاول أن يحدّثها مرّة أخرى لكن لسانه لم يطاوعه، حاول أكثر فأكثر، لكن بلا جَدوى، كأنّها حينَ رحلت أخذت معها جزءًا كبيرًا من روحه..

ارتمى برأسه على جسدها المُسَجّى في دَعة واستكانة يبكي في حُرقة، كان لا يعلم في حقيقة الأمرِ أيبكيها أم يبكي حاله التي لم تعد ولن تكون كسابق عهدها أبدًا..

بعدَ فترة من الوقت لم يعرف عدّتها، سمع طرقًا قويًا يصدر من الحُجرة المُتهدّمة أعلاه، تمالك نفسه المُمزقة وانتصب واقفًا في قوة خادعة ثم صعد الدَرَج الحَجَري إلى الأعلى، كان واحدًا من قواد جيشه يقف في صرامة، يقول في احترام واضح:

مكتبة عابث الالكترونية

- هل نتحرك يا سيدي الحكيم؟، لقد طال أمد مكوثنا في هذا المكان، وأخشى أن يعلم الأعداء بتحركاتنا فنفقد عنصر المفاجأة.

صمت «إسماعيل» لبُرهة محاولاً استجماع شتات نفسه المُزعزعة ثم قال بنبرة هادئة:

- سنتحرك حينَ نفرغ من إجراءات دفن...

سكت قليلاً وهو لا يعرف بِمَ يُناديها أو يُلقبها ثم قال:

- هنا سيُواري الثرى جسد أطهر النّساء، جسد أمي، سيدتنا «زينب الحكِيمة».

نكصَ الجندي رأسه احترامًا لهيبة الموت ومشاركة لقَائده في الحُزن ثم انصرف على الفور يصدر التّعليمات لباقي الجُند..

وقف «إسماعيل» صامتًا شاردًا ينظر لتلك الثلاث كَوْمَات من الصّخور، التي يرقد أسفلها ثلاثة كان لهم أثرٌ بالغ فِي تشكيل حياته، لا يعلم أيحزن عليهم أم يلعنهم، نظر مليًا صوب تلك الصّخرة المسطحة المحفور عليها بحروف واضحة:

«هنا وارى الثرى الجَسد الطّاهر لسيدتنا زينب الحكِيمة»..

مكتبة عابث الالكترونية

اغرورقت عيناه بالدّمع حينَ علم أنه لا يعلم أبوين سوى صاحبي هذين القبرين، حتى المكان الذي دفنا فيه أبواه الحقيقيان لم يخبراه به.. أفاق من شروده على يد صغيرة تُداعب كفّه القوي، نظر نحو صاحبها ثم تهلّلت أسَاريره، وقال بنبرة حانية:

- تعال يا حَمْزة، فأنت وحدك الآن القادر على إخراجي ممّا أنا فيه.

كانت تلك الكف الصَّغيرة لابنه الوحيد الذي أصرّت «زينب» على تسميته «حَمزة» حين وُلد، حمله بين ذراعيه القويتين ثم دخل إلى الحُجرة المُتهدّمة من جديد ليحمل الصحف، حينَ همّ بالرحيل لمح في رِكنٍ قصي منها غِمدًا يسكن فيه سيف صلد، أنزل «حمزة الصغير» من فوق ذراعه ثم أمسك بالسّيف، اغرورقت عيناه بالدّموع حينَ قرأ منقوشًا على مقبضه بحروف بارزة اسم «يحيى»..

حينَ خرج من الحُجرة مُعتليًا قمّة التل بعدَ أنْ علّق غِمد سيف أبيه في كتفه، كان كل شيء في حياته قد تغيّر، رمى ببصره صوبَ ذلك الحشد الكبير من الجُند، أخذ يفكر فيم يتعين عليه فعله الآن؟!، أيُكمل ما خرج من أجله مع «زينب»؟!، أم يعود من حيث أتى إلى أنْ تحين اللحظة التي

مكتبة عابث الالكترونية

يكون فيها مستعدًا وأهل العشائر؟!، لمعت أمام عيناه تلك العبارة التي قرأها في الصحف:

«ما بين اختيار واختيار يكمُن سرّ الاختبار».

أطرق برأسه إلى الأسفل مفكرًا، بعدَ فترة وجيزة وحينَ رفع رأسه كانت عيناه تلمعان ببريق خاطف، نظر صوب الحشود أسفل التّل وصاح فيهم بصوت جَهوري:

- في هذا اليوم البائِس التّعيس، تتضارب المشاعر بداخلي ما بين الحزن والفرح.

أطرق برأسه إلى الأسفل مُجددًا يحاول استجماع عزيمته، يتذكّر كل ما تعلّمه من «زينب» من فنون السّيطَرة على الجموع كما اعتادت أنِ تفعل فيما مضى.. رفع رأسه مواجهًا الجمع وقال بنفس الصّوت الجهوري:

- الحزُن لفقدنا الأهل والأحبّة.

صمت قليلاً متأملاً وجوه الحشد أسفله ثم أردف قائلاً:

- هذا الحزن أراه سببًا كذلك في شعورنا بالفرح.

تبادل الحشد همَهَمات الاعتراض وارتسمت على وجوههم أمَارات التّعجب من مقالته، لكنّه لم يعرهم انتباهًا وأكمل قائلاً:

مكتبة عابث الالكترونية

- الفرح لتجمعنا أخيرًا على هدف واحد وتشاركنا في مصير واحد، بعدَ أنْ كانت قد تفرّقت بنا السّبل واختلفت بيننا المصالح.

ارتسمت على شفتيه شبح ابتسامة باهتة وهو يتأمّل استجابتهم لحديثه ثم قال بنبرة حزينة:

- ولكن أبدًا لا يجب علينا أن ننسى من حُرمنا صحبتهم، من فقدنا دفء مشاعرهم وحنانهم، يجب علينا ألّا ننسى من ضحوا بأغلى ما يملكون من أجلنا، من جادوا بحياتهم من أجل أن تعلم الحقيقة.

ندّت عن بعض النّسوة في مؤخرة الحشد شهقات خافتة وهنّ يحاولن كبح أنفسهنّ عن الصّراخ والعويل، واكتفى أغلب الرّجال بتوجيه نظرات الحُزن إلى القَبور الثلاث.. لاحت منه نظرة صوبَ الغِمد المعلّق في كتفه، كادت أنْ تفرّ من عينيه دمعة هارِبةٌ، لكنّه تمالك نفسه سريعًا واستلّ السّيف من غِمده شاهرًا إياه في وجه الحشد من أسفله وصاح في قوة:

- من أجل يَحْيَى.

رانَ صمت مُطبق في أجواء المكان بعدَ عبارته الأخيرة، شعر «إسماعيل» بغصة شديدة المرار كالعلقَم في حلقِه.. حين عَلا صوته من جديد مُخترقاً حاجز السّكون:

- من أجل زينب، من أجل حَمْزة.

سَرت روح الحماسة في جموع الحشد فتوالت هتافاتهم بأسماء أحبائهم الذين فقدوهم، صاح أحدهم:

- من أجل المعتصم، ومن أجل بشيرة.

خرج صوت آخر يصرخ هاتفًا:

- من أجل غسّان، من أجل مُنْذِر.

توالت الصيحات المُتابعة:

- من أجل نايف.
- من أجل سلطان.
- من أجل جابر.
- من أجل كاظم.

نظر «إسماعيل» يتفرّس وجوههم مَليًا، يتأمّل مُعاناتهم ومدى صبرهم على البؤسِ والهوان الذي ذاقوا مراره أمدًا بعيدًا، ثم لوح بسيف «يحْيَى»، وقال بنبرة حماسية:

مكتبة عابث الالكترونية

- من أجل كل أحبابنا الذين فقدناهم ووراهم الثرى، من أجل حضارتنا التي حاول أولئك الذين يدّعون التّحضر أن يطمسونها ويخفونها في غَياهِب التّاريخ، من أجلٍ بلداتنا وأوطاننا، من أجل شعوبنا التي أذاقوها مرّ القهر وهوان الذُل لعقود طويلة.

ارتفعت صيحات الاستحسان من الحاضرين، ولمعت في عيونهم نظرة مُلِئت ببريق التّحدي والإصرار، أكمل «إسماعيل» قائِلاً في حدّة وإصرار:

- ارفعوا رؤوسكم بفخر، نفضوا عن أنفسكم ما علَق بها من تراب القهر والذّل.

لمعت عيناه في يقين وتحدٍّ حينَ رفع الصُحُف عاليًا أمام الحشد، قال:

- من هذا اليوم سنتعلم ممّن سبقونا، لن يكون فينا جاهل ولا سفيه.

سَرت روح الحماسة بين الحضور فشرعوا يهتفون بقوة بأسماء أحبتهم، كان هتافهم من القوة إلى الدَرَجة التي زُلزلت معها رمال الصّحراء وارتجّت لها صخور الجبلين، فأكمل «إسماعيل» خطابه قائِلاً بحماس شديد:

مكتبة عابث الالكترونية

- ارفعوا أصواتكم بأسماء أحبتكم لتخرقوا بها عَنان السّماء، ارفعوا أصواتكم بأسمائهم لتصل رسالتكم واضحة لمن كانوا يدّعون أنهم بناة الحضارة، حضارتهم الزائفة التي أقاموا بنيانها على الزّيف والخِداع، شيدوها على أنقاض حضارتنا البائِدة وأجساد آبائنا وأجدادنا.

أكمل «إسماعيل» خطابه قائلاً بحماس شديد:

- لا خوف بعدَ اليوم، لِأرفعوا أصواتكم لتحمل تهديدًا شديدًا لأعدائكم، تهديدًا بعاصفة مدمّرة لن تبقي ولن تذر.

صمت قليلاً والتفت تجاه قبر «زينب» ثم حانت منه نظرة خاطفة صوبَ قبر «حمْزة»، نظر إلى سيف أبيه في يده ثم قال بصوت بدا جامدًا كأنّه خارج من داخل القبور:

- وهذا وعدي لكم، إمّا أن نحيا أحرارًا كِرامًا، أو ألحق بمن سبقوني إلى الموت.

****

.. تمت بحمد الله ..

القاهرة في

٢٠١٥/١٠/١٩

مكتبة عابث الالكترونية

3abbeth.blogspot.com

مكتبة عابث

@3abeth

@mjanen23

يَحيَىٰ

أنصت إليَّ جيدًا يا بُني، فما سأقُصه عليك قد يكون بعيدًا عن التَّصديق، لم يتطرق إليه خيالك من قبل، لكن لتعلم أنه حق، ولتضع في حُسبانك أنَّ الوقت أمامنا قليل، فلا تضيعه في سَفاسِف السّؤال، استمع لقولي، وإنْ لم تجد إجابة عندي فستكون معك هذه الصُحُف، تُكمل لك ما خَفي عني من الحكاية..

منتصر أمين

محام وروائي مصري.. تخرج في كلية الحقوق جامعة الأسكندرية عام 1995.. له العديد من المقالات والمشاركات الأدبية نشرت بموقعي كتب وكتاب، الشباك.. صدر له من قبل رواية "الطواف" عام 2014"

تصميم الغلاف كريم آدم

ISBN 9789776549098

دار تويا للنشر والتوزيع

مكتبة عابث الالكترونية